الدكتور
ابراهيم زعرور
كلية الاداب ـ جامعة دمشق

الدكتور
علي احمد
كلية الاداب ـ جامعة دمشق

تاريخ العصر الأموي السياسي والحضاري

منشورات جامعة دمشق

١٤١٦ ـ ١٤١٧ هـ
١٩٩٥ ـ ١٩٩٦ م

اهداءات ٢٠٠٢

الاستاذ/ فاضل السباعى

دار الاشبيلية- سوريا

الدكتــور
ابراهيم زعــرور
كلية الاداب ـ جامعة دمشق

الدكتــور
عــلي أحمــد
كلية الاداب ـ جامعة دمشق

تاريخ العصر الأموي السياسي والحضاري





منشورات جامعة دمشق

١٤١٦ ـ ١٤١٧ هـ
١٩٩٥ ـ ١٩٩٦ م

مقدمـــة

العصر الأموي من العصور العربية العزيزة على كل عربي ، يؤمن بوحدة الأمة العربية ويسعى من أجل تحقيقها وتجسيدها حقيقة واقعة في حياة العرب • فهو العصر الوحيد الذي اتسعت خلاله رقعة الدولة العربية ، فوصلت الى حـدود الصـين في الشرق ، والى قريب من القسطنطينية في الشـمال ، والى قريب مـن منابع النيل في الجنوب ، والى بواتييه في جنوب فرنسة في الغرب • يضاف الى هـذا الاتسـاع في رقعـة الأرض ، فان الأمويين تمكنوا بقوة وتصميم أن يحافظوا على وحدة هـذه الرقعة عزيزة كريمة ، يحدوهم في ذلك إيمانهم الراسخ في استمرار الحياة العربيـة، من أجل المساهمة في تعزيز مسيرة الحضارة الإنسانية وتمكينها •

وقد انفرد الأمويون عن غيرهم من عرب الجاهلية ، أو الذين حكموا من بعدهم بمزيّة خاصة ، هي التمسك بالعروبة وعدها القاسم المشترك الذي يجتمع عليه العرب في كل ديارهم وفي كل الأوقات ، فراحوا يدققون في أنساب الخلفـاء وأنساب كبار موظفي الدولة ، ولا سيما الولاة منهم ، فكانوا يعتمدون ذوي الأصـول العربيـة الصافية ، لأنهم كانوا يؤمنون ، بأن العرب وحدهم هم الذيـن يمكنهـم النهوض بأمتهم وشعبهم دون الآخرين • وقد برهنت الفتـرات اللاحقة بعـد سقوط دولـة الأمويين صحة رأيهم ، فقد أدى الإعتماد على العناصر غير العربية ، الى نتائج سلبية قاسية ، عملت على تدمير الأمة العربية وتفتيتها الى عدة أقسام ودويلات ، وأهمـل الجناح الغربي من ديار العروبة بصورة نهائية منذ العصر العباسي الأول ، وظل كذلك حتى نهـاية العصور الوسطى إضافة الى هذه المزيّة الكبيرة ، فقد سعى الأمويون منذ وقت مبكر الى دفـع عملية البناء الحضارية في كل الميادين ، الفكرية والمعمارية

والإدارية ، فبنوا المساجد والقصور ، وشجعوا حركة العلوم في شتى المجالات ، وعربوا مصالح الدولة وإدارتها الحساسة وكأنهم كانوا يرون بنظرة دقيقة ، أن استمرار الدولة قوية وطيدة الأركان ، لن يكون ولن يتم إلا بتعزيز الحركة العلمية والحضارية وتقويتها •

وعلى الرغم من هذا الزخم الطيّب ، والتوجه الصادق الذي كان بحق مبدأ وعقيدة في نفوس الأمويين ، فإنهم تغافلوا عن أشياء كثيرة عن قصد أو بغير قصد ، أدت في النهاية الى احباط مشروعهم الحضاري والسياسي على حد سواء • من ذلك ، أنهم عجزوا كل العجز عن فهم أساسات ومتطلبات الحكم وقيادة الدولة ، فسقطوا في مستنقعات كبيرة ، لم يتخلصوا منها الا بسقوط دولتهم • فعجزوا عن إقامة أركان العدل بين الناس ، وعجزوا عن فهم الحرية التي نادى بها الاسلام ، وهي سيادة القانون وتطبيقه على الكبير مثل الصغير ، وعلى القوي مثل الضعيف ، وبدلاً من أن يفعلوا ذلك ، ذهبوا الى السعي الحثيث لتوسيع أملاكهم ، والاستئثار بخيرات البلاد على حساب أصحاب الحق والحاجة من أهل البلاد ،ولما حاول عمر بن عبد العزيز اصلاح ذات البيّن ، وإعادة الأمور الى سبيلها القويم ، تآمروا عليه وقتلوه دون أدنى رحمة أو شفقة • وكذلك فقد وقعوا في خطأ كبير ، عندما جعلوا من آل بيت رسول الله أعداء لهم ، فتوسعت شقة الخلاف بين الطرفين ، ووصل الأمر الى حدٍ محزن ومؤسف للغاية ، فقد سفكت دماء ، واغتصبت حقوق ، ونشبت ثورات ، وجرت أحداث ، ما كان يجب أن يحدث شيء منها ، لو أنهم نظروا الى الواقع بمنظار الوعي والتروي والهدوء • وفوق كل ذلك غلبت عليهم الميول العصبية القبلية في معظم الأحيان ، فانقسم الناس الى عصبيتين متناحرتين ، هما العصبية اليمانية والعصبية القيسية ، الأمر الذي أدى في النهاية الى نتائج سلبية مزعجة •

ومهما كانت صورة أمر الأمويين ، ومهما كانت أغلاطهم ، فإنهم سيبقون في نظر أهل الوعي ، ومحبي العروبة ، رجالاً كباراً ، لأنهم علمونا أن بلوغ المجد والعظمة والرقي ، لن يكون إلا من خلال الوحدة العربية ، التي تتضافر في ظلها

الوسائل والسبل كلها ، لجعل العرب قوة فاعلة حيّة بين الأمم المتحضرة ، وهذه الوحدة ، لن تكون إلا برفض القبلية والعصبية والاقليمية والأنانية الفردية . والإيمان المطلق بأن العرب مجموعة كبيرة من الناس يتساوون في الحقوق والواجبات تحت مظلة العروبة ، التي لا يختلف عليها إلا أعداء العرب . وهذا إن طبقناه في حياتنا المستقبلية ، نكون قد استفدنا من تجربة الأمويين ، التي تثير في النفس عند ذكرها أقسى مشاعر الحزن والأسى على أول تجربة وحدوية عصفت بها ريح الخلافات . وإن لم نطبقه نكون قد وضعنا أنفسنا أمام مجاز صعب ، لن يؤدي في نهاية المطاف إلا الى حتمية الفناء والذوبان في محيط الأقوياء ، ولو استطاع بنو أمية تحقيق التلازم والتطابق بين العروبة والاسلام وبين دور العرب الحضاري والمكارم التي أتى بها الاسلام لتعزيز وإغناء رسالة العرب الحضارية والانسانية هذا من جانب .. ومن الجانب الآخر لم يستوعب بني أمية في الفرع السفياني ولا الفرع المرواني معطيات وظروف وروح الاسلام ، بتحقيق التوازن الدقيق في تطبيق أوجه العدالة التي جاء بها الاسلام بشكل يكفل ويضمن استمرارية رسالة الدولة العربية الاسلامية التي انطلقت من الشام في ظل الدولة المركزية القوية لتحقيق إحدى المعجزات التي تفاخر بها الأجيال على مر العصور بما قدمته للإنسانية جمعاء في ظل النظام العربي الاسلامي التي ظلت مؤثراته قائمة حتى سقوط الدولة العربية الاسلامية في الأندلس ، وكنا الآن نتحدث ونعلم الأجيال لغة أخرى غير ما هو مدوّن في تاريخنا العربي الاسلامي في مراحله المتعددة .

المؤلفان

د. زعرور　　د. أحمد

مفردات المنهج المقرر لكتاب

تاريخ العصر الاموي السياسي والحضاري

ـ الفرع السـفياني :

معاوية بن أبي سفيان ـ خروج معاوية على تقاليد الخلافة الراشدة من خلال ولاية العهد ـ المنجزات الحربية زمن معاوية .

ـ خلافة يزيد بن معاوية بن أبي سفيان ـ مأساة كربلاء ـ أهم الأحداث بعد وفاة يزيد ـ استقرار الأمر لمروان بن الحكم ومعركة مرج راهط .

ـ خلفاء الفرع المرواني من البيت الأموي ـ مروان بن الحكم وابنه عبد الملك . خلافة عبد الملك بن مروان ـ حركـة التوابين ومعركة عين الوردة (رأس العين) ـ معركة فازر ـ حركة المختار الثقفي ـ حركة الجراجمة في جبال اللكام ـ التخلص من مصعب بن الزبير ـ فتنة عمرو بن سـعيد الأشدق ـ نهاية عبد الله بن الزبير ـ أمر العصبية القبلية في عصر عبد الملك ـ سياسة عبد الملك في الداخل ـ موقف عبـد الملك من الخوارج ـ تمـرد عبـد الرحمن ابن الأشعث ـ المنجزات العسكرية زمن عبد الملك بن مروان ـ حروبه ضـد البيزنطيين ـ الاهتمام بعملية فتح المغرب العربي ـ اصلاحات عبد الملك بن مروان ـ نهاية عبد الملك بن مروان.

ـ خلافة الوليد بن عبـد الملك ـ المنجزات العسكرية زمن الوليـد بن عبد الملك = تتمة فتح المغرب العربي ـ فتح الأندلس ـ الفتح فيما وراء النهر ـ الفتح

في السـند ــ حروب الوليـد مع الـروم ــ منجزات عصر الوليـد الحضارية ــ الاصلاحات الداخلية في عصـر الوليد بن عبد الملك ــ نظرة في شـخصية الحجاج الثقفي ـنهايته •

ــ خلافة سليمان بن عبد الملك •

مسألة العصبية في زمنـه ــ اساءة سليمان بن عبـد الملك الى موسى وطارق فاتحي الأندلس ــ أعمال يزيد بن المهلب في العراق ــ المنجزات العسكرية في عهـد سليمان بن عبد الملك ونهاية سليمان بن عبد الملك •

ــ خلافة عمر بن عبد العزيز ــ سيرته العامة ــ سياسته المالية ــ مسألة توزيع القضاء في عصره ــ حرصه على عرب الأندلس ــ معاملته للناس وسجاياه ووفاته •

ــ خلافة يزيد بن عبد الملك (يزيد الثاني) •

فتنة يزيد بن المهلب ــ العصبية القبلية في عهد يزيد الثاني :

خلافة هشام بن عبد الملك ــ سيرته العامة ــ الدعوة العباسية في عهد هشام ــ حركة زيد بن علي ــ العمليات العسكرية زمن هشام بن عبد الملك = في المغرب والأندلس ــ حركة ميسـرة المتغري وتصرف هشـام تجاهها ــ حروب هشام في الجبهات الأخرى ــ نهاية هشام بن عبد الملك •

ــ خلافة الوليد الثاني ويزيد الثالث •

وضعه بعد توليه الخلافة ــ الثورة على الوليد ومقتله ــ خلافة يزيد الثالث وابراهيـم •

ــ خلافـة مروان بن محمد (مروان الثاني) سـيّرته وعصره ــ المعارضات والقلاقل في عهد مروان بن محمد ــ أحداث المغرب والأندلس في عهده ــ ظهـور

لعصبية القبلية في الأندلس • أحداث المغرب ـ يوسف الفهري واستيقاظ العصبية من جديـد •

ـ الحياة الإدارية في العصر الأموي •

الخلافة والوزارة ـ الدواوين = ديوان الرسائل والكتابة ـ ديوان الجند ـ ديوان الخراج والجبايات ـ ديوان الخاتم ـ ديوان البريد ـ القضاء ـ القضـاء في المغرب والأندلس ـ السكة ـ الطراز •

ـ الحياة الفكرية في العصر الأموي •

العلوم الدينية ـ علوم اللغة العربية ـ علم التاريخ ـ علم الكلام ـ الكيمياء والطب ـ المنجزات المدنية والدينية •

ـ البحرية العربية في العصر الأموي •

ـ العلاقات العربية البيزنطية •

ـ سقوط الدولة الأمويـة •

الفصل الأول

الفرع السفياني

معاوية بن ابي سفيان :

إن مقتل علي بن أبي طالب أزاح منافساً قوياً من وجه معاوية بن أبي سفيان ، ولكن لم ينه النزاع بين بني أميّة وبني هاشم • فإن الهاشميين سرعان ما نصبوا الحسن بن علي خليفة مكان أبيه • ولكن الحسن لم يكن مثل أبيه في الكفاية والمقدرة السياسية حتى يتمكن من مواجهة معاوية الذي لم يجد صعوبة في إزاحة الحسن من طريقه ، ذلك لأن الحسن لم يطلب للتنازل عن الخلافة أكثر مما كان في بيت مال الكوفة •

ومن الجدير التنويه بشخصية معاوية قبل الخوض في تفاصيل خلافته ومنجزاتها السياسية والحضارية • فهو معاوية بن أبي سفيان صخر بن حرب بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف • ولد بمكة المكرمة قبل هجرة الرسول العربي الكريم الى مكة بخمسة عشر عاماً ، وأسلم يوم فتح مكة مع الذين أسلموا من أهلها ، ويقال أنه أصبح كاتباً للرسول بعد اسلامه ودخل في خدمة الدولة العربية الاسلامية الجديدة[1] •

وقد تولى حكم دمشق بعد وفاة أخيه يزيد ، ثم ولاه عمر بن الخطاب على الأردن بدلاً من شرحبيل بن حسنة ، فعمل على كسب رضاء الخليفة عمر ليبقيه على الشام ، فاهتم باستكمال فتح مدن الساحل كطرابلس وقيسارية وعسقلان[2] •

---

١ ـ المقريزي ـ النزاع والتخاصم فيما بين بني أمية وبني هاشم طبعة ليون ١٨٨٨ ص ٤٨ •

٢ ـ البلاذري فتوح البلدان ج١ ص ١٦٩ •

وفي عهد عثمان بن عفان جمعت له ولاية الشام كلها وظل كذلك حتى فتنة عثمان ومقتله وبويع لعلي بالمدينة ، فحزم أمره على المطالبة بدم عثمان ، وكانت موقعة صفين بينه وبين علي بن أبي طالب ، وكان التحكيم المعروف ، وكان مقتل علي وتنازل ابنه الحسن عن الخلافة لمعاوية سنة ٤١ هـ/٦٦١ م . وسمي هذا العام بعام الجماعة لاجتماع الأمة العربية الاسلامية على حاكم واحد[٣] وقد تجسّدت الأسباب التي حملت الحسن على التنازل عن الخلافة رغم اعتراض أخيه الحسين على ذلك فيما يلي :

١ ــ كان الحسن رضي الله عنه ينفر من الحرب ويشفق على المسلمين من الفتن الداميّة ، وهو الذي عاصر الفتنة الكبرى وما انتهت إليه من مآس ونكبات راح ضحيتها عثمان بن عفان ووالده الإمام علي ، وأدت الى تجدد النزاع بين بني أمية وبين بني هاشم[٤] .

٢ ــ أراد الحسن بنظرته البعيدة أن يخمد نار الفتنة الكبرى التي أطاحت بعثمان وعلي على يديه ، إما لرغبة صادقة في حقن دماء العرب المسلمين وتسكين الفتنة ، وإشفاقاً عليهم من الإقبال على مزيد من المعارك ومزيد من التضحيات البخسة ، أو لإقتناعه بعقم أية محاولة للتغلب على أهل الشام ، الذين رجحت كفتهم بسبب تلاحمهم وتضامنهم أمام أهل العراق المنقسمين على أنفسهم[٥] .

٣ ــ فقد الحسن ثقته بأهل الكوفة بعد الذي فعلوه بأبيه في موقعة صفين وبعد أن انخذلوا عن الحسن وكرهوا القتال ، وتفرقوا عنه دون تبصر بما سينتج عن ذلك من عواقب وخيمة ونتائج سلبية[٦] .

---

٣ ــ ابن قتيبة الإمامة والسياسة ص ١٥٤ .

٤ ــ ابن الأثير ــ الكامل في التاريخ ج٣ ص ٤٠٥ ابن قتيبة الإمامة والسياسة ص ١٥٥ .

٥ ــ الدنيوري ــ الأخبار الطوال ص ٢٢١ .

٦ ــ تاريخ الطبري ج٦ ص ٦٢ ابن الأثير الكامل ج٣ ص ٤٠٥ ــ ٤٠٧ .

وهناك أسباب أخرى غير ذلك منها على سبيل المثال ، أنه لم يكن مهيئا لحمل أعباء الحكم ، فكان يميل الى تفضيل الحياة السهلة ، وميله الشديد الى الحياة الدينية ، وهذه الأسباب لا صحة لها في كثير من الأحيان إذا ذكرنا أن الحسن لم يكن يتردد في حمل السلاح والتعرض للموت إذا ما اقتضى الأمر ذلك ، فقد دافع عن عثمان بن عفان حتى جرح وتلطخ وجهه بالدماء ، ورأيناه في أهل العراق يسعى لمحاربة معاوية ثم يطعنه بعضهم في فخذه فينزف نزفاً شديداً .

لكن الذي حدث هو أن الطريق لم تكن مفروشة بالرياحين والورود أمام معاوية في حكمه ، الذي استمر فترة عشرين عاماً بدءاً من تاريخ مقتل الإمام علي ، وواجهته مصاعب جمة كانت في غاية الصعوبة والتعقيد من ذلك :

١ ـ استمالة الأقطار المختلفة ، وذلك لأن الشام وحدها كانت موالية لمعاوية ، فاعتمد على أهلها كركيزة أساسية من ركائز حكمه . فقد وجد فيها تقاليد عريقة في الحكم والإدارة ، ففيها وجد جهازاً إدارياً متمرساً ساعده على أداء مهمته في فترة التأسيس لدولته المنشودة . وقد تمتع هذا الجهاز الإداري بالاخلاص والخبرة والسعي الحثيث لإنجاز المهام الملقاة على عاتقه . أما الحجاز والعراق وما وراءهما فكانت موالية لآل بيت رسول الله (ص) . وأما مصر فكانت مع عمرو بن العاص، ومع أن عمرو بن العاص كان موالياً لمعاوية ، فإنه كان يطمع في الأمر لنفسه، أو يرى نفسه حليفاً لمعاوية على الأقل لا تابعاً .

٢ ـ إيجاد ولاة لا يرون هذه المقاطعات ويقبلون أن يقفوا الى جانب معاوية في نزاعه المقبل مع الأحزاب المختلفة .

ولكن معاوية بما كان له من حنكة ودهاء استطاع أن يسيطر على الوضع بما تمتع به من صبر وحلم وسعة صدر وتحمل ، فانحنت له الرؤوس وتقبلته نفوس الناس على مضض ، لأن الناس كانوا غير مستعدين الدخول معه في صراع مسلح غير مأمون النتائج . ولم تكن سياسة التسامح واللين مستمرة طوال فترة حكمه ، بل غلبت على القسم الأول منه ، لأنه كان مهتماً بتوطيد أركان دولته على أسس

ثابتة ومتينة • أما خلال القسم الثاني من فترة حكمه ، فقد أصبح الأمر مختلفاً فأصبحت الأمور تعالج بحزم أكثر من ذي قبل ، وذلك من خلال الولاة الذين اعتمدهم في الولايات المعارضة ، ولاسيما في العراق فقد رأى معاوية أن يبدأ بالعراق ، فولى على الكوفة وغيرها رجال أكفياء الى حدٍ كبير ، عمل على اختيارهم بعناية فائقة ، لأنه كان يكلف ولاة العراق بأمر فتح البلدان في الجبهة الشرقية ، فكانوا يعينون بدورهم قادة الفتح في هذه الجبهة ولهذا نراه يعتمد بصورة خاصة على رجال من قبيلة ثقيف الحجازية التي كانت تسكن مدينة الطائف المدينة الجبلية الغنية ببساتينها ومزروعاتها وتجاراتها العامة • ومن الثقفيين الذين اعتمد عليهم معاوية في إدارة شؤون العراق المغيرة بن شعبه ، الذي ولاه على مدينة الكوفة سنة ٤١ هـ/٦٦١ م[٧] وهو داهية سياسي مستعد أن يخدم أي انسان إذا اتفقت هذه الخدمة مع مصلحته الشخصية • ولقد كان المغيرة يعرف حال أهل العراق ، لأنه كان قد تولى أيام عمر بن الخطاب ولاية البحرين وولاية البصرة ، ثم لعب في الفتنة بين علي وعثمان ومعاوية دوراً خطيراً • وانضم الآن المغيرة الى معاوية وأخذ يوقد ناراً بين الخوارج وبين الشيعة فيشغل بعضهم ببعض ليتيح لمعاوية خدمة جليلة كما وصل بينه وبين زياد بن أبيه (الذي كان يشغل حكم فارس من قبل الإمام علي) وذلك سنة ٤٢ هـ/٦٦٢ م •

وقد اعتمد معاوية على المغيرة بن شعبة في تهدئة الأوضاع في ولايته فعامل الخوارج باللين وحسن السياسة والتدبير[٨] وكذلك فعل مع العلويين ومن في حكمهم • وهو ذو ماضٍ حافل ، قيل إنه أسلم وفر الى المدينة المنورة بعد هجرة الرسول العربي إليها ، الذي كلفه بتهديم أصنام الطائف • وقد تولى البصرة وعزل عنها لحادث أخلاقي سنة ١٧ هـ[٩] وفي عهده فتحت بلاد الجبل وأذربيجان في آسية الوسطى • وقد لزم الحياد إزاء أحداث خلافة عثمان بن عفان • لما قتل عثمان أشار على علي أن يبقي معاوية والياً على الشام ، فلم يلتفت علي الى ذلك ، ولم يعتمد

٧ ــ تاريخ الطبري ج٥ ص ١٦٦ •
٨ ــ تاريخ الطبري ج٥ ص ١٦٥ ــ ١٦٦ •
٩ ــ انظر من أجل هذا الأمر الأغاني للأصفهاني ج١٤ طبعة دار الكتب ص ١٤٥ ــ ١٤٧ •

عليه في أية مهمة ، فذهب الى معاوية وصار من أنصاره المعول عليهم • فأعاده معاوية الى عمله القديم والياً على مدينة الكوفة • وعلى الرغم من ذلك فإنه لم يتطرف في معاداة المعارضين للأمويين ، لأنه كان يريد أن يبقى في منصبه ، وأن يحافظ على حياة هادئة بعد أن تقدمت به السن وداهمته الشيخوخة •

وقد ندر عدد المعارضين الخوارج في الكوفة في زمنه ، وساعده الكوفيون على التخلص منهم لأنهم كانوا أعداء مشتركين للأمويين والكوفيين الذين هواهم في علي • وكان الكوفيون لا ينكرون حبهم لعلي ويحاول بعضهم إظهار هذا الحب• وتتلخص سياسة المغيرة بطلبه من الكوفيين أن يحبوا علياً قدر استطاعتهم بشرط ألا يظهروا ذلك فتقوم بينه وبينهم خصومة يساق إليها مجبراً بوصفه ممثلاً للأمويين(١٠) •

والشخص الآخر الذي اعتمد معاوية عليه في حكم العراق ، هو زياد بن أبيه ، الذي وصف بأنه كان من الأشخاص الذين لا يستمالون بالمال أو بالجاه ، لأنه كان والياً على فارس كلها • ولم يكن يرضيه الكلام المعسول وحده ، ولكنه مدخول النسب ، إذ يقال إن أمه سميّة كانت تتزين للرجال ، وأنه ولد سفاحاً •

كان زياد كالمغيرة بن شعبة من أعظم رجالات ثقيف وأذكيائها ، وهو من المهاجرين الثقفيين الكثيرين الى البصرة ، وقد عرف أول أمره بزياد بن سميّة ، ولما بلغ الرابعة عشرة من عمره كلف توزيع الغنائم على جند البصرة لأنه كان يعرف القراءة والكتابة • وفي خلافة علي انضم الى صفه وتولى البصرة في غياب عاملها عبد الله بن عباس وذلك سنة ٣٨ هـ/٦٥٩ م وبعد ذلك أرسله الى فارس لتهيئة الأحوال فيها فقام بالمهمة دون قتال • وقد رأى معاوية أن يستميل زياداً إليه بأن يمحو عنه عار عدم وجود أب رسمي له ، فاستدعاه إليه ثم ألحقه بنسبه واعترف به أخاً له بعد أن أعلن أن سميّة قد حملت بابنها هذا من أبي سفيان بن حرب والد معاوية • ولقد أعدّ معاوية شهوداً شهدوا بأن أبا سفيان كان يزور سميّة قبل الاسلام (١١) •

١٠– تاريخ الطبري ج٥ ص ١٨٩ •

١١– المسعودي – مروج الذهب ج٣ ص١٤ الطبري ج٥ ص ١٧٦ •

وفي سنة ٤٥ هـ/٦٦٥ م جاء زياد والياً على البصرة من قبل معاوية وألقى خطبته البتراء . لما توفي المغيرة سنة ٥٠ هـ/٦٧٠ م أضيفت الكوفة الى ولاية زياد . ثم ازدادت ثقة معاوية بزياد فأضاف إليه حكم فارس أيضاً وكذلك حكم الهندوالبحرين وعمان . وهكذا أصبح زياد بن أبيه يحكم القسم الشرقي من الدولة العربية الاسلامية ، كما كان عمرو بن العاص يحكم مصر وما وراءها . وقام زياد بإصلاحات مختلفة منها إعادة بناء مسجد الكوفة وتبليط أرضه حتى لا تعفر جباه المصلين . أو كيلا يستطيع الناقمون أن يلتقطوا الحجارة من أرضه إذا سجدوا ثم يرموا بها الإمام إذا قاموا من سجودهم . ثم إن زياداً قضى على العصبية القبلية كما أبطل العادة البدوية القديمة بأن تؤلف كل قبيلة وحدة عسكرية خاصة بها . وجعل زياد جند البصرة أربعة أقسام يتألف كل قسم منها من أبناء القبائل المختلفة ، ثم جعل على كل قسم من هذه الأقسام قائداً موالياً لبني أمية .

ولم يكن مدارياً للأمور كما كان حال المغيرة بن شعبة ، ففي زمنه قام الكوفيون على حصب ممثله في الكوفة التي ضمت الى حكمه عمر بن الحريث ، وذلك بتحريض من حجر بن عدي الكندي زعيم شيعة الكوفة ، فتوجه زياد بنفسه الى الكوفة على أثر سماعه بما جرى لممثله ، فدخل مسجدها وخطب في الناس مهدداً ومتوعداً بأن يأخذ بمثل أعمالهم وتصرفاتهم ، وكتب في الوقت نفسه الى معاوية يستشيره في أمر حجر بن عدي الكندي فأجابه معاوية أن قيّده في الأصفاد وأرسله إليّ . فأرسله الى دمشق مع نفر من أصحابه الى معاوية ، فأمر بقتله دون أدنى تفكير ولعل ذلك من سقطات معاوية ، الذي عرف عنه شدة التأني والصبر والخبرة في الميدان السياسي . والمسلمون الشيعة يعدون حجراً من أكابر الشهداء بعد الإمام الحسين(١٢) .

وتوفي زياد بن أبيه سنة ٥٣ هـ/٦٧٣ م وله من العمر ثلاث وخمسون سنة ، بعد حكم مستمر للعراق استغرق ثماني سنوات . وكان زياد في نظر الأغلبية رجلاً جباراً ظالماً لا يعرف قلبه الرحمة ولا العطف بالنسبة للمعارضة الكوفية. أما بالنسبة للخوارج فكانت معاملته لهم أشد وأعنف لأنهم حاربوه ودعوا الناس الى خلع الخليفة

(١٢) ـ تاريخ الخلفاء ص ٦٣ تاريخ الطبري ج٥ ص ٢٥٣ وما بعدها.

الأموي والانضمام الى صفوفهم والقبول بأفكارهم • وقد جنح زياد بن أبيه أول الأمر لمهادنتهم فجعلهم يقولون ما يشاؤون • ولكن عندما راحوا يعتدون على الناس بنهب أموالهم ، أوقفهم عند حدهم ، وذلك بقتل زعمائهم المحرضين[١٣] •

وقد قدر الأمويون لزياد بن أبيه هذا الوفاء لدولتهم ، فاعتمدوا عليه اعتماداً كبيراً ، وأعطوه الحرية التامة والمطلقة في تسيير شؤون ولاية العراق دون أي اعتراض على تصرفاته في هذا المضمار ، وحين وافته المنية اعتمدوا على أولاده بالصورة نفسها التي اعتمدوا عليه فيها •

أما الولاة الذين خلفوا زياد وأبناءه في حكم الكوفة والبصرة ، فكان منهم على الكوفة عبد الله بن خالد بن أسيد سنة ٥٣ هـ ، ثم الضحاك بن قيس الفهري سنة ٥٥ هـ ، ثم عبد الرحمن الثقفي سنة ٥٨ هـ ، ثم النعمان بن بشير الأنصاري سنة ٥٩ هـ • وأما البصرة فقد تولاها بعد موت زياد بن أبيه سَمُرة بن جُندب الفزاري سنة ٥٣ هـ ، ثم عبد الله بن عمر بن غيلان سنة ٥٤ هـ ، ثم أعطيت لعبيد الله بن زياد بن أبيه سنة ٥٥ هـ • وكانت فارس مقسمة بين أبناء زياد بن أبيه • وقد بقي عبيد الله بن زياد على البصرة الى وفاته • كما أنه تولى خراسان مدة • وهذا التبديل الكثير للولاة على البصرة والكوفة يدل على أمرين : على اضطراب الأحوال في العراق وعلى اهتمام الأمويين بالعراق •

ولا يخامر الشك أحداً أن عبيد الله بن زياد كان والياً مقتدرا من أنصار بني أمية الأوفياء ، ولكنه لم يكن مقتدراً كقدرة والده في الإدارة ولا كانت له حكمة أبيه في تصريف الأمور وفي الوفاء لبني أمية • على أن أثر هذين النقصين في عبيد الله لم يظهر في عهد معاوية بن أبي سفيان ، بل في عهد يزيد بن معاوية • وقد امتاز على أبيه في شيء واحد تجسّد في شدة تركيزه على قتال الخوارج والالتزام بوجهة نظر الدولة والدفاع عن مواقفها ونظرتها الى الحكم حيالهم ، مما جعل المعتدلين والمتطرفين يثورون وينقمون عليه على حدٍ سواء ، فكان أكثر شهداء الخوارج في عهده[١٤] •

١٣ـ تاريخ الطبري ج٥ ص ٢٣٧ وما بعدها •
١٤ـ تاريخ الخلفاء ص٦٥ •

أما معاملة معاوية لأهل الشام ، فقد اختلفت عن معاملته لأهل العراق ، ذلك لأن الشام كانت في عهده تنعم بالهدوء والاستقرار ، لم تحدث فيها أحداث جسيمة كتلك التي حدثت في العراق ، هذا بالاضافة الى أن معاوية مارس الحكم فيهابنفسه وبصورة مباشرة ، وهو الذي عرف كيف يستميل أهلها الى جانبه بكل الوسائل والسبل المادية منها والمعنوية الى درجة أنه عدّ أهل الشام عصبته الأساسية التي لا بديل له عنها ، كانت موضع احترامه واهتمامه وعنايته . فجمع حوله القلوب وكسب تأييد الناس الى درجة أنهم امتشقوا السيوف للدفاع عنه وتحقيق كل ما يريده من أمور . كما أنه من ناحية أخرى استطاع بسياسته الناجحة أن يحقق التوازن بين قيس ويمن ، الى درجة أن عصره اتسم بعدم الاعتماد على العصبية القبلية ، التي طغت على طبيعة الحكم في العصر الأموي باستثناء نثرات قليلة أخرى، فكان الولاء للدولة هو المعوّل عليه في مسيرة الحكم العامة . وهذا كله ساعده على بناء استقرار حقيقي في الشام برمتها .

وقد اتخذ معاوية من مدينة دمشق عاصمة وحاضرة لدولته ، وأحاط نفسه بأبهة الملوك وجلالهم ، فأقام في قصر الخضراء بجوار المسجد الأموي ، وجعل لنفسه سريراً على نحو ما كان لأباطرة الروم. وكان معاوية مجدداً في نظم الحكم والإدارة، فعلى الرغم من إبقائه على النظام الإداري القديم وعلى النظام النقدي المتبع في عصر الخلافة الراشدة ، فإنه أول من اصطنع الموالي والنصارى في المناصب ، فكان كاتبه وصاحب أمره سرجون بن منصور الرومي ، وعلى حرسه رجل من الموالي يقال له المختار وقيل إنه أبو المخارق مالك[١٥] وكان طبيبه ابن أثال نصرانياً ولاه على خراج حمص[١٦] واقتدى عماله على الأمصار به ، فكان زياد بن أبيه أول من دوّن الدواوين ووضع النسخ للكتب ، وأفرد كتاب الرسائل من العرب والموالي المتفصحين[١٧] ومعاوية هو أول من وضع البريد في الدولة العربية الاسلامية تسهيلاً لوصول أخبار الأقاليم والبلدان إليه بالسرعة القصوى الممكنة[١٨] وأول من اتخذ ديوان الخاتم

١٥ــ تاريخ الطبري ج٦ ص١٨٣ الصولي أدب الكاتب تحقيق محمد بهجة الاثري القاهرة ١٩٤١ ص ١٩٢ الكامل لابن الأثير ج٤ ص ١١ .
١٦ــ تاريخ اليعقوبي ج٢ ص ٢٢٣ الجهشياري الوزراء والكتاب ص ٢٧ .
١٧ــ تاريخ اليعقوبي ص ٢٣٤ .
١٨ــ ابن طباطبا ص ١٠٦ .

وولاه عبيد الله ابن أوس الغساني ، وقيل ولاه عبد الله بن محصن الحميري[١٩] وهو أيضاً من أذن في تجريد الكعبة ، وكانت كسوتها قبل ذلك تطرح عليها الكسوة فوق الأخرى ، وهو أول من اتخذ الحراس ، وأول من كانت له الصوافي في جميع أنحاء أقاليم الدولة العربية ، وهي الأموال التي كان يستصفيها لنفسه من جميع الولايات بعد استقطاع العطايا ، ومن هذه الأموال كانت صلاته وجوائزه وهداياه،

ومعاوية هو أول من أدخل المقصورة في المسجد ، وكان يدخلها عن طريق سرداب يصل بين قصر الخضراء والمقصورة ، وكان لا يدخل هذه المقصورة إلا حراسه الثقاة . كذلك استحدثت المئذنة في عهده وأصبحت عنصراً معمارياً من عناصر الجامع ، ولم تكن كذلك في المساجد حتى ذلك الوقت ، وكان الناس يستخدمون الناقوس بجامع عمرو بن العاص وقت صلاة الفجر حتى سنة ٥٣ هـ/٦٧٣ م فأمر معاوية مسلمة بن مخلد الأنصاري واليه على مصر بأن يبني صوامع للأذان ، فبنى مسلمة أربعة صوامع في أركان جامع عمرو بن العاص ، وانتشرت الصوامع في المساجد بعد ذلك[٢٠] .

وقام بتمتين صلاته مع بني كلب فتزوج امرأة منهم هي ميسون ، وقد سارع الكلبيون في الدخول في الاسلام بعد ذلك . وقد أثرت سياسته في نفوس الآراميين من سكان البلاد الأصليين ، وشعروا أن قربهم من الخليفة سيساعدهم كثيراً على تحسين أحوالهم ، فأسلم بعضهم وبقي بعضهم الآخر على مسيحيته ، فعاملهم برفق ولم يشعرهم أن هناك فرقاً بين مسيحي ومسلم ، وبالجملة كان رجل دولة من طراز نادر ، يعرف كيف يختار رجال دولته ، وكيف يسوس الأمور ، فأخلص له الناس ونفذوا أوامره سواء أكان ذلك عن رغبة أو غير ذلك .

خروج معاوية على تقاليد الخلافة الراشدة من خلال ولاية العهد :

حينما تنازل الحسن عن الخلافة أصبح معاوية خليفة للمسلمين . ومنذ ذلك الحين بدأ يُعد العدة لحصر الخلافة في البيت الأموي ، وجعلها وراثية . ولما

١٩ــ ابن الاثير الكامل في التاريخ ج٤ ص ١١ .
٢٠ــ تاريخ اليعقوبي ج٢ ص ٢٣٣ ــ ٢٣٤ .
٢١ــ السيد عبد العزيز سالم ــ المآذن المصرية طبعة القاهرة ١٩٥٩ ص ٥٩.

استقامت له الأمور استخدم على الكوفة كما رأينـا المغيرة بن شعبة ، ثـم هم أن يعزله ويولي سعيد بن العاص ، فلما بلـغ ذلك المغيرة قدم الى الشـام على معاوية وأظهر له خوفه من نشوب الفتنة والاختلاف بين العرب المسلمين من بعده ، وأشار عليه أن يتخذ ولده يزيد ولياً للعهد ، فأعجب معاوية برأيه ، واقتنع به ، فسيّره الى عمله حتى وافته المنية[٢٢] .

وقوي عزم معاوية على البيعة ليزيد ، وبخاصة بعد أن أرسل إليه المغيرة وفداً من أهل الكوفة يطالبونه بمبايعة يزيد ولياً للعهد ، ولكنه آثر التروي والتمهل ، حتى لا يثير عليه الحسن بن علي وأبناء الصحابة ، ورأى أن يترك إعلان ذلك الى ما بعد وفاة الحسن ، ولهذا سعى سعياً حثيثاً الى إهلاكه بالسم ، وتدل الروايات والأخبار أن زوجته جعدة بنت الأشعث بن قيس هي التي سمته بتحريض من معاوية ، وقيل أن يزيد بن معاوية هو الذي دس إليها أن تسمه فيتزوجها[٢٣] وعندما وقف معاوية على خبر وفاته ، فرح فرحاً شديداً وصلى في الخضراء تعبيراً عن هذا الفرح .

وقد مهد لبيعة يزيد ببعض التصرفات ، فأرسله مع المجاهدين ليظهره أمـام الناس بمظهر المجاهد المثاغر ، فيحرز بذلك كسبا معنويا يرفع من شـأنه ، ويمحي من ذاكرة الناس ما عرف به يزيد من خلاعة ومجون ، مما يساعد على تأهيله لمنصب الخلافة[٢٤] فعندما توفي الحسن بن علي سنة ٤٩ هـ عزم معاوية على البيعة ليزيد ، فكتب الى عماله يأمرهم بتقريظ يزيد ووصفه ، وبإرسال الوفود إليه من الأمصار ، فأقبلت الوفود من العراق والشام تبايعه . وأرسل معاوية الى مروان بن الحكـم بالحجاز يأمره بأن يعد الناس نفسياً للقبول بمبدأ تعيين يزيد ولياً للعهد ، إذ كان عرب الحجاز بوجه خاص غير مستعدين للنقلة من النظام القائم على الشورى الـى النظام الوراثي . فعندما خاطب مروان أهل المدينـة بذلك كان رد الفعل عنيفـاً ، وأعلن أبناء الصحابة استنكارهم لولاية العهد ، ونهض عبـد الرحمن بن أبي بكر وأعلن معارضته القوية[٢٥] .

٢٢ــ ابن قتيبة الإمامة والسياسة ص ١٥٥ ابن الأثير الكامـل في التاريـخ ج٣ ص ٥٠٤ .

٢٣ــ ابن الأثير ــ الكامل في التاريخ ج٣ ص ٤٦٠ .

٢٤ــ تاريخ اليعقوبي ج٢ ص ٢٢٩ المسعودي مروج الذهب ج٣ ص ٢٤ .

٢٥ــ ابن الأثير ــ الكامل في التاريخ ج٣ ص ٥٠٦ .

وكان لابد لمعاوية من اصطناع اللين مع المعارضين من أهل المدينة ، فقدم بنفسه الى المدينة سنة ٥٠ هـ / ٦٧١ م فتلقاه الناس ثم أرسل الى العبادلة الثلاثة أبناء الصحابة ، وخاطبهم في رغبته في أخذ البيعة ليزيد ، فعارضوه كلهم ورد عليه عبد الله بن عمر أن الخلافة ليست هرقلية ولا قيصرية ولا كسروية يتوارثها الأبناء عن الآباء ، فعاد معاوية الى الشام بلا نتيجة ايجابية[٢٦] وبعد فترة معينة عاود مطالبة أهل المدينة بالبيعة لابنه واستخدم سعيد بن العاص عامله على المدينة وسائل العنف والقسوة في حمل الناس على مبايعة يزيد ، فأبطأ الناس عنها إلا اليسير منهم ، ولا سيما بني هاشم الذين أنكروا أن يتولى عليهم من يشرب الشراب ويلعب بالكلاب ويظهر الفجور والفسوق[٢٧] فاضطر معاوية الى القدوم بنفسه الى المدينة وهو ينوي إرغام المعارضين على قبول البيعة ليزيد ، فقدم في ألف فارس ، وأدى فريضة الحج بمكة وقفل الى المدينة ، فدعا بالمعارضين الأربعة وهم ، الحسين بن علي ، وعبد الله بن عمر ، وعبد الرحمن بن أبي بكر ، وعبد الله بن الزبير ، فحضروا وسألهم في تقديم ابنه يزيد ولياً للعهد ، فلما أبوا هددهم بالقتل إن كرروا رفضهم ، وأخذهم الى المسجد ، فصعد المنبروخاطب الناس معلناً موافقة هؤلاء الرهط سادة العرب المسلمين وخيارهم على البيعة ليزيد ، وأمر القوم بمبايعة يزيد ، فبايع الناس[٢٨] ، أمام سكوت ساداتهم . وفي مبايعة يزيد بولاية العهد يقول عبد الله بن همام السلولي :

تلقفها يزيد عن أبيه … فخذها يا معاوي عن يزيدا!

لقد علقت بكم فتلقفوها … ولا ترموا بها الغرض البعيدا[٢٩]

وبذلك ثار معاوية على القاعدة التي سنها الخلفاء الراشدون ، فخرج على نظام الحكم الديني ، واستحدث نظام الوراثة في الحكم ، وعلى الرغم من مزايا نظام الشورى الذي جرى عليه العرب قبل ذلك إذ يكفل اختيار أصلح الناس

٢٦ــ ابن قتيبة ــ الإمامة والسياسة ص ١٦٢ .
٢٧ــ ابن قتيبة ــ الإمامة والسياسة ص ١٦٩ وتاريخ اليعقوبي ص ٢٢٨ .
٢٨ــ ابن الأثير ــ الكامل في التاريخ ج٤ ص ٥١١ .

للاخلافة وأكثرهم كناية ، إلا أنه لم يعد نظاماً صالحاً بعد أن اتسعت الدولة العربية وانقضى جيل الصحابة الذين كانت لهم الأولوية في الاختيار لسابقيتهم وصحبتهم للرسول . لقد كان هذا النظام صالحاً في البيئات القبلية أو في ظل النزعة الابتهالية التي كانت سائدة في عصر الخلافة الراشدة وإن كان قد أثبت عدم صلاحيته عند قيام خلافة عثمان ، وسبب انقساماً خطيراً بين المسلمين ترتبت عليه الأحداث المفجعة ، التي تمخضت عنها ثورة الأمصار ، واقتضى الأمر في بداية العصر الاموي حصر الخلافة في بيت معين مع الاحتفاظ بمظهر البيعة . واذا كانت المعارضة قد انتقدت معاوية لقيامه لأخذ البيعة لابنه يزيد ، فإنها لم تلبث أن قبلت مبدأ الوراثة وأخذت به .

والحقيقة فقد كان النظام الوراثي في الحكم جديداً على العرب المسلمين الذين لم يألفوه من قبل ، ولهذا السبب اعترض عدد من المؤرخين على تلقيب معاوية ومن جاء بعده من خلفاء بني أمية بالخلفاء ، وآثروا تلقيبهم بالملوك ، وقد تضافرت عوامل عديدة مع العامل السابق في حمل الناس ينقمون على بني أمية تعصبهم للعرب على الموالي ، ونزوعهم للروح الجاهلية ، وميل بني أمية الى مظاهر الأبهة والفخامة المعروفة عند القياصرة والأكاسرة فمعاوية أول من أقام الحرس والشرطة والبوابين ، وأرخى الستور ، ومشي بين يديه بالحراب ، وأخذ الزكاة من الأعطية ، وجلس على السرير والناس تحته ، وجعل ديوان الخاتم ، وبنى وشيد البناء ، وسخر الناس في بنائه ولم يسخر أحد قبله ، استصفى أموال الناس فأخذها لنفسه وكان سعيد بن المسيّب يقول : فعل الله بمعاوية وفعل ، فانه أول من أعاد هذا الأمر ملكاً . وكان معاوية يقول : أنا أول الملوك[٣٠] ويبدو أن الوسائل الملتوية التي توسل بها معاوية في الوصول الى الخلافة ، من اصطناع الخديعة والمكر ، والدس ، والرشوة لتأليب الناس على علي ، كانت عاملاً في ابتعاده عن المثل التي اتبعها الخلفاء الراشدون[٣١] .

٢٩ــ المسعودي ــ مروج الذهب ج٣ ص ٥٣ .
٣٠ــ اليعقوبي ج٢ ص ٢٣٢ ــ ٢٣٣ .
٣١ــ اليعقوبي ج٢ ص ٢١٧ .

وعلى الرغم من كل ذلك ، وعلى الرغم من انفراد معاوية ومن خلفه من بعده بالملك ، والاستئثار به بحكم العصبية ، فقد كانوا متحرين لمقاصد الحق جهدهم إلا في ضرورة تحملهم على بعضها خشيةافتراق الكلمة ، حتى أفضى الأمر الى من خلفوا يزيد بن عبد الملك في أغراضهم الدنيوية ومقاصدهم ، ونسوا ما كان عليه سلفهم من تحري القصد فيها واعتماد الحق في مذاهبها، وحصروا هممهم على شهوات النفس وركوب اللذات من معاصي الله ، مما أدى الى الاطاحة بالدولة الأموية(٣٢).

ورغم أن السلطة التي مارسها معاوية بن ابي سفيان كانت عربيـة في جوهرها ودعامتها الجنس العربي دون الدين ، فانها لم تصل بعد الى أن تكون ملكية ، وإنما كانت إحياء لنظام شيخ القبيلة الذي كان سائداً في جزيرة العرب قبل الاسلام ، ولعله تأثر في ذلك بنظام الغساسنة في بلاد الشام بدليل أن المؤرخ البيزنطي تيوفانس لم يصف معاوية لا كملك وإنما كمستشار أول .

المنجزات الحربية زمن معاوية :

بعد أن تم لمعاوية كبح جماح المعارضة ووطد دعائم وأسس حكمه ، اتجه بكل اهتمامه الى المناضلة والفتح في جهات عدة في الشرق والغرب والشمال . وقد كان هذا النشاط الجديد استكمالا واستمراراً لنشاطه في هذا الميدان منذ أن كان بمثابة والي الشام . فقد جدد حروبه ضد بيزنطة في الجبهة البرية والبحرية ، ولا سيما في آسية الصغرى ، وهي المنطقة المتممة لغزوات الراشدين في البحر المتوسط . ويبدو أن بيزنطة لم تستغل فرصة انشغال الخلافة ابان فتنة عثمان لاستعادة ما كان العرب قد استلب من أملاكهم في المتوسط ، وذلك بسبب ما كانت تعانيه دولتهم من مشكلات بسبب هجرة العناصر السلافية المختلفة وهجماتها المتكررة على حدود الامبراطورية ، الامر الذي شغلهم وجعلهم ينصرفون لدرء الخطر الجديد(٣٣) .

وكل الذي وجدته بيزنطة مناسبا لها في هذا الظروف ، تجسد في استعادة سلطتها على أرمينيا التي كان العرب قد فتحوها منذ عهد الخليفة الراشدي الثالث عثمان بن

٣٢ــ ابن خلدون ــ المقدمة ص ٣٦٦ ــ ٣٦٧ .
٣٣ــ نبيه العاقل ــ الامبراطورية البيزنطية ص ١٠٦ وما بعدها .

عفان ، وذلك حين كان معاوية يشغل منصب والي الشام • فقد كانت أرمينيا في بداية حركة الفتح العربي الاسلامي تقاسي من حالة الفوضى والفقر بسبب ذلك الصراع الذي قام على أرضها بين فارس وبيزنطة لأهمية موقعها من الناحية الاستراتيجية • وقد انقسمت أرمينيا نتيجة هذا الصراع الى قسمين ، الشرقي وهو الأكبر وقع تحت السيطرة الفارسية ، والغربي وهو الاصغر وقع تحت السيطرة البيزنطية • ونتيجة ذلك عمت الفوضى ، وتضررت مصالح الارمن وصاروا يتطلعون الى منقذ من هذا الواقع الصعب ، وجاء خلاصهم على يد معاوية بن أبي سفيان ، الذي كان واليا لعثمان على الشام ، وضم اليه الخليفة حكم اقليم الجزيرة بالعراق لتوحيد العمليات الحربية ضد البيزنطيين[٣٤] وقد كلف معاوية حبيب بن مسلمة بقيادة عملية فتح أرمينية التي توجه اليها سنة ٢٥ هـ/٦٤٥ م واستولى على عاصمتها تيودوسيو بوليس أو قاليقلا كما يسميها المؤرخون العرب[٣٥] وفي نهاية المطاف تمكن السيطرة على كل أرمينيا الغربية ، ليتابع فيما بعد زحفه باتجاه القسم الشرقي الفارسي ، والتي كانت عاصمته مدينة دفين أو ديبل كما تسميها المصادر العربية[٣٦] وقد دامت فترة فتح أرمينية نحو عشر سنوات ، عاد بعدها حبيب بن مسلمة الى دمشق ، فعهد اليه معاوية على الفور بحكم اقليم الثغور المجاور للحدود البيزنطية •

لكن الحرب الفتنة التي وقعت بين علي ومعاوية ، أجبرت معاوية على سحب قواته المتمركزة في أرمينية ليعتمد عليها في قتاله ضد خصمه[٣٧] وقد أدى انسحاب الجيش العربي الاسلامي من أرمينية الى حدوث فراغ عسكري فيها ، استفاد منه البيزنطيون من أجل اعادة سيطرتهم على هذه المنطقة المهمة من العالم ، ونجحوا في تحقيق سيطرتهم ، وهكذا تسقط أرمينية مرة أخرى في قبضة البيزنطيين ، وتعود الامور السابقة الى حالها •

٣٤ـ ابراهيم العدوي ـ الأمويون والبيزنطيون الدار القومية للطباعة والنشر الطبعة الثانية ص ١٢٣ ـ البلاذري فتوح البلدان ج٣ ص ٢٥٩ .
٣٥ـ ابراهيم العدوي المرجع السابق ص ١٢٣ .
٣٦ـ ابراهيم العدوي المرجع السابق ص ١٢٤ .
٣٧ـ ابراهيم العدوي المرجع السابق ص ١٢٥ .

وحينما تسلم معاوية الخلافة بادر على الفور بالعمل الدؤوب لاسترجاع هذه المنطقة الاستراتيجية الى حظيرة السيطرة العربية ، وقد ساعده على ذلك إن إدارة البيزنطيين لم تكن حكيمة ، حيث سمحت للفوضى أن تنتشر في كل مكان ، فقام سابور الارمني بالاتصال مع معاوية وطلب مساعدته ، لكن الحاكم البيزنطي قسطنطين الرابع اتصل بمعاوية وحذره من التورط في هذا الشأن ، لكن معاوية لم يأبه بهذا التحذير ، فقام بارسال من دعا أهل أرمينيا الى الاعتراف بسلطته عليهم ودفع الجزية مقابل حمايتهم من البيزنطيين ، وفي الوقت نفسه أرسل جيشا لطرد البيزنطيين من أرمينيا ، وقد حقق هذا الجيش اعادة أرمينيا الى الحظيرة العربية ، وظلت هكذا فترة الحكم الأموي[٣٨] الى جانب الجبهة الأرمينية البرية هذه ، قامت في زمن خلافة معاوية حروب برية أخرى أطلق عليها تسمية (حرب الثغور) وكانت هذه الثغور فارغة من السكان باستثناء بعض المسيحيين الذين أطلق عليهم تسمية الجراجمة ، الذين اختلف ولاؤهم بين حين وآخر ، فكانوا يوالون العرب في بعض الاوقات ، ويوالون الروم في أوقات أخرى ، وذلك بحسب ما تقتضيه مصالهم العامة[٣٩] وكان لحرب الثغور هذه نظام معروف منذ سنة ٢٩ هـ/٦٥٠ م عرف بنظام الصوائف والشواتي ، الذي يقوم على تنفيذ غزوتين في كل عام الى بلاد الروم . إحداهما في الصيف تسمى الصائفة ، والثانية منهما في الشتاء وتسمى الشاتية . ولقد كانت الصوائف أحب الى قلوب العرب لانهم كانوا أكثر احتمالا للحر من عدوهم وأقل صبرا على البرد . ويبدو أن العرب لم يستقروا في شمال الشام وراء انطاكية . ولما عجز العرب عن الاستقرار وراء ذلك ، كما عجز الروم عن استرداد شيء من الارض جنوب انطاكية ، تحولت حروب العرب والروم غزوات كاسحة للتخريب والتدمير . ولقد اتفق العرب أن اخترقوا بلاد الروم (آسية الصغرى) ووصلوا الى القسطنطينية وحاصروها من غير أن يستطيعوا الاستيلاء عليها . وكذلك ساروا اليها بحراً فلم يقدروا أيضاً عليها . فقد كان معاوية في مطلع خلافته مشغولا في توطيد الملك لنفسه ولآله وبالتمهيد لمبايعة ابنه يزيد بولاية العهد ، فآثر مهادنة

٣٨ــ ابراهيم العدوي المرجع السابق ص ١٢٦ ــ ١٢٧ .
٣٩ــ البلاذري ــ فتوح البلدان ج٢ ص ٢١٧ .

كونستانس الثاني ٦٤٢ ـ ٦٦٨ م لكي يتفرغ لمعالجة الموقف الداخلي • غير أن الحرب عادت بين الروم والعرب وشيكا[٤٠] ومن الصوائف الكثيرة تلك الصائفة التي وصلت الى حدود القسطنطينية بقيادة يزيد بن معاوية ، الذي كان الهدف من تسليم يزيد لقيادتها هو اظهاره كقائد عسكري قد يصلح لحكم وقيادة الرعية بعد أبيه ولابعاد الصورة السيئة عن سيرته العامة ، وقد شارك في هذه الحملة كبار الصحابة وفي مقدمتهم صاحب رسول الله (ص) أبو أيوب الأنصاري ، الذي سقط شهيداً في هذه الحملة ودفن بالقرب من أسوار القسطنطينية[٤١] •

والحقيقة فقد كان حلم معاوية على الدوام السيطرة على العاصمة القسطنطينية ، الامر الذي جعله يرسل الحملة تلو الحملة ولكن دون جدوى ، حيث فشلت جميع هذه الحملات على أسوار المدينة ، ومما ساعد البيزنطيين على حماية عاصمتهم من السيطرة العربية ما عرف بالنار الاغريقية ، التي اخترعها مهندس يقال انه من اليونان اسمه كاللينيكوس ، كان قد هاجر الى بيزنطة من سورية[٤٢] وعلى الرغم من ذلك فقد دخلت بيزنطة في مفاوضات جادة مع حكومة دمشق لانهاء حالة الحرب هذه ، وأرسلت وفدا مفاوضا ، تمكن من عقد صلح بين الطرفين مدته ٣٠ سنة[٤٣] •

ولم تكن جبهة بيزنطة وحدها ، هي التي استأثرت باهتمام معاوية على الصعيد العسكري ، بل نراه يوجه قسطا من اهتمامه الى المغرب العربي الذي كانت قد بدأت طلائع الفاتحين العرب تتوجه اليه منذ سنة ٢١ هـ عندما أنجز عمرو بن العاص فتح ليبيا ووصل حتى حدود افريقية الشرقية (تونس الحالية) حيث لم يسمح له الخليفة عمر بن الخطاب بمتابعة الفتح باتجاه الغرب لاسباب عديدة كان يعتقد عمر بصحتها في تلك الفترة • أما في عهد عثمان بن عفان فقد اختلف الامر الى حد كبير، عندما سمح لعامله في مصر عبد الله بن أبي سرح بالعبور الى افريقية يرافقه كبار الصحابة آنذاك ، ونجح في قتل حاكم مدينة سبيطلة معقل البيزنطيين غريغوريوس

٤٠ــ تاريخ لطبري ج٥ ص ١٧٢ و ١٨١ و ٢١٧ •
٤١ــ الأصفهاني ــ الأغاني ج١٧ تحقيق علي البجاوي طبعة القاهرة ١٩٧٠ ص ٢١٠ •
٤٢ــ نبيه عاقل ــ الإمبراطورية البيزنطية ص ١١٤ ــ ١١٥ •
٤٣ــ ابراهيم العدوي ــ المرجع لسابق ص ١٧٥ •

أو جرجير كما تسميه المصادر العربية ، وذلك سنة ٢٧ هـ/٦٤٩ م لكنه عاد الى مصر من غير أن يترك حامية على البلاد التي سيطر عليها ، واكتفى بفرض جزية على السكان وبعض الغرامات المالية(٤٤) .

وتوقفت عمليات الفتح في أثناء الفتنة في أيام عثمان وفي أيام الامام علي ، ثم تراجعت في المغرب لان الروم والفرنجة والمغاربة الذين كانوا لا يزالون على الوثنية كانوا كلهم يقاومون الفتح العربي الاسلامي . وبعد خمس سنوات من وصول معاوية الى الحكم واستتباب الامور بشكل مريح ، قام بارسال جيش بقيادة معاوية بن حديج سنة ٤٥ هـ/٦٦٥ م وفيه نفر من مشاهير العرب كعبد الله بن عمر وعبد الملك بن مروان وحنش بن عبد الله الصنعاني (نسبة الى قرية كانت بقرب دمشق اسمها صنعاء) لاعادة الكرة على افريقية . واستطاع معاوية بن حديج أن يفتح قلعة جلولاء وثغر بنزرت ، ومنذ ذلك الحين بدأ الفتح المنظم للمغرب العربي . وفي سنة ٤٦ هـ/٦٦٦ م سار عقبة بن نافع الفهري من قبل معاوية بن حديج بجيش كبير وفتح فزان وما وراءها حتى وصل الى زويلة وغدامس من تخوم السودان الغربي ، فدخلت ليبيا في طاعة العرب . بعدئذ تقدم عقبة الى افريقية وفتح قفصة وقسطيلية .

وفي سنة ٥٠ هـ/٦٧١ م قام معاوية بن أبي سفيان بتعيين عقبة والياً على المغرب وكلفه بمتابعة عملية الفتح هناك ، وأراد عقبة أن يتخذ قيروانا (معسكرا أو مركزا عسكريا دائما) ذلك لان الفتوح الاولى لم تثبت ، فقد كان أهل افريقية يطيعون اذا غزا العرب البلاد . فاذا عادوا عنها عاد أهلها الى المعصيّة ونقضوا الصلح . ويحسن أن نلاحظ هنا أن الروم والفرنجة كانوا قد أجلوا المغاربة عن الشواطىء وسكنوها هم . فالذين كانوا يقاومون العرب لم يكونوا المغاربة أهل البلاد الاصليين بل الروم والفرنجة وجماعة قليلة من المغاربة يشايعونهم عن قصد أو غير قصد .

٤٣ـ ابن عبد الحكم ـ فتوح افريقية والأندلس ص ١٧٢ ـ ١٧٣ حسين مؤنس فتح العرب للمغرب ـ علي أحمد ـ تاريخ المغرب العربي الاسلامي ص ٤٤ ـ ٤٥ .

٤٤ـ ابن عذاري ـ البيان المغرب ج١ ص ٢٠ـ٢١ الدباغ معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان طبعة تونس ١٩٠١ ج١ ص٩ .

انتهى عقبة بن نافع من بناء معسكره (القيروان) وهو مدينة القيروان اليوم في القطر العربي التونسي ، وكانت القيروان منطقة على شيء من الخصب تصلح مرعى للابل • كما كان موضعها بادية يشبه ما كان العرب قد ألفوه في شبه جزيرتهم • وكذلك كانت بعيدة عن البحر لا يصل اليها الروم والفرنجة ، الذين كانوا يعتمدون في حرب العرب على أساطيلهم ثم ان ذلك الموضع كان على طريق القوافل • وكانت نهاية عملية بناء هذه المدينة في سنة ٥٥ هـ/٦٧٦ م • ومع الايام نزل الناس في هذا القيروان الذي أصبح وشيكا مدينة عظيمة وعاصمة شهيرة ومركزا من مراكز العلم والحضارة في العالم العربي الاسلامي[٤٥] •

ما كاد عقبة ينتهي من بناء القيروان حتى قام والي مصر بعزل عقبة ، وعين مكانه مولاه أبا المهاجر دينار ، وظل أبو المهاجر دينار نحو سبع سنوات يقود عمليات الفتح في المغرب ، فوصلت جيوشه الى أقصى شمال افريقية أي الى حيث تونس العاصمة اليوم • وتابع الى الغرب فوصل الى أبواب تلمسان في الجزائر الحالية ، ودخل في عهده القصير عدد من زعماء المغاربة في الاسلام ، كان أهمهم زعيم قبيلة أوربة كسيلة[٤٦] •

أما المقاطعات الشرقية ، التي كانت تحكم من قبل ولاة يتبعون ولاة البصرة والكوفة ، فقد كان من واجب هؤلاء الولاة ارسال الحملات للقيام بعمليات فتح في آسية الوسطى • وفي زمن معاوية سار جيش من خراسان الى وادي الاندوس ، ووصلت طلائع هذا الجيش حتى مدينة لاهور وذلك سنة ٤٤ هـ/٦٦٥ م • وسار جيش آخر حتى وصل الى الحدود الشمالية الشرقية لخراسان ، حيث اصطدموا للمرة الاولى بالاقوام التركية ، التي تعيش في تلك الجهات[٤٧] وكان ذلك في سنة ٥١ هـ/٦٧٢ م عندما ولى زياد بن أبيه الربيع بن زياد الحارثي على مقاطعة خراسان وأمره أن يسير خمسين ألفا من أهل البصرة والكوفة بعيالهم فيسكنهم خراسان

٤٥ـ علي احمد ـ المرجع السابق ص ٥٠ •
٤٦ـ نبيه العاقل ـ تاريخ العصر الأموي ص ٤٢ •
٤٧ـ البلاذري ـ فتوح البلدان ج١ ص ١٤٠ •

ففعل . ومنذ ذلك الحين جعل العرب المتوطنون على تخـوم السند يغـزون تلك البلاد . على أن لسياسة توطين العرب في خراسان سيئة كبيرة ، لان الذين ارسلوا الى خراسان كانوا يمنية وقيسية ، وكان أكثرهم شـيعة لآل البيت ، وظن زيـاد يومذاك أنه اذا أبعد هؤلاء عن مركز السياسة الاموية في العراق فقد أمن خطرهم على السياسة العامة ، كما كان عمر بن الخطاب قد ظن من قبل لما أخرج حزب آل البيت وخصومهم عن المدينة الى الكوفة والبصرة . والواقع أن زياد بن أبيه قد أتاح بعمله هذا الخمسين ألفا من الناقمين على بني أمية أن ينظموا جهودهم ويوسعوا دائـرة نفوذهم في مكان بعيد عن مراقبة بني أمية .

والى معاوية يرجع الفضل الاكبر في بناء البحرية العربية الاسلامية وانشـاء اسطول بحري للعرب ، ثم اهتم بعد أن ظفر بالخلافة بتدعيم البحرية العربيـة ، وذلك عندما أغـار البيزنطيون على السواحل في سنة ٤٩ هـ فأمـر بجمع الصناع والنجارين فجمعوا ورتبوا في السواحل ، وكانت دار الصناعة في عكا ومصر ، ثـم نقلت بعد ذلك من عكا الى صور في عصر هشام بن عبد الملك[٤٨] .

وبفضل هذا الاسطول تمكن العرب بقيادة جنادة بن أبي أمية في عهد معاوية من السيطرة على جزيرة أرواد سنة ٥٤ هـ/٦٧٥ م وأسكنها معاوية العرب المسلمين، وجزيرة رودس في سنة ٥٢ هـ/٦٧٣ م وأمره معاوية فأنزلها قوما من العرب المسلمين أيضـا[٤٩] .

أما فيما يتعلق بالمباني الحربية ، فقد أبدى معاوية نشـاطا كبـيرا في ترميم الحصون الساحلية ، فرمم حصون عكا عندما أبحر منها الى قبرص ، كما رمـم حصون صور . وأنشأ جبلة وكانت حصنا للروم جلوا عنـه عندما فتـح العرب المسلمون حمص ، وشحنها بالمرابطة ، وأنشأ لجبلة حصنـا خارجا مـن الحصن البيزنطي القديم ، كذلك مصر أنطرسوس وكان حصناً جلا عنه أهـله ، فبنى معاوية وأقطع بها القطائع ، وكذلك فعل بسرقية وبانياس[٥٠] .

٤٨ ـ البلاذري ـ فتوح البلدان ج١ ص ٢٧٨ ابن الأثير ـ الكامل ج٣ ص ٤٩٣ .
٤٩ـ البلاذري ـ فتوح لبلدان ج١ ص ١٤٠ وما بعدها .
٥٠ـ البلاذري ـ ج١ ص ١٧٥ و ١٩٢ .

ولم يكتف بما قام به من منشآت دفاعية بقصد تأمين السواحل من خطر الغارات البيزنطية ، فقد عمل على اعادة استيطان المدن التي خرج عنها البيزنطيون بعد الفتوحات العربية ، فنقل الى انطاكية في سنة ٤٢ هـ جماعة من الفرس وأهل حمص وبعلبك ومن البصرة والكوفة . ونقل الى سواحل الاردن قوما من فرس حمص وبعلبك ، فاستقروا في صور وعكا ، كما نقل في سنتي ٤٩ و ٥٠ هـ الى السواحل قوما من زط البصرة وأنزل بعضهم انطاكية[٥١] .

٥١ـ البلاذري ـ ج١ ص ١٧٥ و ١٩٢ .

الفصل الثاني

خلافة يزيد بن معاوية بن أبي سفيان

مات معاوية بن أبي سفيان سنة ٦٠ هـ/٦٨٠ م فخلفه ابنه يزيد • ومع أن يزيد لم يكن له دهاء أبيه ولا مقدرته السياسية والادارية ، فان الولاة الذين تركهم معاوية بعده ، كانوا ذوي مقدرة وكانوا حريصين على حفظ الخلافة في بيت معاوية ، فأخلصوا في خدمة يزيد كما كانوا قد أخلصوا في خدمة أبيه من قبل •

وكان اهتمام يزيد منصبا عندما تسلم عرش الخلافة ، أن يحصل على بيعة أولئك الذين رفضوا طلب معاوية بيعة يزيد ، وهؤلاء هم الحسين بن علي ، وعبد الله بن عمر ، وعبد الله بن الزبير ، وأمر عامله على المدينة الوليد بن عتبة أن يأخذ البيعة منهم ، ولجأ في هذا الامر الى رأي مروان بن الحكم ، الذي نصحه بالحصول على البيعة من هؤلاء قبل أن يسمعوا بوفاة معاوية ، لكن الوليد تأخر في تنفيذ هذا الامر ، فهرب الحسين وعبد الله بن الزبير الى مكة ، وأما عبد الله بن عمر فلم يكن في ذلك الوقت بالمدينة ، ولما عاد اليها بايع كبقية الناس • وقد تأثر يزيد من موقف والي المدينة ، واتهمه بالتهاون والتباطؤ في ذلك الشأن فعزله من منصبه ، وجعل مكانه عمرو بن سعيد الأشدق (١) •

ماساة كربلاء :

لم ينسى الكوفيون عداءهم لاهل الشام ، ثم ظنوا أنهم يستطيعون أن ينتقموا لماضيهم مع معاوية بقتال يزيد اليوم • فكاتبوا الحسين بن علي حتى يقدم عليهم

١ ـ تاريخ الطبري ج٥ ص ٣٣٩ و ٣٤٣ •

الى الكوفة فيحاربون بني أمية تحت لوائه • وكان الحسين رجلا عاقلا رزينا ،فنظر في الامس القريب فوجد أن الكوفيين قد خذلوا أباه عالياً ثم أخاه الحسن من بعد، فما يمنعهم من أن يخذلوه هو ؟ فأبى السير إليهم،حينئذ جاء أربعون ألفا من الكوفيين اليه في مكة بسلاحهم يعلنون استعدادهم لخوض المعركة الى جانبه • فحسن ظن الحسين بهم ووعدهم بالمسير معهم • وفي أثناء الطريق رأى الحسين الشاعر الفرزدق ناجياً من عبيد الله بن زياد ، فسأله عن موقف أهل الكوفة فقال له الفرزدق: «قلوبهم معك وسيوفهم مع بني أمية » ولكن الحسين تابع سيره •

ولما علم عبيد الله بن زياد بقدوم الحسين أرسل إليه الحُر بن يزيد ليرده عن دخوله الكوفة سنة ٦١ هـ/٦٨٠م فأبى الحسين • حينئذ أرسل عبيد الله الى الحسين جيشاً بقيادة شمر بن ذي الجوشن ، فلقيه شمر في كربلاء وقابله بعد أن خذله جميع أصحابه وجميع الذين دعوه الى الكوفه ثم انضموا الى جيش شمر فأخذ الحسين يقول : « اللهم احكم بيننا وبين قوم دعونا لينصرونا ثم هم يقتلوننا » ولم يقاتل مع الحسين سوى أربعين شخصاً من أهل بيته • واستشهد الحسين في كربلاء يوم عاشورا ١٠ من المحرم سنة ٦١هـ/٦٨٠ م[٢] •

وقد اختلف رأي الناس في الحسين ويزيد من شأن كربلاء ، كما اختلفوا في شأن أصحاب الحسين وأصحاب يزيد [٣] •

ومقتل الحسين لم يكن حادثاً عابراً عادياً ، وإخماداً لسعير فتنة قام بها معارضين ضد الحكم الأموي ، بل كان أمراً عظيما وسبباً كبيراً في تشتت المسلمين وتفرقهم• وقد شكلت هذه الكارثة المأساة رقعة حالكة السواد في صميم التاريخ الأموي ، وقد أدت بدورها لان تكون سبباً مهماً جداً في سقوط دولة بني أمية •

وقعة الحرة :

لم يرض أهل الحجاز عن خلافة يزيد بن معاوية ، فبايعوا عبد الله بن الزبير

٢ ــ احمد صقر ــ مقاتل الطالبيين طبعة القاهرة ١٩٤٩ ص ٩٥ ــ الأخبار الطوال ص ٢٢٩ ــ ٢٣٠ •

٣ ــ انظر عن ذلك مقدمة ابن خلدون ص ٣٧٨ ــ ٣٩٠ طبعة بيروت ١٩٠٠م•

وعزموا على قتال يزيد . أرسل يزيد جيشاً بقيادة مسلم بن عقبة المري فقاتل أهل الحجاز في مكان يدعى الحَرّة (الأرض البركانية) شرق المدينة المنورة ، في سنة ٦٣ هـ/٦٨٣م ودخل المدينة ، ثم انه سار الى مكة يريد قتال عبد الله بن الزبير ، ولكنه مات في الطريق فتولى قيادة الجيش الأموي بعده الحصين بن النمير . وصل الحصين الى مكة سنة ٦٤هـ/٦٨٣م وأقام حولها محاصراً لها ، ثم طال حصاره لها .

في هذه الأثناء كان الذي تنطح للدفاع عن مكة ، هو عبد الله بن الزبير الذي عرف بدهائه وخبرته في الميدان السياسي ، حيث تمكن من إقناع الحسين عليه السلام من مغادرة الحجاز الى الكوفة حيث سقط شهيداً هناك ، فخلا الجو لعبد الله بن الزبير وأصبح سيد الساحة بلا منازع ، ومن حسن دهائه وحنكته ، أنه لجأ الى الاعتصام بالبيت الحرام، لأنه كان يحسب أن هذا البيت سيحميه من بطش الأمويين ، وزاد على ذلك أنه أظهر للناس عامة أنه لايدافع عن هدف سياسي أو غير ذلك الوصول إليه ، بقدر مايدافع عن حق الحسين الذي قضى من أجله كما بادر وفعل من قبله معاوية بن أبي سفيان ، وصار ينحي باللائمة على بني أمية ولا سيما يزيد الذي أمر بقتل الحسين في كربلاء .

وتكاد تتفق جميع الروايات التي عالجت معارضة ابن الزبير ليزيد ، على أن يزيد كان يريد مهادنة ابن الزبير، ولا يصح أن نصدقها جميعاً لأن أصحابها كانوا يميلون الى جبهة يزيد دون ابن الزبير ، لأنه لو كان يزيد صادقاً في طرحه أمر المهادنة لكان قد طرح عليه منصباً معيناً يلهيه به الى حين حلول ساعة مناسبة للقضاء عليه. ومهما كانت صورة الأمر فانه أمر المسالمة والمهادنة لم يتحقق بين الطرفين المتنازعين على الرغم من تدخل كبار بني أمية في الحجاز كمروان بن الحكم ، الذي عرض على ابن الزبير أمر المصالحة فرفضها ، عند ذلك كلف يزيد عامله على المدينة وهو عمر بن سعيد بن العاص أن يرسل جيشاً الى مكة لإخضاع ابن الزبير ، وسلم قيادته عمرو بن الزبير أخي عبد الله ، وانهزم هذا الجيش وأسر قائده[٤] .

---

٤ ـ تاريخ الطبري ج٥ ص ٣٤٤ وما بعدها .

وظل الحصين بن نمير محاصراً مدينة مكة ، حتى وصله خبر وفاة الخليفة يزيد بن معاوية • وكان خلال فترة الحصار يشتبك مع أنصار ابن الزبير بين الفينة والأخرى،حتى إنه أقدم على نصب المجانيق ورمى الكعبة بالحجارة والنار فاحترقت الكعبة وتصدع منها ثلاثة مواضع واحترق ماكان فيها من خشب وما عليها من كسوة[٥] •

وتقول معظم الروايات التي أتت على ذكر حريق الكعبة ، إن أهل الشام المحاصرين هم الذين أحرقوا الكعبة عن قصد وسابق تصميم ، لكن نفراً قليلاً يعتقد أن الأمر حدث من غير قصد ، ولا علاقة لأهل الشام بهذا الحريق ، حيث وقع صدفة من جراء إشعال نار بالقرب من الكعبة انتقلت إليها قضاء وقدراً •

وعندما علم الحصين بن نمير بحقيقة وفاة الخليفة يزيد ، تفكر بالأمر ملياً وخلص به التفكير الى أن يعرض الصلح على ابن الزبير وأن يبايعه بعد أن وجد أنه لامناص ولا جدوى من القتال وإراقة الدماء ، بشرط أن يقوم ابن الزبير بالخروج الى الشام مع الحصين بن نمير وهناك يعلنوه خليفة للمسلمين ، لكن هذا الرأي لم يعجب ابن الزبير ، فانقطعت المفاوضات نهائياً ، حيث ستنتهي الأمور الى خروج الخلافة من آل سفيان الى المروانيين ، وخسر بذلك ابن الزبير فرصة غالية ، لو تمكن من استغلالها لتبدل مجرى التاريخ العربي الإسلامي خلال هذه الفترة •

ومهما يكن الأمر فقد بقي يزيد بن معاوية بن أبي سفيان لفترة طويلة موضع موضع اهتمام المؤرخين والباحثين ،الذين أجمعوا على ذمه ولعنه ، فهو بنظرهم رجل غير أهل للخلافة ، حصل عليها بغير حق بمساعدة أبيه ورغبته الأكيدة ، وقد اتهموه بتهم متعددة ، كالمجون واللهو والشرب وما الى ذلك من أعمال غير لائقة بخليفة للمسلمين • ولابد أن بعض هذه التهم لاحقيقة لها ، لكنه بشكل عام لايمكن وضعه في مصاف رجال الدولة الأفذاذ ، لأنه لم يكن يعتني بشؤون الدولة عناية تامة ، ولا يهمه ذلك أبداً والدليل على ذلك أنه لم يشترك في الحملة التي وجهها والده الى القسطنطينية إلا مضطراً •

---

٥ ـ تاريخ الخلفاء ص ٥٨٩ و ٥٩٠ وتاريخ الطبري ج٥ ص ٤٩٦ ـ ٤٩٧ •

وكل ما أنجز في عصره القصير ، أنه عمل على إكمال نظام الري في غوطة دمشق، وحفر فيها القناة التي تدعى (نهر يزيد) فسمي بذلك مهندس بني أمية . وهو الذي زاد في المقاطعات الإدارية العسكرية جند قنسرين حينما اتسعت الفتوح في شمال سوريا ، فأصبحت الأجناد خمسة بعد أن كانت أربعة . وكذلك كان يزيد شاعراً يحب الموسيقى ويتذوق سائر الفنون ، إلا أن قصر خلافته ، وهي لم تزد على ثلاث سنوات ، والفتن التي حدثت في أيامه قد شلت يده في جميع الأعمال الجليلة . وكانت الجيوش العربية تسيطر على رودس وتحاصر القسطنطينية منذ أيام أبيه معاوية ، فأمرها بالعودة الى الشام .

لكنه نجح الى حد كبير على جبهة المغرب ،عندما قام بإعادة عقبة بن نافع الفهري على قيادة عملية الفتح هناك ، كان ذلك في سنة ٦٢هـ/٦٨٢ م فقام عقبة بإعادة فتح ليبيا وإفريقية وأخرج منها الروم والفرنجة ، وثبت الحكم العربي على السواحل وفي الداخل ، ثم تقدم حتى وصل الى بلاد السوس جنوباً والى شاطىء المحيط الأطلسي غرباً . ثم رجع عقبة من فتوحه الجديدة مطمئناً ولكن غافلاً عن الخطر المحيط به ، إذ أذن للجيش أن يتقدمه راجعا الى القيروان وبقي هو في نحو خمسة آلاف من الجند إنتهز كسيلة هذه الهفوة من عقبة ــ وكان معه ــ فاحتال في مراسلة الروم والفرنجة لانتهاز الفرصة في عقبة وأصحابه . لحق بعقبة جيش كثيف من الروم والفرنجة ومن المغاربة الموالين لهم واعترضوا عقبة ومن معه عند تهودة في بلاد الزاب جنوب جبال أوراس قريباً من بنسكرة في المغرب الأوسط ، فاستشهد عقبة ومن معه جميعاً في أواخر سنة ٦٣هـ/٦٨٣ م في فصل الصيف .

وزحف كسيلة بمن معه من الجيوش على القيروان ، فوجد حنش الصنعاني من الحكمة أن ينسحب العرب المسلمون الى برقة فوافقوه على ذلك[٦] .

في هذا الجو السياسي العاصف ، خلف معاوية بن يزيد (معاوية الثاني) أباه ، وكان ضعيف الجسم قليل العزم ، فيقال ، إنه خشي الفتنة الجامحة فآثر اعتزال

٦ ــ سعد زغلول عبد الحميد ــ تاريخ المغرب العربي ص ١٦٩ علي احمد تاريخ المغرب العربي الاسلامي ص ٥٢ .

الخلافة ، وقيل بل مات من علته ، وشيكاً ، وقيل بل دس له الطامعون في الخلافة من أهل بيته السم ، فمات متأثراً به وترك معاوية بن يزيد الأمر بعده فوضى .

أهم الأحداث بعد وفاة يزيد :

لما مات معاوية الثاني كان المطالبون بالخلافة كثيراً :

١ ــ آل علي بن أبي طالب ، ولكن لم يكن فيهم بعد مأساة كربلاء من يليق بالخلافة أو يجسر على الإقدام على المطالبة بها . فقد كان فيهم محمد بن الحنفيةابن الإمام علي من زوجته خولة ، وهي من بني حنيفة ، لم يكن راغباً في الخلافة على ما يبدو ، على الأقل خلال هذه الفترة الصعبة ، وعلي بن الحسين بن علي بن أبي طالب وهو زين العابدين ، وكان لايزال حدثاً .

٢ ــ سائر قريش ، وتمثلت بعدة أشخاص هم ، خالد بن يزيد أخو معاوية بن يزيد ، والوليد بن عتبة بن أبي سفيان ابن عم يزيد بن معاوية ، وعثمان بن عتبة بن أبي سفيان ، وعمرو بن سعيد بن العاص،ومروان بن الحكم شيخ بني أميةوكاتب عثمان بن عفان ، وكان مروان يعد في عصره من دهاة العرب ، وعبد الله بن الزبير شيخ الحجاز والثائر على يزيد بن معاوية ، وعبيد الله بن زياد بن أبيه .

لم يكن بين هؤلاء المتنافسين من يعتمد على حزب قوي وأنصار كثيرين سوى مروان بن الحكم وعبد الله بن الزبير . إلا أن مركز عبد الله بن الزبير كان أقوى ، إذ كان قد نادى بنفسه خليفة بعد مقتل الحسين فبايعه أهل الحجاز والكوفةوالبصرة ثم لما مات معاوية الثاني بايعت القيسية في الشام ابن الزبير ، لأنهم كانوا ناقمين على يزيد وابنه معاوية اللذين قدما اليمانيين في مراتب الدولة . وكذلك انضم إليه الضحاك بن قيس الفهري أمير دمشق يومذاك ، والنعمان بن بشير الأنصاري أمير مصر ، وزفر بن الحارث الكلابي أمير قنسرين ، وناتل بن قيس الجذامي أمير فلسطين . وقد دعي يومذاك لابن الزبير على منابر مصر والحجاز والشام والجزيرة والعراق وخراسان وسائر أمصار العالم العربي الإسلامي باستثناء طبرية من بلاد الاردن ، فإن أميرها ابن بحدل الكلبي امتنع عن الدعاء لابن الزبير أو الدخول في

طاعته ، وأراد عقد الأمر لخالد بن يزيد لأنه ابن اختهم ، اذ كانت جدة يزيد ميسون الكلبية • وكذلك أدرك عثمان بن عتبة بن أبي سفيان أن مركزه ضعيف جداً في هذا الكفاح السياسي فالتحق بابن الزبير •

وقد تطور النزاع بين الأحزاب على الشكل التالي ، أما آل علي فاستغل جاههم المختار بن أبي عبيد الثقفي • إن المختار لما فارق ابن الزبير وخلع طاعته وجحد بيعته كتب كتابا الى علي بن الحسين السجاد زين العابدين يعرض عليه فيه أن يبايع له ويقول بإمامته ويظهر دعوته • ثم أنفذ له مع الكتاب مالاً كثيراً ، فأبى علي بن الحسين ذلك وسبه على رؤوس الملأ في مسجد الرسول ، وأظهر كذبه وفجوره وخداعه للناس بإظهار الميل الى آل أبي طالب(٧) •

ولما يئس المختار من علي بن الحسين كتب الى محمد بن الحنفية بمثل ذلك ولكن علي بن الحسين وابن عباس نصحا لابن الحنفية بألا يجيب المختار ، ثم نصح ابن عباس لابن الحنفية بأن يتريث حتى ينجلي موقف ابن الزبير ، إلا أن المختار لم يبال بذلك وأقبل يدعو الناس على قدر طبقاتهم ومقاديرهم في أنفسهم وعقولهم ، فمنهم من يخاطبه بإمامه محمد بن الحنفية ، ومنهم من يخاطبه بأن الملك يأتيه (للمختار) بالوحي يخبره بالغيب ، ثم أن المختار تتبع قتلة الحسين فقتلهم ، فزاد ميل أهل الكوفة إليه ومحبتهم له فاشتد أمره وكثر رجاله (٨) •

وكان لمحمد بن الحنفية خاصة من الشيعة الكيسانية تقول بإمامته ثم أنهم تنازعوا بعده ، فمنهم من قطع بموته ، ومنهم من زعم أنه لم يمت وأنه حي في بعض الجبال • وقد سمي هؤلاء (الكيسانية) نسبة الى المختار ابن أبي عبيد الثقفي ، وكان اسمه كيسان ، أو نسبة الى غيره ممن اسمه كيسان(٩) •

ولما توفي معاوية الثاني كان عبيد الله بن زياد أميراً للبصرة فخطب في البصريين وأعلمهم بموت معاوية بن يزيد وأن الأمر شورى لم ينصب فيه أحد • ثم حثهم على

٧ ــ المسعودي ــ مروج الذهب ج٢ ص ٢١ •
٨ ــ مروج الذهب للمسعودي ج٢ ص ٢١ــ٢٢ •
٩ ــ المسعودي مروج الذهب ج٣ ص ٢٤ــ٢٥ •

أن يجعلوا الأمر فيهم ــ في أهل العراق ــ فالأرض في العراق واسعة والنفوس كثيرة والأموال في بيت المال وافرة • فقام أشراف البصريين كالأحنف بن قيس التميمي وقيس بن الهيثم السلمي ومسمع بن مالك العبدي فقالوا : مانعلم ذلك الرجل غيرك أيها الأمير ، وأنت أحق من قام على أمرنا حتى تجتمع الناس على خليفة •

ومع أن عبد الله أبى ذلك في ظاهر الأمر ، فإنه كتب الى عامله على الكوفة عمرو بن حريث الخزاعي يأمره بأن يدخل أهل الكوفة فيما دخل فيه أهل البصرة • فأبى الكوفيون وقام يزيد بن رويم الشيباني وأنكر ذلك ، ثم خلع الكوفيون ولاء بني أمية وإمارة بني هاشم ، وأحبوا أن تكون الخلافة في الحجاز[١٠] •

ولما خلع أهل الكوفة عبيد الله بن زياد رأى بعضهم أن يؤمروا على أنفسهم عمرو بن سعد بن أبي وقاص ، فأبى آخرون وقالوا ، أما رضي عمرو بن سعد بقتل الحسين حتى أراد أن يكون علينا أميراً على الكوفة؟فبكى الناس وأعرضوا عن عمرو[١١]•

وكان خالد بن يزيد أخو معاوية بن يزيد صاحب الحق بالخلافة بين المرشحين الأمويين ، لأن الخلافة من قبل كانت لأبيه ثم لأخيه • ولكنه كان صبياً لا يقاوم ابن الزبير ، مع أن بعض الأمويين وأهل طبرية أرادوها له • وكان مروان خاصة يدفعه عنها[١٢] •

وأراد الوليد بن عتبة بن أبي سفيان أن يكون الأمر له•فلما أراد أن يصلي على معاوية الثاني صلاة الجنازة في التكبيرة الثانية فسقط ميتا قبل أن يتم الصلاة •

ثم قدم الناس عثمان بن عتبة (أخا الوليد) فقال له بنو أمية ، نبايعك فقال لهم ، على ألا أحارب أحداً ، فأبوا عليه ذلك ، فصار الى مكة ودخل في جملة ابن الزبير • وهكذا زال الأمر من آل حرب (آل أبي سفيان) فلم يكن فيهم بعد ذلك من يرومها أو يتشوف نحوها[١٣] •

١٠ـ المسعودي ــ مروج الذهب ج٣ ص ٣٠ـ٣١ •
١١ـ المسعودي التنبيه والاشراف ص ٢٦٢ مروج الذهب ج٣ ص ٣١ •
١٢ـ المسعودي التنبيه والاشراف ص ٢٦٦ مروج الذهب ج٣ ص ٣٠ •
١٣ـ مروج الذهب ج٣ ص ٢٠ـ٢١ •

وكذلك كان عمرو بن سعيد بن العاص بن أمية بن عبد شمس الأشدق يطلب الخلافة لنفسه ، فدفعه عنها مروان ووعده بولاية العهد بعده كما وعد بها خالد بن يزيد أيضاً • وظل عمرو الأشدق يطمح الى الخلافة بعد ذلك ويناجز عبد الملك حتى دبر عبد الملك مقتله(١٤) •

ولاشك في أن أقوى الطامعين في الخلافة يومذاك كان مروان بن الحكم ، إذ كان شيخاً مجرباً وكان بقية بني أمية في وقته وشيخ بني عبد مناف • وكان مروان في أول الأمر لايريد مناجزة ابن الزبير فمال الى مبايعته،ولكن عبيد الله بن زياد منعه من ذلك وأشار عليه باللحاق بدمشق مقر عصبته ففعل • وهناك رأى أن نيل الخلافة ممكن فعاد يسعى إليها ، غير أنه رأى تشدد خالد بن يزيد وعمرو بن سعيد وابن الزبير في الحرص على الخلافة ، فوعد الأولين بولاية العهد بعده وعزم على محاربة ابن الزبير(١٥) •

وأما ابن الزبير فقد رأينا من قبل أن بويع في الحجاز والكوفة ومصر والعراق وخراسان ، فلم يكن ليترك هذا الأمر لبني أمية فعزم على مناجزتهم•

والمهم من كل ذلك أنه تصدى لقيادة الناس في دمشق بعد وفاة معاوية الثاني الضحاك بن قيس الفهري ، الذي كان يدعو سراً الى ابن الزبير •

وفي حمص بايع النعمان بن بشير الأنصاري لابن الزبير •وفي فلسطين كان ابن بحدل الكلبي عاملاً لمعاوية بن أبي سفيان ومن بعده لابنه يزيد ، وكان يهوى هوى بني أمية ، وكان ذا نفوذ واسع في فلسطين ، ولما وقعت الأزمة دعا روح بن زنباع وأنابه عنه ، ثم توجه الى الأردن ليكون قريبا من دمشق وليراقب الأحداث • وفي غيابه ثار على روح بن زنباع ناتل بن قيس الجذامي وخلعه وبايع لابن الزبير(١٦) •

١٤ـ التنبيه والاشراف ص ٢٦٦ مروج الذهب ج٣ ص ٤٦ •

١٥ـ مروج الذهب ج٣ ص ٣٢ـ٣٥ التنبيه والاشراف ص ٢٦٦ •

١٦ـ تاريخ الطبري ج٥ ص ٥٣١ •

وبالجملة فقد كان موقف عبد الله بن الزبير قوياً جداً ، لأن معظم أقاليم الوطن العربي الاسلامي ، كانت ترفع راية ابن الزبير ، وفي الوقت نفسه لم يكن هناك من الأمويين من يستطيع كسب تأييد وولاء القبائل وجعلها موحدة تحت قيادته ، الامر الذي سيطور فيما بعد الى وصول عائلة أموية جديدة الى الحكم كما سنرى .

استقرار الأمر لمروان بن الحكم ومعركة مرج راهط :

كانت الأمور التي تتخبط فيها الدولة الأموية من فوضى وعدم انتظام تستدعي التحرك السريع لضبط الأمور وإعادتها الى مسارها العام والطبيعي . ومن أجل ذلك بادر بنو أمية الى عقد اجتماع في الجابية سنة ٦٤هـ/٦٨٤م في شهر حزيران، وأخذوا يتشاورون في أمر أحوال الدولة آنذاك ، فأجمعوا على عقد الأمر لمروان بن الحكم فلم يرضى نفر من الولاة والعمال ذلك ذلك ، فاستبدوا بما تحت أيديهم من البلدان ، وأعلنوا الطاعة لابن الزبير . ثم أن الضحاك بن قيس عامل مدينة دمشق جمع ثلاثين ألفاً من القيسية وخف بهم لقتال مروان، فلقيه في مرج راهط على بضعة كيلو مترات من دمشق القديمة في آخر سنة ٦٤ هـ ، فقتل الضحاك وهزم جيشه، بعدئذ سار مروان الى مصر وانتزعها من طاعة ابن الزبير ، وولى عليها ابنه عبد العزيز في أوائل سنة ٦٥هـ/٦٨٥م ثم عاد الى الشام .

ومن الشام أنفذ مروان عبيد الله بن زياد في ثمانين ألفا ، فلقي عبيد الله سليمان بن صرر في أربعة آلاف من التوابين ، الذين تابوا عن تقاعسهم عن نصرة الحسين لما احتاج الحسين الى نصرتهم ، فاقتتل الجمعان في عين الوردة ، أو رأس العين من أرض الجزيرة ، فقتل سليمان بن صرد ومعظم جيشه معه ، ثم انهزم الباقون راجعين الى الكوفة(١٧) .

والحقيقة فان معركة مرج راهط ، هي التي ساعدت على عودة الحالة الطبيعية في الدولة الأموية الى سابق عهدها ، وهي التي بنتيجتها انتقل أمر الحكم والخلافة

١٧ـ تاريخ الطبري ج٥ ص ٥٣١ وما بعدها .

من أسرة السفيانيين الى المروانيين • وقد تمكـن المروانيون في إعـادة الاستقرار وتوطيده بصورة فعلية وقوية • لكن الذي تمخض عن هذه المعركة بشكل بشـع، هو الصراع القبلي الذي سوف لن ينتهي من الحياة الأموية الا بسقوط دولتهم ، وقد تجسد هذا الصراع بين قبيلتي يمن وقيس ، مثلهما في مرج راهط الضحاك بن قيس عن العصبية القيسية ، وابن بحدل وأتباعه عن اليمانية • وهكذا حلّ الصراع القبلي محل الصراع من أجل الخلافة والذي كان محصوراً بين فروع قبيلة قريش في السابق ، وسيشكل هذا الصراع على مر الأيام أحد الأسباب الرئيسة القوية ، التي هزت وزعزعـت أساس ووجـود الدولة الأموية وجعلتهـا تسقط بسهولـة أمام العباسـيين (١٨) •

١٨ـ انظر تفاصيل واسعة عن العصبية القبليـة في كتاب احسـان النص ، والعصبية القبلية واثرها في الشعر الأموي طبعة بيروت دار اليقظة العربية ص ٢٥٥ وما بعدها .

القســم الثاني

خلفاء الفرع المرواني

مــن البيــت الامـــوي

الفصل الثالث

خلافة مروان بن الحكم وابنه عبد الملك

هو مروان بن الحكم بن أبي العاص بن أمية ، بويع بالخلافة في مؤتمر الجابية سنة ٦٤ هـ/٦٨٤ م • وكما ذكرنا في السابق ، أن وصوله الى الخلافة الأموية كان نتيجة من نتائج معركة مرج راهط بين القيسية واليمانية[١] •

ويقال إن مروان بن الحكم هذا لم يكن يطمع أو يطمح كثيراً في الخلافـة ، وربما أن الصدفة هـي التي قادته الى هذا المنصب ، فلـو أنه بقي في الحجاز ولم يطرده ابن الزبير الى دمشق ، لما كان عمل في هذا المجال كثيراً ، والدليل على ذلك الى ابن بحدل كان يميل الى مرشح آخر من الفرع السفياني ، وما تأييده لمروان في الفترة الأخيرة ، إلا لأنه أحب ألا يخرق ذلك الاجماع الأموي على مروان في وقت استشرت فيه عوامل الفرقة والتناحر والنزاع بـين وجهاء بني أمية ، الذي كبر الى درجة الخطـورة[٢] •

وحينما تسلم أمر الخلافة الأموية ، وضع نصب عينيه تحقيق هـدف شخصي تجلى بتوريث الخلافة الى أولاده بعد موته • وحتى يسهل عليه تحقيق هذا الهدف تزوج من فاختة أرملـة يزيد أم خالد بن يزيد ، الذي كان مرشـحاً لتولي منصب الخلافة بعد مروان بن الحكم • وبالفعل فقد ساعده هذا الزواج على استمالة أقرباء

١ـ تاريخ خليفة بن خياط تحقيق سنهيل زكار القسم الاول ص ٣٢٦ •

٢ـ تاريخ الطبري ج ٥ ص ٥٣٦ ـ ٥٣٧ •

يزيد وإبعاد خالد بن يزيد عن أمر الخلافة ، وذلك بأن قام بخلعه وتعيين وليين للعهد . هما ولداه عبد الملك بن مروان وعبد العزيز بن مروان[٣] .

وقيل إن خالد بن يزيد تكلم مع والدته في هذا الشأن ، فتألمت لهذا الأمر فقامت في سنة ٦٥ هـ/٦٨٥ م بعد عشرة أشهر من تسلمه الخلافة (أي مروان بن الحكم) بقتله خنقاً ، وقيل إنه مات بالطاعون وهو نحو ثلاث وستين سنة[٤] .

خلافة عبد الملك بن مروان :

توفي مروان بن الحكم تاركاً لأبنه عبد الملك إرثاً ثقيلاً من المشكلات والمصاعب ، التي تحتاج الى العظام من الرجال لحلها والتغلب عليها ، وتوجيهها الوجهة الصحيحة حتى لا يستفحل أمرها ، فتصعب السيطرة عليها فتؤدي الى إفرازات صعبة لا تحمد عقباها .

وقبل الدخول في تفاصيل الأحداث العامة في خلافة عبد الملك بن مروان ، فلابد من استعراض الموقف العام غداة تسلمه لأمور الحكم . فقد استتب الأمر له في سورية كلها وكذلك في مصر . أما الحجاز والعراق وفارس وخراسان وما يلي ذلك شرقاً فقد كانت موالية لابن الزبير . وكان المختار الثقفي متغلباً على الكوفة يظهر التأييد لمحمد بن الحنفية ويجدّ في طلب قتلة الحسين ، وهو في الوقت نفسه خصم لعبد الملك ولابن الزبير . أما ابن الحنفية نفسه فيظهر أنه لم يكن يحب أن يدخل في ذلك الكفاح السياسي .

أما في ميدان النزاع السياسي فقد كان هناك خصمان قويان ، عبد الملك ابن مروان وعبد الله بن الزبير ، ولكن موقف ابن الزبير كان أثبت في الظاهر ، فالحجازيون كانوا يريدون رجلاً منهم ، وأهل العراق وإن كانوا لا يحبون ابن الزبير فإنهم كانوا يكرهون بني أمية أشد الكره . أما مصر والعراق فقد دخلتا في

٣ــ انظر تاريخ خليفة بن خياط القسم الاول ص ٣٢٨ وتاريخ الطبري ج ٥ ص ٦١٠ .

٤ــ تاريخ الخلفاء ص ٩٦ أو تاريخ الطبري ج ٥ ص ٦١٠ ــ ٦١١ .

طاعة عبد الملك كرهاً بعد أن كانتا على طاعة ابن الزبير • غير أن عبد الملك كان يتمتع بمزايا لم يكن لابن الزبير شيء منها ، كان عبد الملك داهية ولم يكن ابن الزبير كذلك • وسنعرض لكل هذه المشكلات بالتفصيل كما يلي :

آ ـ حركة التوابين ومعركة عين الوردة (راس العين):

بعد موت يزيد بن معاوية ظهر على السطح السياسي كما ذكرنا ما سمي بالعصبية القبلية ، واحتدم النزاع بخاصة بين القيسية واليمانية، وقد رأى القيسيون في ظهور ابن الزبير على الساحة نصيراً لهم فالتجأوا إليه ، ولكن فوز الأمويين في معركة مرج راهط وقتل الضحاك بن قيس وبيعة مروان بن الحكم ، أدى الى عدم تأثير المعارضة القيسية • وكذلك وجد العراقيون في ابن الزبير نصيراً للتخلص من الحكم الأموي ، فآزروه خلال حصار يزيد لمكة المكرمة • وهذا ما شجع ابن الزبير على إرسال أخيه مصعب الى مدينة البصرة ليعمل والياً عليها • وقام الكوفيون باختيار عامر بن مسعود والياً عليهم وكتبوا في ذلك الى ابن الزبير فوافقهم على ذلك، وبعد ثلاثة أشهر أقصاه عن الكوفة وولى بدلاً عنه عبد الله بن يزيد الأنصاري •

وعلى الرغم من ذلك ، فقد ظل العراقيون يتطلعون الى الفرصة المناسبة التي يتمكنون عندها من تحقيق وجودهم مستقلين بذلك عن بني أمية وعن ابن الزبير على حد سواء • وجاءت الفرصة المناسبة التي شجعتهم على ذلك بعد مقتل الحسين بن علي ، ووجدوا أن ما يغسل عارهم الذي تجسد في التخلي عن مناصرة الحسين في حربه ضد يزيد بن معاوية ، إنما هو العمل على قتل قتلته والموت في سبيل ذلك ، وتجمعت مجموعة منهم عند مدفنه ، وراحوا يطلبون المغفرة والتوبة الى الله تعالى، ومنذ ذلك الحين أطلقت عليهم تسمية التوابين[٥] وقاد حركة التوابين هذه سليمان بن صرد الخزاعي ، سنة ٦١ هـ/٦٨١ م ، وقد اكتسبت الى جانبها كثيراً من المؤيدين والأنصار ، الذين كانوا على استعداد للقتال في سبيل ما هم عليه من أهداف •

٥ـ انظر الاخبار الطوال ص ٢٧٠ وما بعدها تاريخ الطبري ج ٥ ص ٥٢٤ وما بعدها تاريخ المسعودي مروج الذهب ج ٣ ص ١٠٠ •

وقد أثارت هذه الحركة انتباه عبد الله بن الزبير، لأنه وجد فيها فرصة مناسبة جداً لتدعيم موقفه بصورة عامة ، لأن أمر القضاء على هذه الحركة الجديدة متعاظمة النمو ، سيؤدي الى الهاء الأمويين واستنفاد شيء كثير من قوتهم العامة ، فعمل على تأييدهم من خلال عامله على مدينة الكوفة ، وشجعهم على المضي في عملهم[٦] .

وفي سنة ٦٥ هـ/٦٨٥ م خرج سليمان بن صرد الخزاعي مع مؤيديه من التوابين الى منطقة النخيلة واستقر فيها ، وكانوا نحو أربعة آلاف رجل ومن النخيلة تابعوا حتى وصلوا قرقيسيا ، فاستقبلهم زفر بن الحارث الكلابي وأخبرهم بمقدم عبيدالله بن زياد ، وأشار عليهم بالمسير الى عين الوردة (رأس العين) وبالفعل فقد ساروا الى هناك ، حيث التقوا مع الحصين بن نمير ، فطلب منه سليمان بن صرد أن يسلمه عبد الله بن زياد وأن يتنصل هو ومؤيدوه من بيعة عبد الملك بن مروان ، وتسليم الحكم الى آل بيت رسول الله (ص) . وقد رفضت كل هذه المطالب ، ووقع قتال عنيف بين الطرفين ، هزم على أثره التوابون وقتل قائدهم سليمان بن صرد الخزاعي[٧] .

ب ــ موقعة خازر ٦٧ هـ :

بعد هزيمة التوابين على يد جيش عبيد الله بن زياد ، ومقتل زعيمهم سليمان بن صرد الخزاعي ، تفرغ عبيد الله بن زياد لقتال جماعة زفر بن الحارث من القيسية وذلك لمدة عام تقريباً ، والسبب في ذلك أنهم من أولئك القيسيين الذين انهزموا في مرج راهط ، ورفضوا مبايعة مروان بن الحكم ومن بعده ابنه عبد الملك ، وعندما عبر جيش عبيد الله بن زياد أراضيهم بعد هزيمة التوابين ، بادروا لقتاله ، لكن عبيد الله تابع حتى وصل الى الموصل ، التي كانت تحت سيطرة المختار بن أبي عبيد الثقفي ، فهرب عامل المختار عليها ، مما جعل المختار يرسل إليها بثلاثة آلاف رجل وأمرهم بلقاء ابن زياد ، لكن هذا الجيش لاقى هزيمة منكرة من قبل الأمويين في

٦ـ تاريخ الطبري ج ٥ ص ٥٦١ ــ ٥٦٢ .
٧ـ البلاذري ــ أنساب الأشراف ج ٥ ص ٢١٢ تاريخ اليعقوبي ج ٣ ص ٢٥٧ ابن الأثير ــ الكامل ج ٤ ص ١٨١ ــ ١٨٥ .

سنة ٦٦ هـ/٦٨٦ م • وعلى الرغم من ذلك فلم يسيطر القنوط على المختار من جراء ما حل بجيشه ، فأرسل قوة أخرى بقيادة ابراهيم بن الأشتر النخعي ، تألفت من تسعة آلاف رجل ، وأمرها بمقاتلة جيش عبيد الله بن زياد ، وقد جرت بالفعل معركة بين الطرفين في خازر قرب الموصل ، قتل فيها ابراهيم بن الأشتر والحصين بن نمير وعبيد الله بن زياد ورجال كثيرون غيرهم[٨] •

جـ ــ حركة المختار الثقفي :

هو المختار بن أبي عبيد الثقفي نسبة الى قبيلة ثقيف • كان في بداية عهده من مؤيدي الأمويين ، لكنه انقلب عليهم وأيد الحسين بن علي ، فسجنه عبيد الله ابن زياد ، وظل في سجنه حتى أطلقه يزيد بن معاوية وأمره بمغادرة الكوفة، فذهب الى الحجاز وفيها تقرب من عبد الله بن الزبير وحاول التقرب منه ، لكن ابن الزبير تردد في البداية ثم وافق وأصبح من أنصاره[٩] •

وظل المختار يلازم ابن الزبير وهو محاصر في مكة ، فقاتل معه بإخلاص وتفانٍ لكنه تركه بعد وفاة يزيد وعاد الى الكوفة ، وادعى أنه موفد من قبل محمد بن الحنفية للأخذ بثأر الحسين بعد أن وجد أن سليمان بن صرد الخزاعي قد قطع شوطاً بعيداً في السيطرة على الكوفيين • وقد نجح في ضم بقايا التوابين ، واستجاب له كثير من الشيعة ، واتفقوا على الرضا به ، وظل أمره يتنامى حتى قام عبد الله ابن الزبير بتعيين عبد الله بن مطيع على الكوفة سنة ٦٦ هـ/٦٨٦ م ، فعزم على اظهار دعوته ، واستعان بابراهيم بن الأشتر النخعي ، الذي مكّن المختار من اقتحام قصر الإمارة بالكوفة وطرد عبد الله بن مطيع عامل ابن الزبير على الكوفة ، وبايعه على أثر ذلك أشراف الكوفة على كتاب الله وسنة رسوله ، والطلب بدماء أهل البيت والدفاع عن الضعفاء • وبعد أن سيطر على الكوفة ، دانت له العراق وأذربيجان وهمذان وأصبهان والري • ثم عقد ليزيد بن أنس الأسدي في عشرين ألف رجل ، وولاه الموصل والجزيرة وما غلب عليه من أرض الشام[١٠] •

---

٨ ــ تاريخ الطبري ج ٨٦ انساب الأشراف ج ٥ ص ٢٤٧ •
٩ ــ انساب الأشراف ج ٥ ص ٢١٧ •
١٠ــ ابن الأثير ــ الكامل ج ٤ ص ٢١٥ مروج الذهب ج٣ ص ٩٦ •

ولم يلبث أهل الكوفة أن انقلبوا على المختار وقبلوا دعــوة ابن الزبير عندما دعاهم إليها مصعب بن الزبير ســنة ٦٨ هـ/٦٨٨ م للتخلص من استبداد المختار ، وطلبوا من مصعب أن يخلص الكوفــة من المختار ، فزحف مصعب بجموع أهــل البصرة ، واشتبك مــع المختار في منطقة حروراء على مقربة من الكوفــة ، ومعه المهلب بن أبي صفرة الأزدي • وبعد عدد من المعارك نشبت بــين الطرفين ، انهــزم المختار على أثرها وتحصن بمن معه بقصر الإمارة في الكوفة • فحاصرهم مصعب ، ثم خرج المختار وقاتل مصعباً ، ولكنه سقط في المعركة قتيلاً • وبعد مدة يســيرة استسلم ســائر أصحاب المختار فقتلهم مصعب كلهم ، وكانوا يزيدون على ســبعة آلاف(١١) •

وقد سميت حركة المختار هذه بالمختارية نسبة إليه ، أو الخشبية نسبة الــى العصي الخشبية التي كان الموالي يستخدمونها في القتال الى جانبه• والحدير بالذكر أن حركة المختار برمتها كانت ترمي الى تحقيق مكاسب شخصية للمختار نفســه ، وأن يكون من رجالات العرب ذوي القوة والجبروت والجــاه ، وبخاصة أنه كان يرى نفسه شخصية لا تقل في حال من الأحوال عن معاصريه كابن الزبير وعبد الملك بن مروان وغيرهما(١٢) ولم تكن المصلحة الشيعية أو الأخذ بثأر الحسين هي الدافع الوحيد الذي حركه في اتجاه الخروج على الأمويين وابن الزبير في وقت واحد،لكنه أراد من خلال ادعائه بذلك ، أن يجد غطاءً مسوغاً لخروجه ، لأنه لو ادعى غــير ذلك ، لما كان حصل على تأييد ذلك العــدد الكبير الذي أيده ، وانضوى يقاتــل تحت رايتــه •

د ـ حركة الجراجمة في جبال اللكام :

الجراجمة جماعة من المسيحيين يعيشون في جبل اللكام أو الأمانوس في بلــدة تدعى الجرجومة ، وتقع بين مدينتي بياس وبوقاس • وكانوا قبــل الفتــح العربي

١١ـ ابن الأثير ـ الكامل ج ٤ ص ٢٦٥ ـ ٢٦٦ تاريــخ الطبري ج ٦ ص ٩٤ ـ ١١٦ انساب الأشراف ج ٥ ص ٢٥٥ وما بعدها ـ أخبار الخلفاء ص ١١٣.
١٢ـ انظر تاريخ الطبري ج ٦ ص ١٠٧ .

لبلاد الشام يتبعون الى بطريركية انطاكية • وعندما وصل الفاتحون العرب الى الجرجومة بقيادة حبيب بن مسلمة النهري ، امتنع أهلها عن مقاتلتهم ، وبادروا الى طلب الامان والمصالحة ، فصالحهم ابن مسلمة بشرط أن يبقوا عوناً للعرب المسلمين في تلك الجهات ويعفون من الجزية، وقد كان ولاء الجراجمة للعرب المسلمين يتأرجح بحسب الأوضاع السياسية العامة ، مثال ذلك أنهم انتهزوا فرصة اغارة البيزنطيين على الشام وقت انشغال عبد الملك بن مروان بفتنة عبد الله بن الزبير ، وقدموا الى لبنان ، فصالحهم عبد الملك على ألف دينار كل أسبوع فتفرقوا بقرى حمص ودمشق وعاد معظمهم الى بلدهم[١٣] ويقال إن ثورة الجراجمة كانت بتحريض من الامبراطور البيزنطي جستنيان الثاني • لكن عبد الملك تمكن من إخماد ثورتهم وتحركهم ، فترك معظمهم بلاد الشام ، ونزلوا في بعض أماكن آسيا الصغرى • ومن هؤلاء تألف الموارنة المعروفون اليوم في شمال لبنان [١٤] •

هـ ــ التخلص من مصعب بن الزبير :

استتب الأمر لمصعب في العراق بضع سنوات ، بعد أن تم له القضاء على المختار • وفي سنة ٧٢هـ/٦٩٢م التقى عبد الملك بن مروان مصعب بن الزبير عند مسكن ، وهي قرية على نهردجلة•وكان مع عبد الملك آنذاك الحجاج بن يوسف الثقفي • ووقعت بين مصعب وعبد الملك معارك كثيرة أنهكتهما • ثم دارت الهزيمة على مصعب ، وخر مصعب قتيلاً[١٥] وبهذه السرعة المذهلة انتهت حياة مصعب بن الزبير ، ودخل عبد الملك الكوفة وحصل على البيعة من أهلها ، وبايعته القبائل المتعددة النازلة فيها ، وولى عليها أخاه بشر بن مروان ، وولى على البصرة خالد بن عبد الله بن أسيد ، ثم عاد الى دمشق ليلتفت الى أمر عبد الله بن الزبير ، الذي كان مايزال سيد الحجاز•

و ــ فتنة عمرو بن سعيد الاشدق :

نصت بعض مقررات المؤتمر الذي عقد بالجابية كما ذكرنا قبل قليل ، على

١٣ــ البلاذري فتوح البلدان ج ٢ ص ٢١٨ تاريخ الطبري ج ٦ ص ١٥٠ •
١٤ ــ فيليب حتي ــ تاريخ العرب مطول ج ٢ طبعة بيروت ١٩٥٠ ص ٢٦٩ •

أن يكون منصب الخلافة لعمرو بن سعيد الأشدق بعد موت مروان بن الحكم ، لكن ذلك لم يؤخذ به وتناساه مروان بن الحكم ، عندما بايع لولديه عبد الملك وعبد العزيز ، الامر الذي أثار غضب عمرو ، بعكس خالد بن يزيد ، الذي انصرف الى شؤونه واهتماماته العلمية ، ولا سيما في ميدان علم الكيمياء • وكان عمرو من الشخصيات الاموية البارزة ، فقد شغل دورا مهما في أمر الصراع على الخلافة بعد وفاة يزيد ، ويقال إنه لم يبايع لعبد الملك ، فصار سكان الشام فرقتين ، واحدة مع عبد الملك ، وواحدة مع عمرو بن سعيد ، وقد تدخل بعض المتنفذين وتم الاتفاق على أن تكون الخلافة بعد عبد الملك لعمرو بن سعيد لكن على ما يبدو ولم يكن عبد الملك راغباً في تنفيذ هذا الاتفاق • وبدأت شرارة الفتنة عند خروج عبد الملك من دمشق الى قرقيسيا وفيها زفر بن الحارث ، فتحصن عمرو في دمشق وأعلن العصيان على عبد الملك فاضطر عبد الملك الى العودة الى دمشق ، ووقع قتال بين الطرفين انتهى بعقد صلح بينهما • لكن عبد الملك ، بقي يكن الحقد لعمرو ، واستطاع أن يجره الى قصره ، وذبحه ولفه في بساط ، وحاول أصحابه مقاتلة عبد الملك ، لكن عبد الملك أغراهم بالمال فتركوا الأمور تجري على هوى عبد الملك ، وكان هذا الحادث سنة ٧٠ هـ/ ٩٦٠م [١٦] •

ز ـ نهاية عبد الله بن الزبير :

كان عبد الله بن الزبير من المعارضين الكبار ، الذين أقضوا مضجع البيت الأموي وأقلقوا عبد الملك بن مروان منذ اللحظة الاولى لاستلامه منصب الخلافة • وقد ساعد القضاء على أخيه مصعب بن الزبير عبد الملك من البدء في عملية التخلص من عبد الله بن الزبير ، الذي انحصر نفوذه في عهد عبد الملك بن مروان في منطقة الحجاز •

١٥ـ تاريخ خليفة بن خياط القسم الأول ص ٣٤٠ وانساب الأشراف ج • ص ٣٤٢ والأخبار الطوال ص ٣١٣ •

١٦ـ تاريخ خليفة بن خياط القسم الأول ص ٢٣٧ الأخبار الطوال ص ٢٨٦ تاريخ الطبري ج • ص ١٤٠ •

عهد عبد الملك بن مروان الى الحجاج بن يوسف والي الكوفة بمحاربة عبد الله بن الزبير ، وأمره بالمسير الى الحجاز ، فسار الحجاج حتى وصل الى مدينة الطائف فأقام بها مدة ، ثم زحف الى مكة المكرمة في موسم الحج ونصب المجانيق على جبل ابي قبيس ، فتحصن ابن الزبير بالمسجد ، كان ذلك في سنة ٧٢هـ / ٦٩٢ م • فطال الحصار على مكة وتخلى عن ابن الزبير عدد كبير من أتباعه وجنده، حتى إن ولديه حبيباً وحمزة تركاه والتحقا بالحجاج • ولما يئس ابن الزبير من جدوى الامتناع من الحجاج بن يوسف بالحصار • خرج لقتاله فخر قتيلاً في جمادى الثانية من سنة ٧٣ هـ/ أيلول ٦٩٢م وله من العمر ثلاث وسبعون سنة وفي أثناء الحصار على مكة ، أرسل الحجاج بن يوسف جماعة من جنده سيطروا على مقاليد الحكم بالمدينة المنورة وأخرجوها من تحت سيطرة ابن الزبير • وتؤكد معظم الروايات على أن الحجاج قام بضرب المسجد بمكة بالمجانيق ، ولولا ذلك لما كان عبد الله بن الزبير قدخرج لمواجهة الحجاج والقاء ورقته الأخيرة ، هذا بالاضافة الى أن مؤن وذخائر جنده قد شارفت على الانتهاء ، وهي الخطة التي كان قد رسمها الحجاج وأراد أن تثمر بهزيمة ابن الزبير • وقد قاتل ابن الزبير قتالاً بطولياً شديداً حتى قتل عامة مؤيديه ، فأحدق به جند الحجاج من كل جانب فضربوه بسيوفهم حتى قتل ، وأمر به الحجاج فصلب بمكة ، أما عروة بن الزبير فقد فر من الحجاج الى الشام ، واستجار بعبد الملك فأجاره(١٧) •

أمر العصبية القبلية في عصر عبد الملك :

بمقتل عبد الله بن الزبير انتهى عبد الملك بن مروان من أكبر متاعبه السياسية ، فشعر بالاستقرار بعد قلق طويل الى حد كبير ، ساعده على ذلك وجود الحجاج بن يوسف الثقفي في مقاطعة العراق ، التي كانت الى جانب الحجاز مصدر تعب للأمويين • بقي عليه بعد ذلك أن يعمل على تجميع القبائل التي طالما عاشت متفرقة بفعل أخذها بسياسة العصبية القبلية البغيضة • فقد شعرت القيسية بخيبة أمل مريرة بعد خسارتها لنفوذها العام بعد معركة مرج راهط ، وراحت تضمر الحقد

١٧ـ تاريخ الطبري ج٦ ص ١٧٥ أنساب الأشراف ج ٥ ص ٢٥٩ ـ ٣٦٠ •

والضغينة والبغضاء لليمانية ، وتعمل في الخفاء وبشتى الوسائل للانتقام . وقد وقف الحكام الأمويون من هذا الامر مواقف متباينة ، فبعضهم تمكن من التغلب على هذا الوضع الصعب ، وبعضهم لم يتمكن من فعل شيء يذكر . مثال ذلك أن معاوية بن أبي سفيان تمكن من كبح جماح العصبية القبلية، فأقام توازناً ناجحاً بين القبائل أما في فترة ابنه يزيد ومروان بن الحكم ، فان الأمور عادت الى أسوأ ما كان في الجاهلية ، وبذلك يمكن القول ، ان الاسلام على الرغم من تأكيده على احتقار العصبية القبلية ، فانه لم يتمكن من الدخول في نفوس الناس على الاساس الذي تنتفي معه العصبية القبلية وتختفي من الحياة العامة ، كما أرادها محمد بن عبد الله (ص) .

وقد انتبه عبد الملك من مروان بنظرة ثاقبة الى خطورة بقاء العصبية القبلية راسخة في النفوس ، فسلك مسلكاً وسطاً ومعتدلا ، فترك التعصب لليمنية وقرب القيسية بقدر ما كان يقرب اليمنية ، الامر الذي أدى الى التخفيف من قوة زخم السيطرة اليمنية وقد عبر عن ذلك الأمر أحد الشعراء بقوله :

فلولا أمير المؤمنين لأصبحت   قضاعة أرباباً وقيس عبيدها

وحصد عبد الملك من هذا التصرف الحكيم ، أن القيسية عزفت عن سياسة المعارضة له وسارت تحت لوائه على أتم وجه ، وبالمقابل فقد أحسن اليها وقرب زعماءها ، وأسند لهم المناصب كما هو حال الزعماء من اليمانية ، مثال ذلك أن زفر بن الحارث الكلابي وأولاده أصبحوا من ألمع رجالات بلاط عبد الملك بدمشق .

وقد أدت هذه السياسة على المدى البعيد ، أنها جعلت الشاميين يشعرون بضرورة اتفاقهم ، لان في ذلك مصلحة لهم في جميع الميادين وبالتالي فقد أدى ذلك الى جعل ما يجري في الأقاليم الاخرى من معارضة ومخالفة صغيراً لا قيمة له ، طالما أن حاضرة الخلافة قوية راسخة البناء.

سياسة عبد الملك في الداخل :

كان لخروج ابن الزبير على الخلافة الأموية أثره البالغ في سياسة عبد الملك

بن مروان الداخلية ، فقد مر معنا سابقاً أن أموره في الميدان السياسي ترسخت على أسس قوية ، بعد أن لزم الحياد حيال القبائل المتنافرة . فوجود ابن الزبير في الحجاز جعل عبد الملك يعتمد على أهل الشام بالدرجة الاولى ، فجعل منهم قوته الرئيسة ومعتمده الأساسي . حتى إنه حاول أن يعوضهم في الميدان الديني ، بأن قام بتوجيه الحجاج الى زيارة بيت المقدس الى جانب الأماكن المقدسة في الحجاز[١٨] وعمل على الاهتمام بتنظيم شؤون بيت المقدس ، فأمر ببناء قبة الصخرة سنة ٧٢هـ. لكنه لم يستطع أن يوجه الناس بشكل مباشر الى صرف النظر عن زيارة الاماكن الدينية في الحجاز ، على الرغم من أن القدس هي أول القبلتين وفيها ثالث الحرمين، وذلك لأنه كان متأكداً أن مكانة القدس ، لا يمكن أن تتوازى مع مكانة مكة المكرمة والمدينة المنورة . وقد حاول نقل منبر النبي الكريم الى دمشق ، لكنه عدل عن الفكرة ، كما فعل معاوية قبله[١٩] .

والحقيقة التي لابد من قولها هنا ، أن معظم الذين تعاقبوا على شغل منصب الخلافة الاموية ، انكبوا عن العناية بالامور السياسية أكثر من الامور الدينية ، وهو أمر في غاية الاهمية ، لانه يُعد من أهم منجزاتهم على الاطلاق ، ذلك لانهم فصلوا الدين عن الدولة ، حيث لا يمكن لأي حاكم أن يجمع بين الدولة والدين ، واذا أراد ذلك فانه سيفشل لا محالة . ومثالنا على ذلك هو عبد الملك بن مروان الذي كان من المعول عليهم على الصعيد الديني قبل أن يصبح خليفة خاصة وانه نشأ بالمدينة المنورة دار هجرة الرسول العربي الكريم ، وكان من العارفين بالقرآن الكريم ومعانيه ، لكنه ترك كل ذلك عندما توجّ خليفة ، لكنه لم يصل الى الحد الذي وصل اليه يزيد بن معاوية بن أبي سفيان من التهتك والشذوذ ، فقد وجد أن مصالحه العامة تقتضي عدم التطرف في أي شيء ، فوجد أن من الخير التقرب الى الناس بشتى الأساليب ، ولا سيما منهم الصالحون ، مثال ذلك أنه قرب اليه الصالح المعروف رجاء بن حيوة ، وأنه امتنع عن ضم كنيسة يوحنا الى المسجد بدمشق تعبيرا عن تسامحه الديني الكبير ، وحسن سياسته وكياسته العامة .

---

١٨ ـ فلهاوزن ـ الدولة العربية ص ٢٠٦ .

١٩ـ تاريخ الطبري ج ٥ ص ٢٣٨ .

موقف عبد الملك من الخوارج :

الخوارج هم مجموعة من العرب المسلمين ، خرجوا على علي بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان ، وقالوا انهما لا يصلحان للحكم العربي لأنهما تقاتلا وتنافراً ، وأريقت دماء غزيرة من جراء ذلك ، الأمر الذي شجع مجموعة الخوارج على الانفصال عنهما ، فحاربهم علي وقتل منهم • أعداداً كبيرة ، لكن ذلك لم ينه حركتهم ، التي نشطت في عهد الأمويين ابتداء من عهد معاوية بن أبي سفيان[٢٠] ولما جاء عبد الملك وجد أن واجبه يقتضي منه ، أو بالأحرى يملي عليه بضرورة التخلص من الخوارج ، استغلوا ثورة عبد الله بن الزبير في الحجاز ، ووجدوها فرصة مساعدة للعمل على ضرب الحكم الأموي ، فطلب زعيم الأزارقة الخوارج نافع بن الأزرق من مؤيديه ، أن يذهبوا الى ابن الزبير لمعاونته بقتال الامويين وحماية الاماكن المقدسة من عبث القائد الأموي الحصين بن نمير السكوني • وقاتلوا في صفوف ابن الزبير حتى سنة ٦٤هـ / ٦٨٤م عندما وقع الشقاق بينهم • وقام بتكليف المهلب الذي كان يحكم في خراسان بمقاتلة الخوارج ، وقام بتنفيذ أمر القتال ، حيث تمكن من قتل جماعة كبيرة منهم وفي مقدمتهم نافع بن الأزرق زعيمهم ، وظل المهلب يقاتل الخوارج طوال فترة ابن الزبير • وعندما جاء عبد الملك بن مروان الى الحكم ، قام بتكليف والي البصرة ووالي الكوفة بقتال الخوارج ، لكنهما لم ينجحا في القضاء عليهم • فأعاد تكليف المهلب بن أبي صفرة لمقاتلتهم ، وكان الحجاج والياً على العراق • فتمكن من القضاء على الأزارقة ، لكنه فوجىء بمجموعة جديدة دعيت الصفرية وانضم اليهم شبيب بن يزيد[٢١] •

وقد استطاع شبيب توسيع أرضية نفوذه ، فسيطر على المدائن واستطاع أن يهزم عدة جيوش أرسلها الحجاج اليه • وتمكن من دخول الكوفة فهرب الحجاج الى البصرة ، فأمده الخليفة عبد الملك بمدد جديد من جند الشام ، تمكن بمعونتهم من طرد الخوارج من الكوفة وإعادتها الى حظيرة الطاعة الأموية • وقد مات شبيب غرقاً في نهر دجلة سنة ٧٨ هـ/ ٦٩٨م [٢٢] •

٢٠- تاريخ الطبري ج ٥ ص ١٦٥ - ١٦٦ .
٢١- تاريخ الطبري ج ٦ ص ٢٠٤ و ٢١١ و ٢١٦ و ٢٢٢ .
٢٢- تاريخ الطبري ج ٦ ص ٢٢٤ وما بعدها .

وتمكن الحجاج أيضاً من التخلص نهائياً من الزعيم الخارجي قطري بن الفجاءة الذي تصدى لقيادة الخوارج بعد نافع بن الأزرق ، وجاء بعده عبد الله بن ماجور ، الذي لاحقه المهلب الى كرمان فقتله هو الآخر • ويمكن القول بصورة عامة ، إن الحجاج نجح الى حد كبير في شل حركة الخوارج في العراق وما حولها[٢٣] وتخلص بصورة شبه كاملة من خطرهم ، ويُعد ذلك من أهم المنجزات التي تحققت في فترة حكم عبد الملك بن مروان على الصعيد السياسي والعسكري •

تمرد عبد الرحمن بن الاشعث :

كان للظروف العسكرية التي حدثت في جبهة المشرق أثرها البالغ في ظهور عبد الرحمن بن الأشعث على الساحة السياسية ، وقيامه بحركة تمرد ضد السلطة الأموية ، التي مثلها يومذاك عبد الملك بن مروان • ففي مدينة كابل في أفغانستان الحالية ، قامت حركة مناوئةللعرب هناك بقيادة رجل اسمه (رتبيل) ولم يتمكن والي سجستان آنذاك عبيد الله بن بكرة من القضاء على هذه الحركة ، التي هددت وجود العرب في تلك المنطقة وتشاء الظروف أن عبد الرحمن بن الأشعث ، الذي كان معدوداً من أشراف مدينة الكوفة ، كان موجوداً بالقرب من سجستان ، فقام الحجاج بتكليفه بهذه الولاية ، وفي الوقت نفسه أمده بجيش قوي بالعدة والعدد ، وذلك ليتمكن من إعادة الأمور الى كابل والتخلص من زعيم التمرد فيها •

وقد ظهرت عبقرية عبد الرحمن منذ اللحظات الأولى لتسلمه ولاية سجستان ، وتكليفه بحرب (رتبيل) ذلك لأنه ابتعد عن الأسلوب القتالي القديم ، الذي يعتمد على الهجوم السريع المباغت ،والذي لا يضع الاستقرار بعد النصر في الحسبان ، وأراد أن يكون فتحه للمنطقة بالتدريج، ينتقل من موقع الى موقع آخر بعد أن يرتب أمور الموقع الأول وهكذا حتى سيطر على منطقة واسعة الأرجاء • وأخبر الحجاج بكل الذي فعله ، لكن هذا لم يعجب الحجاج ، وأمره بالإسراع في انجاز مهمته وإلا فانه سيرسل له أمر العزل • وهذا إن دل على شيء ، فانه يدل بغير شك

٢٣ـ الأخبار الطوال ص ٢٧٥ و ٢٧٧ و ٢٨٠ •

على عدم بُعد نظر الحجاج في هذا الأمر على الأقل ، فهو بعيد عن مجريات الاحداث ولا يعرف طبيعة المنطقة وسكانها . وقد أثار طلب الحجاج هذا غضب عبد الرحمن بن الأشعث ، فبادر الى إطلاع رجاله بالذي حدث بينه وبين الحجاج، ووافقوه على القيام ضد الحجاج الذي أظهر حماقة ظاهرة ، وبايعوه أميراً عليهم وكلموه بالتوجه الى العراق لخلع الحجاج[٢٤] .

بعد ذلك بدأ عبد الرحمن بن الأشعث بترتيب أموره في سجستان فصالح رتبيل وعين عمالاً يمثلونه في مناطق وجوده . وفي سنة ٨١ هـ ٧٠١ م غادر المنطقة باتجاه العراق ، بعد أن تجمع معه جيش قوي ، عاهده جميع رجاله على خلع الحجاج وعبد الملك بن مروان[٢٥] .

في هذا الوقت بالذات ، كان المهلب بن أبي صفرة موجوداً في خراسان كعامل عليها . فلما علم بخبر خروج ابن الأشعث ، بادر الى إخبار الحجاج وأشار عليه ألا يتعرض لرجال ابن الأشعث حتى يصلوا الى ديارهم لأن معظمهم كانوا من أهل العراق ، الأمر الذي يجعلهم يلجأون الى أهلهم مجرد وصولهم الى العراق[٢٦] .

الحجاج رفض نصيحة المهلب ، وجرد جيشاً بقيادته لقتال ابن الأشعث وقد تلاقى الطرفان على نهر الدجيل في الأهواز ، ووقع بينهما قتال صعب ، تمكن بنتيجته ابن الأشعث من هزيمة الحجاج وجيشه ، الذي لم يقبل بنصيحة المهلب ، وبرهن على حماقة أخرى اقترفها دون تفكير أو ترو[٢٧] ، فدخل أصحاب ابن الأشعث الى البصرة ، لكنه لم يتمكن من المحافظة على تفوقه ، فانسحب الى الكوفة معقل أنصاره ، الأمر الذي أفسح المجال للحجاج من دخول البصرة ، وأصدر عفواً عاماً عن أهلها . ثم تركها بعد أن رتب أمورها باتجاه مدينة الكوفة ، ونزل الى الغرب منها . فقام ابن الأشعث بالمجيء الى دير الجماجم فور سماعه بقدوم

٢٤ـ أنساب الأشراف ص ٣٢٦ وما بعدها .
٢٥ـ تاريخ الطبري ج ٦ ص ٣٣٨ .
٢٦ـ تاريخ الطبري ج ٦ ص ٣٣٩ .
٢٧ـ تاريخ الطبري ج ٦ ص ٢٤٠ .

الحجاج . وطال القتال بين الطرفين ، على الرغم من تركيز عبد الملك بن مروان على ذلك بإرساله أخيه محمد بن مروان وولده عبد الله للاشتراك في القتال ، وتعثرت الأمور الى درجة قام عبد الملك بالسماح لقادته أن يعرضوا بعض الحلـول ، التي كان منها عزل الحجاج عن العراق ، وتكليف ابن الأشعث بحكم أية مدينة يريدها في العراق . لكن الحجاج انزعج من ذلك وكتب لعبد الملك بن مروان ، وحرضه ضـد العراقيين ، وأنهم لو استلموا حكم العراق ، فلـن يكونوا مواطنين صالحين . لكن عبد الملك لم يلتفت الى كلام الحجاج ، الذي كان يشـعر على ما يبـدو أن أحد الأسباب لثورة العراقيين ، يتجسد بوجود الحجاج حاكماً عليهم . لكن حظ الحجاج كان أحسن من حظ العراقيين ، الذين رفضوا ما عرضه عليهم عبد الملك بن مروان ، على الرغم من موافقة زعيمهم ابن الأشعث على ذلك ، فأصـروا عـلى إصرارهم والتمسك برأيهم ، وقاموا وخلعوا الخليفة والحجاج في وقت واحد[٢٨] ودخلوا في حرب مع أنصار الخليفة دام قرابة مئة يوم ، أحرز في نهايته أنصار الخليفة نصـراً مؤزراً أنقذ السلطة الأموية في ولاية العراق ، وفر المنهزمون من أنصار ابن الأشعث الى البصرة من جديد ، وغادروها بعد إقامة قصيرة الى بلدة مسكن على الدجيل ، فتبعهم الحجاج وهزمهم بعد قتال شديد ، فلجأ ابن الأشعث بعد هـذه الهزيمـة القاسية الى المشرق فتبعه أنصار الحجاج بقيادة عمـارة بن تميـم الى سجستان وكرمان ، وهناك اعتقل ابن الأشعث ، اعتقله بعض قـادة المنطقـة ، وكان بوده إرساله الى الحجاج ليقتله ، لكن رتبيل تدخل في المسألة ، وتمكن من افتكاك ابـن الأشعث من معتقله ، وأخذه الى كابل[٢٩] وظل ابن الأشعث في حماية ورعاية رتبيل في كابل ، حتى اقتنع بتسليمه الى الحجاج بعد مراسلات واتصالات طويلة جـرت بين رتبيل والحجاج ، وعندما سلم الى الحجاج صعد الى القصر وألقى بنفسه من على جداره فمات سنة ٨٥ هـ / ٧٠٤م[٣٠] وهكذا تخلص الأمويون بأعجوبة مـن حركة تمرد ، كانت غيرت المنطقة فيما لو تمكن العراقيون من استغلالها ، لكنهـم خسروا كل شيء بفعل موقفهم ،الذي لم يعتمد العقل في تسييره ، فتعزز موقـف الحجاج من جديد ، وستزيد سطوته عليهم .

٢٨- تاريخ الطبري ج ٦ ص ٣٤٨ - ٣٤٩ .
٢٩- تاريخ الطبري ج ٦ ص ٣٦٩ .
٣٠- تاريخ الطبري ج ٦ ص ٣٩١ .

المنجزات العسكرية زمن عبد الملك بن مروان :

١ ـ حروبه ضد البيزنطيين :

تنبه عبد الملك بن مروان الى الخطر البيزنطي القائم على حدود الدولة العربية الاسلامية . لكن المشكلات الداخلية التي أتينا على ذكر الكثير منها جعلته يؤجل الصراع مع البيزنطيين إلى حين توافر الفرصة المناسبة لذلك من حيث التوقيت وتوفر القوة الكافية لذلك . وهذا ما جعله يلجأ الى إبرام معاهدة مع الامبراطور البيزنطي جستنيان الثاني ، الذي اعتلى عرش بيزنطة في السنة نفسها التي بويع فيها لعبد الملك بن مروان بالخلافة سنة ٦٥ هـ / ٦٨٥ م . وبموجب هذه المعاهدة الجديدة ، التزم عبد الملك بن مروان أن يقدم للبيزنطيين أتاوة أعلى من تلك التي كانت تؤدي في عهد معاوية بن أبي سفيان ، هذا بالاضافة الى تقاسم العائدات ، التي تجبى من أرمينيا وقبرس بين بيزنطة والعرب[٣١] . وبعد أن توطدت الأمور لعبد الملك بن مروان في الجبهة الداخلية ، بادر الى تجهيز الحملات العسكرية لحرب الروم في الجهة الشمالية[٣٢] ولكن المنجزات التي ترتبت على هذه الحملات لم تكن بذات شأن كبير ، من حيث النتائج التي تمخضت عنها ، ذلك لان جيشه ظل عاجزاً عن التوغل في داخل أراضي الامبراطورية البيزنطية ، بعكس ما حدث على الجبهة الشرقية والغربية ويمكن أن نسمي ما قام به الجيش العربي زمن عبد الملك في جبهة بيزنطة بمناورات عسكرية، لم يعقبها نتيجة ايجابية ملموسة.

وكانت أهم المناطق التي وصلها العرب خلال هذه الفترة ، هي عمورية وقونية ودورليوم (أسكي شهر) . وكان من أهم القادة العرب ، الذين قادوا هذه الحملات، هو مسلمة بن عبد الملك، وكان نابغة في فنون الحرب والقتال ، وقد نال ثقة جميع الخلفاء ، وقاد جيوش الفتح باسمهم منذ أيام أبيه عبد الملك الى أيام اخيه هشام، ولكنه لم يلِ الخلافة لأنه كان ابن أمة .

وفي أيام عبد الملك بن مروان ، برزت قضية الجراجمة الذين أرسلتهم بيزنطة منذ عهد معاوية للقيام بغارات قرصنية على سواحل جبل لبنان ، ثم أقاموا في

٣١ـ نبيه العاقل ـ الامبراطورية البيزنطية ص ١٢١ .
٣٢ـ البلاذري ـ فتوح البلدان ج ٣ ص ٢٦٦ .

المنطقة المعروفة بجبل كسروان وسهل البقاع • ويعرفون بعدة أسماء ، منها الجراجمة نسبة بلدتهم جرجومة ، وبالمردة ، وهو اسم لا يعرف على وجه الدقة اشتقاقه الصحيح • ولعله مشتق من جذر آرامي يعني (التمرد أو الانشقاق) •

وتتجسد قضيتهم بأنهم شغلوا عبد الملك عن مقارعة خصومة الداخليين ، ومنعوه عن القيام ببعض الاصلاحات ، ولما عقد عبد الملك الصلح مع البيزنطيين سنة ٧١ هـ / ٦٨٩م وقبل بدفع أتاوة كبيرة في كل عام ، فاوض يوستنيانوس الثاني الأشرم في أمر الجراجمة ، والعمل على نقلهم من تلال لبنان وسورية والأمانوس وقبل بذلك (٣٣) • ومع أن معظم هؤلاء الجراجمة أعيدوا الى بلادهم ، فالظاهر أنه قد بقيت منهم مجموعة ذابت فيما بعد في البيئات البشرية في جبل لبنان •

٢ ـ الاهتمام بعملية فتح المغرب :

بعد أن تغلب عبد الملك بن مروان على عبد الله بن الزبير سنة ٧٣هـ / ٦٩٢م وجه الى المغرب اهتماماً صحيحاً ، فولى عليه حسان بن النعمان وأمده بأربعين ألفاً ، فتغلب حسان على الروم والفرنجة ، وبسط نفوذه على البلاد كلها من برقة الى أطراف المغرب الأقصى • وكان المغاربة قد ولوا على أنفسهم بعد مقتل كسيلة امرأة كانت تدعى دهيا أو دميا • ولكن حسان بن النعمان تغلب عليها أيضاً وقتلها ، فدان المغرب كله للعرب • ثم ما زال العرب يتوسعون في انتشارهم في المغرب ،حتى تغلبوا عليه برمته في مدة يسيرة وبذلك تقلص نفوذ الروم والفرنجة عنه ، وقلت المقاومة ، التي كان العرب المسلمون يواجهونها هنالك وأصبح المغاربة أنفسهم جيش المناضلة والقتال ، بعد أن كانت جماعات كثيرة منهم تقاتل العرب(٣٤) وهذا ما سنعود اليه بشيء من التفصيل في عهدالوليدبن عبد الملك •

٣٣ـ أسد رستم ـ الروم وصلاتهم بالعرب ص ٢٦٥ •
٣٤ـ البيان المغرب ج ١ ص ٣٤ ـ ٣٥ ـ رياس النفوس ص ٣٥ الكامل في التاريخ ج ٤ ص ١٨٤ تاريخ المغرب العربي الاسلامي لعلي احمد ص ٥٣ ـ ٥٤ •

اصلاحات عبد الملك بن مروان :

قـام عبد الملك بن مروان بوجوه من الإصلاح الداخلي ، تعد في باب توطيد أركان الدولة العربية الأموية أبعد أثراً من المعارك والفتوح ، ولا ترانا نبعـد عـن الصواب اذا دعونا عبد الملك بن مروان المؤسس الثاني للدولةالاندلسية بعد معاوية بن أبي سفيان•ولعله المؤسس الحقيقي للدولة الأموية(دولة بني مروان في المشرق)• ولولا جهود مروان بن الحكم وبخاصة جهود عبد الملك بن مروان لذهبت الدولـة الأموية بانقراض الفرع السفياني •ويبدو أن معظم وجوه الاصلاح ، التي نعنيهـا قد قام بها الحجاج بن يوسف ، ولكنها تنسب في التاريخ الى الخليفة لا الى واليـه على العراق ومن هذه الإصلاحات •

تعريب الدواوين (سجلات الدولة) من اللغات القبطية في مصر ، واليونانية في الشام ، والفارسية في العراق الى اللغة العربية • إن هذا العمل الجليل قد جعل اللغة العربية لغة دولة بعد أن كانت لغة للحياة الدينية في الإسلام • وفي بداية العملية بقي الموظفون القدماء الذين يتقنون اللغة العربية للاستفادة من خبرتهم في هـذا المجال المهم • وتعريب الدواوين هذا يُعد من روائع منجزات عصر عبد الملك بن مروان[٣٥] حيث ستصبح فيما بعد عربية خالصة •

ومن إصلاحات عبد الملك بن مروان أيضاً ، يمكن أن نتوقف عند سـكة عملة خاصة بالدولة العربية الإسلامية • حيث كانت الطوامير (الأوراق الديوانية التـي تكتب فيها رسائل الدولة) من صنع الأقباط في مصر • فأمر عبد الملـك بأن يضـع للدولة العربية الإسلامية عملة خاصة • فبدأ عبد الملك سك الدنانير العربيةالإسلامية في سنة ٧٣هـ/٦٩٢م • وهذه العملة الجديدة المسكوكة باللغة العربية خلقت علـى الدولة العربية شخصية مستقلة وجعلت لها وجاهة بين العرب أنفسهم ولدى الدوائر الأخرى • وكان المتولي لضرب العملة في عهد عبد الملك بن مروان ، هو الحجاج بن يوسف الثقفي ، ثم ضربت بعد ذلك في سائر نواحي الدولة العربيـة بعـد سنـة ٧٦هـ/٦٩٦م • وأعقبت عملية ضرب الدنانير عملية أخرى ، تجسدت بضرب الدراهم سنة ٧٥هـ/٦٩٥م وجعل كل عشرة منها وزن سبعة مثاقيل[٣٦] •

٣٥ــ تاريخ الخلفـاء ص ١٤٠ ــ أ وما بعدها .

٣٦ــ البلاذري ــ فتوح البلدان ج ٥ ص ٦٥١ــ٦٥٢ تاريخ الطبري ج٦ ص ٢٥٦

وقد أدت هذه العملية الى دفع عملية التعريب بصورة عامة،وعملت على ترسيخها كحقيقة واقعة في حياة الأمة والشعب ، وهي من جهة أخرى ساعدت على التحرر الاقتصادي العام من السيطرة الأجنبية ، وأعطت الدولة فرصة ذهبية للإشراف على شؤونها العامة •

نهاية عبد الملك بن مروان :

كان عبد الملك بن مروان دون أدنى ريب ، من أعظم الخلفاء الأمويين وذلك لأنه اصطدم منذ اللحظة الأولى لحكمه لمشكلات خطيرة ، هددت بزوال الدولة في بعض الأحيان • فتصدى لهذه المشكلات ووجد لها الحلول المناسبة ، فأخمد الفتن والمعارضة التي كانت شبه مستمرة ، وألف قلوب الناس حوله ، وجعلهم يسيرون في ركابه عن رغبة وطواعية،لما تمتع به من حكمة وحنكة ومقدرة على توجيه الأمور، وتوطيد أركان حكمه دون أن يلجأ الى المصانعة والمداراة ، وبالجملة فقد جمع بين اللين غير المخل ، والحزم غير المزعج للناس •

لكنه من جهة أخرى كان قاسياً الى حدٍ كبير مع الذين كانوا يتمردون على السلطة ، مثال ذلك قتله لعمرو بن سعيد الأشدق بأيديه على الرغم من توسله له بأن يعفو عنه • وكاد أن يفتك بأخيه عبد العزيز بن مروان لأنه رفض التنازل عن حقه في الخلافة لابني عبد الملك ، لكن الموت المفاجىء لعبد العزيز حال دون قتله لأخيه،وإلا لكانت من أكبر الفضائح في تاريخ العائلة الأموية •

ولم يعش عبد الملك طويلا ، فقد باغته الموت في عمر الستين بمدينة دمشق سنة ٨٦هـ/٧٠٥م بعد حكم مستمر دام نحواً من إحدى وعشرين سنة ، وهي فترة طويلة الى حد ما ، حفلت بالأعمال العظيمة والمنجزات الضخمة ، التي غيرت كثيراً من النظم والتقاليد والأعراف •

الفصـــل الرابـــع

خلافة الوليد بن عبد الملك

توفي عبد الملك بن مروان كما ذكرنا في سنة ٨٦هـ/٧٠٥م فخلفه ابنه الوليـــد ، فشهد العرب في أيامه أزهى وأجمل الأوقات وأعظم الفتوح • وقد ساعده على ذلك أن ورث ملكاً راسخ الأسس والأركان لايعكر صفوه معارض أو خارج على القانون العام • وكانت صلات الوليد بالحجاج بن يوسف وثيقة ودية ، ذلك لأن ولاية العهد في أيام عبد الملك كانت لأخيه عبد العزيز بن مروان ، فأشار الحجاج على عبد الملك بأن يخلع أخاه عبد العزيز من ولاية العهد ويجعلها لابنه الوليد ثم لابنه سـليمان • فحفظ الوليد للحجاج هذه البادرة وترك يد الحجاج مطلقة في العراق[1] •

المنجزات العسكرية زمن الوليد بن عبد الملك :

تعد منجزات الوليد بن عبد الملك على الصعيد العسكري ، من أضخم ما أنجزه خلفاء بني أمية على الإطلاق • فقد تمـكن توسيع رقعة فتوحاتـه على عـدد من الجبهات ، كجبهة ما يسمى ما وراء النهر ، والسند ، ثم فتح الأندلس وإتمام عملية فتح المغرب العربي قبل ذلك بسنين قليلة •

وهذا ماسنأتي على ذكره بالتفصيل قدر المستطاع •

آ ــ تتمة فتح المغرب وفتح الأندلس :

لابد من التذكير بما ذكرناه من قبل ، وهو أن عقبة بن نافع الفهري تابع مهمـة

---

١ ــ تاريخ الطبري ج٦ ص ٤١٢ ــ ٤١٣ •

الفتح في عهد يزيد بن معاوية بن أبي سفيان ، وذلك بقيامه باختراق المغرب العربي حتى أقصاه ليصل الى المحيط الأطلسي حيث تقول الرواية ، أنه عندما دخل المحيط، حتى بلغ الماء بطن فرسه ، رفع يديه الى السماء وقال : « يارب لولا أن البحر منعني، لمضيت الى مسلك ذي القرنين مدافعاً عن دينك مقاتلاً من كفر بك »(٢) .

وقد انتهى عقبة على يد كسيلة الزعيم المغربي ، الذي هرب من بين صفوف جيش عقبة عند عودته الى القيروان ، وجمع أفراد قبيلته ومن انضم اليهم من الروم، والتقى عقبة في بلدة تهودة في المغرب الأوسط، وقتل عقبة ومن معه من الجنود سنة ٦٥ هـ/٦٨٤م(٣) .

وما أن استتب الأمر لعبد الملك بن مروان ، حتى قرر إرسال زهير بن قيس البلوي ضد كسيلة ، فالتقاه وخلفاءه الروم في موقع ممس بالقرب من القيروان سنة ٦٩هـ/٦٨٨م ودارت معركة بين الطرفين ، انتصر في نهايتها العرب بقيادة زهير البلوي . وفي هذا الوقت بالذات ، كان جيشاً بيزنطة يزحف باتجاه برقة مستغلاً غياب الجيش العربي عن المنطقة ، فلما سمع زهير بن قيس البلوي بخبر ذلك ، بادر على الفور بالتحرك الى برقة ، حيث التحم مع البيزنطيين في معركة غير متكافئة، فاستشهد زهير ومن معه من المقاتلين العرب على غرار الذي حدث بالأمس القريب مع عقبة بن نافع(٤) .

وفي سنة ٧٣ هـ قام عبد الملك بن مروان بتعيين حسان بن النعمان على المغرب العربي ، ويكلفه متابعة عملية الفتح بعد أن زوّده بجيش ضخم في عدده وعدته . وأول عمل قام به حسان بن النعمان ، أن هاجم الروم المتحصنين بالعاصمة قرطاجنة، فسيطر عليها ، لأنه كان يعتقد أن حكامها الروم هم أصل كل مصيبة في المغرب، لكنه هزم أمام الكاهنة دهيا زعيمة قبيلة جراوة ، فلجأ الى برقة ، حيث بقي عدة سنوات .

---

٢ ــ ابن عبد الحكم . فتوح مصر والمغرب ص٧٢ المالكي ــ رياض النفوس ص٢٥ .
٣ ــ ابن عذاري ــ البيان المغرب ج١ ص٢٣ــ٢٨ . سعد زغلول عبد الحميد تاريخ المغرب العربي ص ١٦٩ .
٤ ــ المالكي ــ رياض النفوس ص ٣٦ــ٣٩ ابن عذاري ــ البيان المغرب ص٣٣ .

عاد بعدها الى متابعة عملية الفتح بعد أن زوّده عبد الملك بن مروان بمدد جديد سنة ٧٩هـ/٦٩٨م فتمكن من هزيمة الكاهنة بعد عدد من المعارك القاسية (٥) بعد ذلك عاد حسان بن النعمان الى القيروان ، وعمل على تثبيت دعائم الوجود العربي هناك . فقد أعاد فتح قرطاجنة ، وبنى بالقرب منها مدينة سماها تونس . بعد ذلك قام بتنظيم الادارة المالية والجيش ، وظل على ولاية المغرب حتى وفاة عبد الملك بن مروان حيث عزل من قبل والي مصر آنذاك فخلفه موسى بن نصير.

وقد تمكن موسى بن نصير من إتمام عمليات الفتح بسرعة مذهلة بين سنتي ٨٧-٩٠هـ/٧٠٦-٧٠٩م . وكانت المراحل الرئيسة لخط سير جيشه ، هي عبوره المغرب الأوسط من الداخل ، والاتجاه الى شمال المغرب الأقصى ، فسيطر على طنجة ، ومنها توجه الى الجنوب ، حتى وصل سجلماسة ودرعة .

ويشبه خط سيره خط سير عقبة بن نافع ، مما جعل بعضهم يقول ، ان الرواة أسندوا لعقبة بعض أعمال موسى .

وبذلك تمكن من اخضاع بلاد المغرب جميعها ، باستثناء مدينة سبتة ، التي بقيت خارج السيطرة العربية لمناعتها ووصول الإمدادات إليها من البحر .لكن الأيام لن تطول حتى يخضعها ضمن إخضاع بلاد الأندلس كما سنرى .

أما الأندلس فقد كان فتحها استمراراً لحركة الفتح العامة ، التي خرج بها العرب من شبه جزيرتهم . وقد كان الباعث الأول للفتح روحيا غايته نشر العربية والاسلام . ثم كان من البواعث أيضا خوف العرب من أن يعيد القوط والفرنجة والروم عليهم الكرة من الأندلس ، لأنها أقرب البلاد الى المغرب . وقد كان فتح الأندلس سهلاً هيناً جداً ، فقد فتح العرب جزيرة الأندلس في مدة عامين اثنين . ولقد كان وراء هذه السهولة في الفتح نوعان من العوامل :

١ - العوامل الإيجابية : كان العرب أمة فتية موحدة القوى والقلوب شجاعة

---

٥ - البيان المغرب ج١ ص ٣٤ - ٣٥ رياض النفوس ص٣٥ .

بصيرة بالحروب • واتفق ان قيض الله لها في هذه الحقبة قادة بارعين وولاة قادرين حازمين•ثم كان للعرب هدف روحي من الإسلام يحملهم على التضحية في المناضلة، ثم أنهم كانوا في بلاد غريبة يجب أن يعتمدوا فيها على أنفسهم ، فخلق ذلك فيهم عزيمة في جميع الأمور • وكذلك كانوا عادلين في حكم الشعوب رحماء في معاملة الناس أعفة عما في أيدي الآخرين ، إذ لم يكن للمغانم الدنيوية في نظرهم قيمة في جلب الهدف الروحي الذي كانوا يسعون الى تحقيقه •

٢ ـ وكان مما ساعد على سهولة الفتح عوامل سلبية منها ، الإنشقاق في البيت القوطي المالك في إسبانية ـ استبداد الأشراف ورجال الدين بعامة الشعب واستغلال الشعب اقتصادياً ودينياً ، ونفور جمهور الناس من هاتين الطبقتين ـ انتشار الرق في أسوأ أحواله وابشع صوره ـ الاستغلال الاقتصادي ، الذي كان اليهود يمارسونه ، فكانوا يقرضون الملك والأشراف الأموال ، ثم يحاولون تحصيلها أضعافاً مضاعفة من الشعب ، لذلك فقد حقد الشعب الإسباني عليهم ولا سيما رجال الدين ضغطوا عليهم في كل ميدان ، وحينما وصل العرب الى الأندلس فاتحين مبشرين بحياة أفضل ، كان اليهود يعانون من أبشع اضطهاد من رجال الدين النصارى ، الأمر الذي حملهم على كسرة الطبقة الحاكمة الإسبانية • أما القصة المروية فيما يتعلق بيليان حاكم منطقة طنجة وصاحب سبتة ونقمته على القوط، لأن الملك لذريق قد فضحه في ابنته فهي خراقة ولا يمكن ان يكون لها ، ذلك الأثر في الفتح العربي الإسلامي للأندلس •

من أجل ماتقدم من أسباب مجتمعة ، كان أهل الأندلس يتوقون الى التخلص من حكم القوط ، فاستقبلوا العرب على أنهم منقذون لهم من الظلم الذي كانوا فيه ، وهذا ساعد على السرعة التي اتسم بها الفتح العربي في الأندلس•

خطة فتح الأندلس :

لاشك أن يوليان كان من الناقمين على حكم القوط في الأندلس لأسباب دينية وقومية • فهو من أصل مغربي من قبيلة غمارة ، ولكنه كان نصرانياً على المذهب الكاثوليكي المخالف لمذهب الطبقة الحاكمة في الأندلس•

وكان موسى بن نصير رجلاً عاقلا جداً ، فلم يأخذ نصيحـــة يوليان في بادىء الأمر ، على محمل من الإخلاص والوفاء التامين ، فطلب من يوليان أن يقوم بحملة تجريبية على شواطىء الأندلس . وقام يوليان بهذه الحملة أواخر سنة٩٠هـ/٧٠٩م ونزل على ساحل الجزيرة الخضراء فقتل وسبى وعاد بغنائم كثيرة ، وشاع ذلك بين العرب المسلمين ، فأنسوا بيوليان(٦) .

ومع ذلك فان موسى بن نصير ظل يعيش حالة حذر وانتباه،فأرسل حملة صغيرة بقيادة مولى له اسمه طريف في سنة ٩١هـ/٧١٠م بمعونة يوليان . ثم عاد طريف من غزوته هذه الى طنجة بغنائم كثيرة وبأسرى وبمعلومات أثمن من تلك الغنائم(٧).

وفي سنة ٩٢هـ/٧١١م بعث موسى بن نصير مولى له اسمه طارق بـــن زياد في سبعة آلاف رجل أكثرهم من المغاربة لفتح الأندلس . وانتقـــل العرب المسلمون من عدوة المغرب الى عدوة الأندلس في سفن ليوليان ونزلوا عند نقطة في أقصى الجنوب من جزيرة الأندلس في المكان الذي لايزال يعرف الى الآن باسم جبل طارق .

استطاع طارق بن زياد أن يختار مكان المعركة ثم فرض مكانها وزمانهـا علـــى خصومه . فنزل بمعظم جيشه على سفح المرتفعات الواقعة جنوب مستنقعات إقليـــم البحيرة ، ليجعل من هذه المستنقعات حاجزاً بينه وبين القوط ، ومن تلك المرتفعات حامياً له من أن يباغت من خلفه،ثم ترك الطريق بينه وبين الجزيرة الخضراء مفتوحاً لينسحب منه إذا اضطر لذلك .

في الوقت نفسه كان لذريق ملك القوط مشـــغولاً في شمال الأندلس بقتـــال الفرنجة . فلما علم بنزول العرب على أرضه انحدر مسرعا ولقي العرب بجيش كبير جداً ، ولكنه مؤلف من جماعات مختلفة المذاهب الدينية والأصـــول القوميـــة . فاستنجد طارق بموسى ، فأنجده موسى بخمسة آلاف رجل ، فأصبح الجيش العربي اثني عشر ألفاً من المشاة . وكان يوليان مع طارق يدله على النقاط الضعيفة في البلاد ويسقط له الأخبار المهمة(٨) .

---

٦ ـ نفح الطب ج١ ص ٢٢٩ وما بعدها .
٧ ـ نفح الطيب ج١ ص ٢٣٠ .
٨ ـ الأخبار المجموعة لمؤلف مجهـــول ص٦ البيان المغرب ج٢ ص ٤ـ٥ ابن الأثير الكامل ج٤ ص ٤٤٤ .

ونشبت المعركة بين العرب والقوط في وادي لكة ، وحاول لذريق أن يصمد طويلاً في وجه العرب ، فلم يستطع . وبعد ثمانية أيام من القتال الشديد تقطع الجيش القوطي ، وانهزم لذريق على وجهه ، ثم لم يعرف ما حدث له .

والحقيقة فقد كانت معركة وادي لكة (إقليم البحيرة) في الأندلس كاليرموك في الشام والقادسية في العراق ، لأنها قضت على الجيش القوطي وفتحت أبواب الأندلس أمام الفاتحين العرب .

بعد معركة وادي لكة تجمعت فلول القوط ، مع المدد الذي جاء من المدن القوطية المختلفة عند إستجة على الضفة الشرقية من نهر شينل أحد روافد نهر الوادي الكبير . على نحو خمسة وسبعين كيلو متراً جنوب غرب غرناطة . وقد انهزمت القوة القوطية ، ووقعت استجة بيد العرب .

عند ذلك أصبحت كل مدينة إسبانية تتولى أمر نفسها بنفسها ، ثم أن النبلاء القوط من الذين صمموا على المقاومة ، انسحبوا شمالاً في اتجاه العاصمة طليطلة، وتحصنوا في عدد من المدن ، التي يكثر فيها السكان القوط المتصلون بالطبقة الحاكمة . أما أهل البلاد الأصليون فكانوا ينضمون الى العرب جماعات جماعات، لأنهم كانوا حاقدين على حكم القوط(٩) .

بعد ذلك سار جيش طارق على أربعة محاور ، الأول نحو قرطبة والثاني نحو مالقة ، والثالث نحو إلبيره بالقرب من غرناطة والرابع وهو بقيادة طارق نفسه . سار نحو جيان ثم عطف نحو طليطلة ، وكان أهلها قد غادروها فدخلها دون مقاومة تذكر(١٠) .

لما وصلت أخبار هذا الفتح الى مسامع موسى بن نصير ، سارع الى الانتقال الى الأندلس بجيش فيه وجوه العرب ، ووصل الى هناك سنة ٩٣هـ/٧١٢م وقد

---

٩ ــ أخبار مجموعة ص ٩ البيان المغرب ج٢ ص ٨ .
١٠ ــ راجع أخبار مجموعة ص١٠ــ١٤ البيان المغرب ٢/٩ــ١٠ .

سلك طريقاً غير تلك التي سلكها طارق ، فقد اتجه غربا الى شذونة ، ومنها شمالاً الى قرمونة وفتحها ، ثم غرباً الى إشبيلية ثم الى باجة وعلى عدد من المدن الواقعة فيما يعرف اليوم باسم البرتغال ، ومن هناك انعطف باتجاه الشمال الشرقي الى ماردة ففتحها بعد قتال شديد •

بعد ذلك التقى موسى بن نصير طارقاً في مدينة طليطلة على أغلب الظن • وقد ذكرت المصادر أخبار مختلفة حول ماجرى في هذا اللقاء فذكر بعضها أن موسى قام بتوبيخ طارق الى غير ذلك من هذا القبيل لكن الذي يفهم من خلال استعراض الأحداث التي تلت هذا اللقاء ، أنه لم يكن في الأمر إساءة • ذلك لان موسى بن نصير كان القائد العام ، وهو الذي عين طارقاً على قطعة من جيشه للقيام بحملته ، فلما التقيا من جديد كان من الطبيعي ان يسترد موسى القيادة على جميع قطع الجيش • وفيما بعد اللقاء في طليطلة ، اتفق موسى وطارق على متابعة خطة الفتح، ثم اتجها في خطين مختلفين•وفيما يخص التوبيخ إن كان قد حدث بالفعل ، فيمكن أن يكون جدالاً في سياسة الفتح وخططه وما الى ذلك(١١) •

أمضى موسى وطارق شتاء سنة ٩٥هـ/٧١٣م في مدينة طليطلة • ثم لما حل الربيع تقدما نحو سرقسطة ، وحاصراها فسقطت بسرعة ، وفيها بعد توجه طارق منفصلاً الى الشمال ففتح وشقة ، ثم بعد ذلك فتح ليون واسترقة وغيرهما • وتوجه موسى بجيشه نحو الشرق ففتح برشلونة وما حولها •

وفيما كان موسى يتابع عملياته الناجحة هذه ، جاءه أمر الوليد بن عبد الملك بضرورة الحضور الى دمشق • أما السبب الذي حمل الوليد على ذلك ، فلا يزال لغزاً الى اليوم ، إلا أن يكون خوفه من انقطاع المسلمين بأرض نائية في دار حرب، كما تراءى لعمر بن عبد العزيز في الفترة التالية •

وقد أبطأ موسى بالحضور الى دمشق فأكمل بعض الأمور التي تهم الفتح في الأندلس ، وفي سنة ٩٦هـ/٧١٤م حضر الى دمشق بعد أن مر على القيروان ثم على

١٢ـ فتوح البلدان للبلاذري ص ٢٣١ تاريخ الطبري ج٢ ـ ٢٥٤ ابن الاثير ج٢ ص ٢٧٦ ـ ٢٧٧ •

مصر ثم على فلسطين ، وفي طبريه وافاه رسول من سليمان بن عبد الملك ، وهو بعد ولي للعهد ، يطلب إليه أن يتريث في المسير حتى يكون قدومه وسليمان خليفة ، لكن موسى لم يلتفت كثيراً الى هذا الطلب ، وأسرع في الحضور الى الوليد بن عبد الملك(١٢) .

ب ـ الفتح في منطقة ماوراء النهر :

منطقة ماوراء النهر هي المنطقة التي كانت تدعى عند اليونان (ترانس أوكسيانا) ودعيت كذلك نسبة الى نهر جيحون الواقع الى الشمال من حدود خراسان، وتمتد شمالا حتى حدود نهر سيحون الموجود في بلاد الترك . أما في الغرب فقد كانت تحدها منطقة خوارزم ، وفي الشرق كانت حدودها غير واضحة تماما.

وقد تألف سكان هذه المنطقة من خليط من الشعوب الآسيوية . وتألفت فيها ممالك مستقلة غير واضحة الحدود ، أهمها طخارستان على ضفتي نهر جيحون ، ومملكة ختلان على تخوم السند وراء نهر جيحون في أول بلاد ماوراء النهر ومملكة الصغانيان وشومان ، ومملكة الصغد التي أهمها سمرقند ، ومملكة خوارزم وفرغانة والشاش وغير ذلك(١٣) .

وقبل خلافة الوليد كانت قد توقفت الفتوح في هذه الجبهة الى حد كبير، وسبب ذلك هو خطورة الاحداث الداخلية ، التي واجهت الحكم ، الذي أمضى وقتاً قبل أن يتمكن من استئصال شأفتها وإطفاء نارها الى غير عودة . وهذا ساعد الوليد بن عبد الملك على البدء في استئناف العمليات الحربية على كافة الجبهات ومنها هذه الجبهة ، التي لم تتسع فيها الفتوح العربية الا حينما ولى الحجاج بن يوسف قتيبة بن مسلم الباهلي على خراسان فقدمها قتيبة سنة ٨٦هـ/٧٠٥م في العام الذي توفي فيه عبد الملك .

---

١٢ ـ البيان المغرب ج٢ ص ٢٠ اخبار مجموعة ص ٢٩ .
١٣ ـ ابن الأثير ج٤ ص ٥٢٣ تاريخ الطبري ج٦ ص ٤٢٤ ومن أجل هذه الممالك انظر معجم البلدان .

وجعل قتيبة في كل صيف يقطع نهر جيحون غازياً ، ثم يعود في الخريف الى مرو عاصمة خراسان ، وذلك تجنباً لقضاء فصل الشتاء في منطقة ماوراء النهر لشدة بردها وقساوة شتائها . وفي سنة ٨٧هـ/٧٠٦م أغار قتيبة على مقاطعة بخارى ، وغزا بيكند ، ولكن الصغد سكان ماوراء جيحون ، استمدوا من حولهم وهاجموا العرب بعدد كبير ، وأخذوا عليهم الطرق فانقطعت أخبارهم ، فأشفق الحجاج على الجند ، وأمر لهم بالدعاء في المساجد . وبعد كفاح طويل تمكن قتيبة من السيطرة على بيكند .

وشد الحجاج على قتيبة بفتح مدينة بخارى ، ولكن هذه المدينة استعصت على قتيبة فكتب الى الحجاج يعلمه بالأمر ، فكتب الحجاج إليه يسأله أن يرسل اليه تصوره العام عن طبيعة المدينة الجغرافية ، وقد وافاه بذلك وبعد دراسة مطولة لواقع المدينة ، أشار على قتيبة باتباع خطة معينة وتمكن قتيبة أن يدخل بخارى[14] .

وظل قتيبة يتوغل في المشرق حتى وصل الى شغر على حدود الصين ، ولكن العرب لم يدخلوا الصين نفسها فاتحين ، بل انتشرت رسالة الإسلام وثقافته فيها بوساطة تردد التجار إليها .

والحق فقد كانت المنجزات العسكرية ، التي تحققت على يد جيش قتيبة ، هي التي جعلته يتصدر لائحة القواد العظام ، الذين عرفهم تاريخ الفتوح العربية . وقد ساعده على سرعة تحقيق هذه الانجازات هو تحطم القوة الساسانية ، التي شكلت العقبة الأولى في وجه التقدم العربي باتجاه تلك المنطقة ، الامر الذي جعل معظم الممالك فيها وراء النهر تلجأ الى الخضوع والمصالحة ، وكثيراً ماكان قتيبة يلزمهم بالتوقيع على معاهدات تجعلهم يسيرون دائماً في ركب المسيرة العربية العامة .

ح ـ الفتح في السند :

الأخبار حول فتح إقليم السند قليلة وشحيحة جداً في المصادر العربية ، الأمر

١٤ ـ تاريخ الطبري ج٦ ص٤٣٠ وما بعدها . ابن الأثير ج٤ ص٥٢٣ـ٥٢٤ .

الذي لا يسمح لنا في التوسع كثيراً في هذا الميدان . وكان ذلك بخاصة في الفترة التي سبقت خلافة الوليد بن عبد الملك .

والسند هي المنطقة الواقعة الى الشرق من إيران على ساحل بحر الهند .

وهي دلتا السند ((الأندوس)) التي تشكل مدخل القارة الهندية .

وفي مستهل خلافة الوليد بن عبد الملك ، جهز الحجاج بن يوسف الثقفي والي العراق جيشاً من الأحداث بقيادة ابن عمه محمد بن القاسم بن الحكم الثقفي وأرسله للفتح في إقليم السند . كان ذلك في سنة ٨٩هـ/٧٠٨م .فما زال محمدبن القاسم يفتح في السند بلداً بلداً حتى وصل الى عاصمتها الديبل (كراتشي اليوم) وهي مرفأ تنتهي عنده دلتا نهر السند . وقد اعتصم أهل الديبل وراء أسوار مدينتهم ، فأمر محمد بن القاسم بالسلالم فنصبت وأصعد عليها الرجال، وتمكن من فتح المدينة عنوة سنة ٩٣هـ/٧١٢م في أواخر أيام الوليد والحجاج بن يوسف[١٥] .

ثم تابع بعد ذلك الى المدينة المقدسة ملتان ، وسيطر عليها تماما . لكن موت الحجاج في هذا الوقت بالذات ، أثرت في حماسة محمد بن القاسم ونشاطه العسكري ، وقد توج ذلك بموت الخليفة الوليد بن عبد الملك بعد أمد قصير . حيث قام سليمان بن عبد الملك الخليفة الجديد بنكب القائد المظفر محمد بن القاسم، الذي كان شديد الوفاء والاخلاص لمبادئه الوطنية والانسانية ولن تتوافر الفرصة بعده لأي قائد لأن يصل الى المكان الذي وصل إليه في بلاد السند ، حتى كانت أيام دولة الغزنويين[١٦] .

د ــ حروب الوليد مع الروم :

كانت أعمال الوليد بن عبد الملك على الجبهة البيزنطية ، استمراراً لتلك

---

١٥ ــ فتوح البلدان ج٥ ص٦١٢ وما بعدها ابن الأثير ج٤ ص٥٣٦ــ٥٣٧ .
١٦ــ نبيه عاقل ــ تاريخ العصر الأموي ص ١٦٠ ــ ١٦١ .

الأعمال التي قام بها الخلفاء الأمويون السابقون من أمثال معاوية بن أبي سفيان ، وعبد الملك بن مروان . وقد عرفنا في مكان سابق ، أن هدف كل هذه الأعمال ، هو الوصول الى القسطنطينية ، أو على الأقل تحطيم معاقل بيزنطة ، التي تقع قبل القسطنطينية ، من أجل استمرار الأمان والاطمئنان وحماية الحدود العربية من هجوم بيزنطي محتمل في كل وقت .

اشتهر من القادة العرب العسكريين الذين عملوا على هذه الجبهة في عهد الوليد بن عبد الملك ، أخوه مسلمة بن عبد الملك وابنه العباس بن الوليد . وقد بدأ الوليد برنامجه الطموح الى الوصول الى العاصمة البيزنطية بحصار حصن طوانة ، الذي كان يُعد من أهم الحصون على طريق الجيوش العربية الفاتحة. ولم يتمكن مسلمة من السيطرة على هذا الحصن حتى سنة ٨٨ هـ/٧٠٧ م(١٧) .

وفي سنة ٨٩ هـ/٧٠٨ م قام العرب بقيادة مسلمة بغزو حصن سورية وفتحه ، وكذلك فعل في عمورية وهرقلة وغيرهما(١٨) كبلدة الجرجومة ، التي انضم قسم من أهلها الى الجيش العربي الفاتح(١٩) .

وقد استغل العرب الفاتحون انشغال الامبراطور جستنيان الثاني بمشكلاته الداخلية الصعبة ، فشنوا عدة حملات على الأراضي البيزنطية خلال عدد من السنوات فيما بين سنة ٩٢ــ٩٦ هـ ، ووصل بعض هذه الحملات الى كيليكيا وتوغلوا حتى وصلوا الى كريز وبوليس(٢٠) .

وبينما كان الوليد بن عبد الملك ، يعد العدة ويجهز الجيش تجهيزاً ممتازاً ، كي ينقض على القسطنطينية ويدخلها ، باغته الموت ، لتنتقل هذه المهمة لأخيه سليمان بن عبد الملك .

١٧ــ تاريخ الطبري ج ٦ ص ٤٣٤ . ابن الأثير ج ٤ ص ٥٢١ .
١٨ــ تاريخ الطبري ج ٦ ص ٤٣٩ .
١٩ــ فتوح البلدان ج ٢ ص ٢٢٠ .
٢٠ــ انظر تفاصيل وافية حول ذلك، نبيه العاقل الامبراطورية البيزنطية ص٢٣٣

والحق يقال إن عهد الوليد بن عبد الملك ، كان من العهود الذهبية في الميدان العسكري ، من حيث كمية النشاط والمنجزات على مختلف الجهات ، ففي عهده كما رأينا فتحت الأندلس وثم فتح المغرب قبل ذلك ، ثم فتحت أجزاء مهمة في مناطق بلاد ما وراء النهر ومنطقة السند ، وبلاد الروم (آسية الصغرى) • ولعل أروع هذه المناطق من حيث منجزاتها العامة ، كانت الأندلس ، التي جعلت التواصل الحضاري حقيقة واقعة وراسخة ، الأمر الذي ساعد كل دول أوروبا على الاطلاق على التخلص من تأخرهم وتقهقرهم الحضاري ، والانطلاق الى أوسع الآفاق وتحقيق أسمى الأهداف •

منجزات عصر الوليد الحضارية :

ساعدت حالة الاستقرار التي اتسمت بها فترة الوليد بن عبد الملك على العمل بعناية فائقة في ميدان المشاريع العامة والإعمار ، وكان من أهم هذه المشاريع بناء بعض المساجد الضخمة الفريدة في شكلها وهندستها ، ساعد على ذلك اهتمام الوليد الكبير بالمسائل العمرانية بشكل خاص •

ولعل أهم المساجد التي قامت عليها شهرة الوليد بن عبد الملك ، هو المسجد الأموي الكبير بدمشق ، الذي أقيم في موقع كان قد أُعدّ للعبادة منذ أن سكنت مدينة دمشق ، حيث أقام الآراميون في مطلع الألف الأول قبل الميلاد معبداً لالههم (حدد) • وفي القرن الثالث الميلادي أُقيم في هذا الموقع معبد للإله جوبيتر ، الذي كان العرب يسمونه المشتري • وأهم ما تبقى منه بوابته الغربية المحمولة على أعمدة ضخمة ، والتي تظهر قبل الدخول الى الجامع الأموي من بابه الغربي[٢١] وتحول هذا المعبد في القرن الرابع الميلادي ، حين غدت المسيحية دين الامبراطورية البيزنطية الرسمي ، تحول الى كنيسة دعيت كنيسة القديس يوحنا المعمدان • وهناك اختلاف في الآراء والمعلومات حول واقع هذه الكنيسة بعد الفتح العربي الاسلامي ، والشيء المتفق عليه في هذا الأمر ، أنها قسمت الى قسمين ، الغربي وقد

٢١ـ عبد القادر ريحاوي ـ مدينة دمشق ، طبعة دمشق ص ١٦٨ وما بعدها .

ظل كنيسة للمسيحيين ، والشرقي وقد بني فيه مسجد للمسلمين . وقد بقي هذا الوضع قائماً أكثر من نصف قرن ، حتى جاء الوليد بن عبد الملك ، فشرع في بناء الصرح الضخم الذي تمثل بالمسجد الأموي[٢٢] وحتى يتحقق له هذا الأمر ، بذل جهوداً جبارة لإقناع مسيحيي دمشق ، بأن يتنازلوا للمسلمين عن القسم الغربي من كنيسة المعمدان الذي كان تحت سيطرتهم مقابل أربع كنائس منحهم حق العبادة فيها[٢٣] ولكن معظم الروايات القديمة القريبة من زمن بناء المسجد ، وكذلك البحوث الحديثة ، تجزم بأن مسألة التقسيم مسألة لا حقيقة لها وأن معبدالمسيحيين، كان معبداً مستقلاً ، عن المعبد الذي كان المسلمون يؤدون فيه فرائض دينهم .

كان في مقدمة الدوافع التي شجعت الوليد بن عبد الملك على تشييد هذا المسجد ، أنه كان يرغب في أن يكون في عاصمته مسجد كبير ، يتماشى مع عظمة هذه العاصمة . وقد بدأ عملية البناء سنة ٧٨ هـ وبقي مستمراً حتى سنة ٩٦ هـ حيث كانت وفاة الوليد[٢٤] وساهم في بنائه ألوف العمال والمعماريين ، وكلف قرابة أحد عشر مليوناً من الدنانير وزينت جدران المسجد بالزخارف والفسيفساء ، واستخدم الخشب المحلى بالنقوش الموشى بالذهب[٢٥] .

الى جانب المسجد الأموي الكبير نذكر بعض المنجزات العمرانية الأخرى ، التي بنيت في هذه الفترة من حكم الوليد بن عبد الملك ، والتي كان منها عدد من القصور كقصر منية على بحيرة طبريا[٢٦] وقصر عمرة الذي يقع في الصحراء فيوادي البطم على مسافة نحو ٥٠ ميلاً شرق مدينة عمان . وهذا البناء كان يؤدي عدة أهداف ، فكان يستخدم مربعاً تبدأ منه رحلات الصيد ، وكذلك يستخدم للاستجمام[٢٧] وقصر حمام الصرح أو السراح ، الذي كان الوليد يلجأ إليه الوليد، إذا ضجر من حياة المدينة[٢٨] .

٢٢ـ مشاهد دمشق الأثرية طبعة دمشق ١٩٥٠ ص ١٢ وما بعدها .
٢٣ـ مشاهد دمشق الأثرية .
٢٤ـ المسعودي ـ مروج الذهب ج ٣ ص ١٦٧ .
٢٥ـ الريحاوي ـ مدينة دمشق ص ١٧٦ .
٢٦ـ نبيه العاقل ـ تاريخ الدولة الأموية ص ١٨٣ .
٢٧ـ لانكستر هاردنج ـ آثار الأردن تعريب سليمان موسى ط ١ ـ ١٩٦٥ ص ١٥٧ .
٢٨ـ آثار الأردن ص ١٥٥ .

وفي عصره أيضاً بني المسجد الاقصى ، مع أن بعض الروايات غير الموثوقة تقول انه بني في زمن عبد الملك • لكن المؤكد أن قبة الصخرة بنيت في عهد عبد الملك بن مروان[٢٩] •

الاصلاحات الداخلية في عصر الوليد بن عبد الملك :

كثرت في أيام الوليد الاصلاحات الداخلية العامة كتعبيد الطرق ، وبناء المشافي ، واقامة دور العجزة • ففي العراق على سبيل المثال مسحت أراضيه ، ثم جعل كل صاحب أرض مسؤولاً عن أية جريمة تقع في أرضه ، فساعد بذلك على نشر الأمن هناك • وفي العراق أيضا انتعشت الزراعة بفضل إعادة اصلاح قنوات الري ، ثم وحدت المكاييل والمقاييس والموازين • ثم منعت الهجرة من القرى من المدن الكبرى ، لئلا لا تفتقر الزراعة ، ثم تزدحم المدن وتضيق بالعاطلين من أهلها • واعتمد في الجيش على الأحداث فقط ، وكان يفحص المتقدمين الى الجيش فحصاً طبياً •

الى جانب هذا كله أولى الرعية اهتماماً كبيراً،فكان أول من عمل البيمارستان للمرضى ، ودار الضيافة ، أول من أجرى على العميان والمساكين والمجذومين الأرزاق • وقد كلفته هذه الأعمال العمرانية، وهذا الإحسان الى المرضى والمعوزين مالاً جماً ، فانكسر الخراج في أيامه[٣٠] •

نظرة في شخصية الحجاج ونهايته :

لابد من الحديث ولو بشيء قليل عن شخصية الحجاج بن يوسف الثقفي ، لأنه الشخصية المهمة ، الذي شغل دوراً مهماً في حياة الفترة الأموية ، ولاسيما في فترة حكم الوليد بن عبد الملك ، حيث كان الحجاج في زمنه الحاكم المطلق في

٢٩ـ جورج مارسيه ـ الفن الاسلامي ، ترجمة عفيف بهنسي طبعة وزارة الثقافة ، دمشق ١٩٦٥ ص ٤٦ •
٣٠ـ اليعقوبي ج ٢ ص ٢٦١ •

المشرق ، بينما لم يكن كذلك في عهد عبد الملك بن مروان ، حيث كان لا يعدو كونه عاملاً عليه أن يقبل أوامر خليفته .

وتفسر هذه الثقة الكبيرة من قبل الوليد بالحجاج ، بأنه كان صاحب الفضل الكبير في إقناع عبد الملك بالبيعة للوليد من بعده وخلع أخيه عبد العزيز كما نصت وصية أبيهما مروان بن الحكم .

وقد جعله نفوذه القوي يتشجع على الطلب من الوليد بن عبد الملك أن يعزل ابن عمه عمر بن عبد العزيز عن ولاية المدينة ، ونفذ الوليد إرادة الحجاج ، الذي كان يكره عمر بن عبد العزيز وكل من يريد أن يسير على طريق الحق والعدل والإنصاف ، وسبب هذه الكراهية ، أن عمر بن عبد العزيز ، الذي عرف بالتقوى والعدل كان قد أشار على الوليد بن عبد الملك بضرورة حل مشكلة سيطرة الحجاج على مقدرات العراقيين ، وكبح جماح ظلمه لهم ، ذلك الظلم العارم الذي لم يقف عند حد معين[٣١] .

وقد طالت ولاية الحجاج على العراق ، فقد دامت نحواً من عشرين سنة ، وقد مات في ولاية الوليد بن عبد الملك ، وله من العمر ثلاث وخمسون سنة . وقد سأله أحد زواره وهو يحتضر على فراش الموت ، كيف تجدك ؟ فأجابه : « سفر طويل وزاد قليل فويلي إن لم يرحمني الجبار » وذلك دليل على شعوره المرير بالندم لما اقترفته يداه من مجازر دموية في حق العراقيين ، الذين كانوا يجبرونه على مثل هذه الجرائم بمعارضتهم المستمرة وخروجهم على السلطة الأموية ، فقد قتل في مرة واحدة قرابة ثلاثين ألف انسان . لكن يجب أن ننوه هنا ، أن هذه الجرائم والمجازر لم يقترفها الحجاج حباً في القتل وسفك الدماء ، بل هو رد فعل شديد على معارضة ما ، كما باستطاعته أن يعالجها بطرائق أخرى أكثر لطفاً وأقل خشونة وخسارة ، كما فعل زياد بن أبيه من قبله ، الذي استطاع أن يحكم العراقيين بأسلوب أقل عنفاً ودموية ، هذا بالاضافة الى اعتماده على القوة المحلية ، بعكس الحجاج الذي كان دائماً يطلب العون من خارج العراق .

٣١ـ تاريخ الطبري ج ٦ ص ٤٨١ ـ ٤٨٢ .

وبأسلوبه الرهيب هذا ، تمكن من جعل العراق منطقة هادئة تنعم بالسلام والهدوء والإطمئنان ، الأمر الذي ساعده على التركيز على مسائل الاصلاح والإعمار ، كتحسين القرى ، وتنظيم قنوات الري ، وتعمير الأرض وإصلاحها ، وإشادة الترع على الأنهار ، وتجفيف المستنقعات وما الى ذلك ، وهي أمور أتينا على ذكرها في سياق الحديث عن منجزات الوليد بن عبد الملك الحضارية بشكل عام .

الفصل الخامس

خلافـــة سليمان بـــن عبـــد الملك

مســـألة العصبية في زمنه :

تولى سليمان بن عبد الملك الخلافة بعد أخيه الوليد سنة ٩٦ هـ/٧١٥م وذلك تنفيذاً لوصية والدهما عبد الملـــك بن مروان[1] وفي أيام سليمان بدأ الضعف يدب في البلاد الخاضعة للسلطة الأموية ، لعدم حنكته وسوء سياسته بصورة عامة ، لما كان يحمل في نفسه من نقائص شخصية لا تصلح السياسة لمن يحملها ويتمسك فيها، كالحقد والنهم والجشع ، وحب الزينة والقسوة في المعاملة .

فقد رأينا من قبل أن الحجاج بن يوسف الثقفي والي العراق ، كان قد أشار على عبد الملك بن مروان بخلع أخيه عبد العزيز من ولاية العهد ، وجعلها في ولديه الوليد وسليمان . ثم أشار على الوليد ، حينما أصبح خليفة ، أن ينقل ولاية العهد من أخيه سليمان الى ابنه يزيد بن الوليد . فأغضب هذا العمل سليمان وأخفاه في نفسه ، وصمم على الانتقام من الحجاج عندما تحين الفرصة المناسبة .

ولكن الحجاج كان محظوظاً ، إذ نجا من انتقام سليمان ، لأنه توفي قبـــل أن يصبح سليمان خليفة بتسعة أشهر سنة ٩٥ هـ/٧١٤ م . فصب سليمان جام غضبـــه على آل الحجاج وأنصاره وولاته وقواده ، ثم تناول بالانتقام نفراً من الرجـــال ، الذين صنعوا مجد الدولـــة الأموية ومن الغريب في سياسة سليمان بن عبد الملك ، أنه قام بالقضاء على جماعة من عباقرة العرب لأنهم قيسيون ، على الرغم من أنـــه

١ــ انظر هذه الوصية تاريخ الطبري ج ٦ ص ٤١٦ .

كان قيسياً ، وأن سياسة الخلفاء الأمويين هي قيسية بصورة عامة ، مثال ذلك أن معاوية لم يصهر الى اليمانية بزواجه من ميسون الكلبية إلا توطيداً لملكه في الشام بجمع العصبية اليمنية حوله . وكذلك مروان بن الحكم وابنه عبد الملك ، فقد تقربا من اليمنية ليقاوما بهم عبد الله بن الزبير الذي كان يعتمد على القيسية .

فقد كان الحجاج بن يوسف ، وهو قيسي من ثقيف في الحجاز ، قد سجن في سنة ٩٠ هـ/٧٠٩ م في أثناء ولايته على العراق يزيد بن المهلب ، وهو أزدي من اليمنية . وتمكن يزيد بن المهلب أن يهرب من سجن الحجاج ، وأن يلجأ الى سليمان بن عبد الملك ، الذي كان مقيماً بمدينة الرملة بفلسطين ، وذلك قبل أن يلي الخلافة[٢] وقد قام يزيد بن المهلب بإذكاء نقمة سليمان على الحجاج وعلى سياسته العامة . لذلك نرى سليمان يبادر لدى توليه أمر الخلافة الى عزل عثمان بن حيان المري عن المدينة ، وخالد بن عبد الله القسري عن مكة . كما قام بسجن محمد بن القاسم الثقفي فاتح السند ثم قتله برعونة وبلا تقدير ، ونكب طارق بن زياد وموسى بن نصير فاتحي الأندلس ، على الرغم من أن موسى كان يماني الولاء ، أما قتيبة بن مسلم الباهلي والي خراسان ، فقد خشي من المصير الذي حل بهؤلاء ، فاستبق الأحداث وأعلن الثورة على سليمان كما سنرى في الفقرات التالية .

اساءة سليمان بن عبد الملك الى موسى وطارق فاتحي الأندلس :

لما وصل الخبر بفتح الأندلس الى العاصمة دمشق ، كان الخليفة الوليد بن عبد الملك مريضاً على فراش الموت ، وكان أخوه سليمان ولياً للعهد فكتب سليمان الى موسى بأن يبطىء في رجوعه بالأسرى والغنائم حتى يكون وصوله الى دمشق وهو (أي سليمان) خليفة . ولكن وفاء موسى أبى عليه ذلك فأسرع في سيره فوصل الى دمشق والوليد لايزال حياً . ورأى الوليد أمراء القوط في ثيابهم المزركشة والمرصعة بالحجارة الكريمة ، يمرون أمامه وخلفهم الغنائم الثمينة .

٢ـ تاريخ الطبري ج ٦ ص ٤٤٨ وما بعدها .

كل ذلك أدى الى ازعاج سليمان بن عبد الملك ، فلما تولى الخلافة نكب موسى بن نصير وأساء الى طارق أيضاً ، فقضى طارق بقية عمره مغموراً مهملاً لم يمتعه سليمان بن عبد الملك بشيء مما كان قد وهبه للدولة الأموية من الفتح المجيد والشرف العظيم والغنائم الوفيرة [٣] .

وبنهاية موسى بن نصير على يد سليمان بن عبد الملك ، بدأ في الأندلس ما سمي بعصر الولاة . فقبل أن يعود موسى بن نصير الى دمشق ، استخلف ابنه عبد الله على المغرب ، وابنه عبد العزيز على الأندلس ، وأسكنه في إشبيلية ، فضبط عبد العزيز البلاد وفتح عدداً من المدن ، التي لم تكن قد فتحت بعد في أقصى الشمال . لكنه ارتكب خطأ شخصيا كان له أثر بالغ في حياته العامة . فقد تزوج بأخيلونا امرأة لذريق زعيم القوط ، فاتهمه بعضهم بتهاونه معها لأنها بقيت على دينها القديم ، هذا بالاضافة الى كره سليمان بن عبد الملك لموسى بن نصير ، الذي أرسل الى الأندلس من عمل على قتل عبد العزيز وأخيه عبد الله ، وحمل رأسيهما الى سليمان المقيم بدمشق ، وذلك سنة ٩٧ هـ/٧١٦ م[٤] .

وبعد مقتل عبد العزيز بن موسى ، اضطربت الأندلس وبقيت ستة أشهر بلا والٍ . ثم ولى العرب على أنفسهم أيوب بن حبيب اللخمي ابن أخت موسى بن نصير ، فلم يرضى سليمان به فأرسل الحر بن عبد الرحمن الثقفي والياً على الأندلس . وفي هذه الأثناء نقلت العاصمة من إشبيلية الى قرطبة ، لأن قرطبة كانت أكثر توسطاً في البلاد وأكثر قرباً من طريق التجارة[٥] .

وأما قتيبة بن مسلم ، فقد أراد أن يباغت الخليفة ، قبل أن يباغته هذا الأخير فدعا جنده بالتمرد على الخلافة ، فوافقه قسم منهم ، وخالفه قسم آخر ، لكن تمرده فشل في النهاية ، بعد أن تآمر جماعته عليه وقتلوه سنة ٩٦ هـ/٧١٥ م[٦] .

٣- البيان المغرب ج ٢ ص ٢٠ أخبار مجموعة ص ١٩-٢٠ و ٢٩-٣٠ .
٤- أخبار مجموعة ص ٢٠ البيان المغرب ج ٢ ص ٢٣ .
٥- البيان المغرب ج ٢ ص ٢٥ نفح الطيب ج ١ ص ١٨٠ .
٦- تاريخ الطبري ج ٦ ص ٥٠٦ وما بعدها .

وأما فاتح السند العظيم محمد بن القاسم الثقفي ، فقد لاقى المصير نفسه ، إذ جيء به الى مدينة واسط ، وأودع السجن وقتل فيما بعد ، وسبب نكبته هذه أنه قريب الحجاج بن يوسف[٧] .

ومقتل هؤلاء العظام مهما كان سببه ومبرره ، فإنه يبقى من الأعمال المشينة ، التي ستظل تلطخ بالعار والنقيصة سيرة وتاريخ الخليفة سليمان بن عبد الملك . فلا يوجد منهم من أساء له ولا لأقربائه ولا حتى لأصدقائه وأن يعاقب الانسان الوطني بالموت والقتل والتشرد ، فهذا أمر غريب وشاذ في حياة الأمم الحية ، والتي كانت منها أمتنا العربية ، التي تتمنى لها ، أن تصحو من غفوتها التي استطالت فكبر خطرها وشرورها .

اعمال يزيد بن المهلب في العراق :

كان موت الحجاج والخليفة الوليد بن عبد الملك في وقت متقارب،من الأحداث التي أدت الى سرور وفرح العراقيين ، فهم تخلصوا من الحجاج الذي كثيراً ما سفك دماء أقربائهم بلا رحمة ولا هوادة ، وكذلك تخلصوا من خليفته الوليد ، الذي لم يسأله مرة واحدة عن أعماله في العراقيين ، بل كان يجيبه الى كل ما يطلب دون مناقشة أو تردد . وحل محل الحجاج يزيد بن المهلب صديق الخليفة سليمان بن عبد الملك ، وتطلع العراقيون الى أنه سيكون أفضل من الحجاج على أية حال . لكنه لم يمض وقت طويل حتى اكتشفوا أنه كان صورة طبق الأصل عن الحجاج ، فقد سار على طريقته في حكم البلاد ، وأقام بمدينة واسط ، لكنه على كل حال ، لم يسفك الدماء ولم يقتل الأبرياء ، كما فعل الحجاج ، الى درجة أنه طلب من الخليفة سليمان بن عبد الملك أن يعفيه من جباية الأموال ، فأعفاه وعهد بهذه المهمة الى صالح بن عبد الرحمن ، الذي كان على زمن الحجاج . وبالجملة فلم يتمكن يزيد بن المهلب ، أن يرقى الى المكانة ، التي كانت لقتيبة الباهلي على سبيل المثال، ولم يتمكن من جمع الناس حوله كما كان الحجاج ، على الرغم من غزوه لجرجان وطبرستان وغيرها[٨] .

---

٧ ــ فتوح البلدان ج ٥ ص ٦١٨ ــ ٦١٩ .
٨ ــ تاريخ الطبري ج ٦ ص ٥٢٣ وما بعدها .

المنجزات العسكرية في عهد سليمان بن عبد الملك :

على الرغم من أن معظم المؤرخين ، يتهمون سليمان بن عبد الملك باللهو والانكباب على الملذات الخاصة ، فإنه بذل جهوداً مشكورة في الميدان العسكري، ويبدو أن هذه المسألة ، كانت من الواجبات الأساسية ، التي لا يمكن غض الطرف عنها مهما كانت المسوّغات ، ليس فقط في عصر سليمان بن عبد الملك ، بل رأينا ذلك في كل عهود الخلافاء السابقين ، وكأن هذه المسألة كانت جزءاً من سياسة بني أميّة العامة . وتتجسّد في توسيع رقعة الدولة ومدى سيطرتها .

انحصر نشاط الجيش في عصر سليمان بن عبد الملك بخاصة في الجبهة البيزنطية، حيث كان الأمويون ، يحلمون على الدوام بفتح القسطنطينية ، وكان الاستعداد لذلك قائماً على أتم وجه في عهد الوليد بن عبد الملك عندما باغتته منيته . وأراد سليمان بن عبد الملك الآن ، أن يكون له شرف تحقيق ما لم يحققه الوليد في السابق . وكان يعاصر سليمان بن عبد الملك ثيودوسيوس الثالث آخر ملوك الأسرة الهرقلية البيزنطية . وقد كان ضعيف الشخصية والعزيمة ، طيب القلب ، فتنازل برضاه عن الحكم ، وحل محله لاوون الأسوري ، حيث قام سليمان بن عبد الملك بغزو القسطنطينية في عهده من جهة البر والبحر ، واجتمعت مقدرة لاوون هذا مع شدة البرد ونجاح النار الإغريقية على العرب، فلم يتمكنوا من دخول القسطنطينية، على الرغم من حصارهم لها مدة عام كامل ، أي طول سنة ٩٨ هـ/٧١٧ م بالاضافة الى بضعة أيام من السنة السابقة . وكان على قيادة الجيش البري داود بن سليمان ومسلمة بن عبد الملك ، وعلى قيادة الجيش البحري عمر بن هبيرة(٩) .

وقد بلغ من اهتمام سليمان بن عبد الملك بأمر حصار القسطنطينية الى حدٍ ، أقام لنفسه معسكراً في دابق شمال مدينة حلب لتوجيه العمليات الحربية ضد البيزنطيين . وكان حصار العرب للعاصمة البيزنطية حصاراً قاسياً ، أبدوا خلاله ضروباً نادرة في التضحية والشهادة والإقدام . فقد اشتهر من جند هذه الحملة رجل يدعى عبد الله البطال ، الذي كان من جملة حرس مسلمة بن عبد الملك ، وقد

٩ـ تاريخ الطبري ج ٦ ص ٥٢٣ العدوي ـ الأمويون والبيزنطيون ص ٢١٦ .

أبلى في هذا الحصار بلاء حسناً ، أعطاه شهرة واسعة الانتشار ، تجسدت في قصص بطولية رائعة تشبه الأساطير ، وعده الأتراك بطلاً قومياً وسمّوه (السيد غازي) . وقد أنشيء على قبره بالقرب من أسكي شهرتكية ومسجداً لأبناء الطريقة البكتاشية . وقد استشهد البطال في معركة ضد البيزنطيين سنة ١٢١ هـ/٧٤٠ م . ويذكر أن البيزنطيين طبعوا صورته على بعض كنائسهم لتذكير الناس بما له من بأس وشجاعة[١٠] .

وعلى الرغم من فشل هذا الحصار والحصارات السابقة ، فإن هذا الحصار وغيره من الهجمات العربية على الأراضي البيزنطية ، قد ساعد على تثبيط عزم بيزنطة وإلهائها بالدفاع عن عاصمتها الى عدم التفكير أو التطلع الى استعادة شمال افريقية الى الحظيرة البيزنطية من جديد . لكن فشل الحصار من جهة ثانية أدى الى امتداد البيزنطيين في بعض الأحيان باتجاه الحدود العربية الشمالية ولكن ذلك لم يؤد الى نتائج مهمة ، مثال ذلك غارتهم على اللاذقية سنة ١٠٠هـ[١١] .

أما على الجبهة الشرقية ، فقد كانت أكثر نجاحاً وأوفر حظاً . وقاد العمليات الحربية في هذه الجهة يزيد بن المهلب ، الذي ولي العراق والمشرق سنة ٩٧ هـ/ ٧١٦ م . وهو من الرجال الذين خبروا المنطقة ، لأنه كان في زمن الحجاج عليها ، وقد عزله الحجاج على ما تذكر الروايات ، لأنه كان يخشى أن يفعل كما فعل عبد الرحمن بن الأشعث ، أو لأن يزيد لم ينفذ كل رغبات الحجاج وأوامره ، التي كانت لا تنتهي ،و لاسيما في غزو منطقة ما وراء النهر ، حتى إن الحجاج لم يكتف بعزله ، بل زجه في السجن . ولما تسلم بشكل فعلي ولاية العراق والمشرق ، بادر الى غزو جرجان، التي كان يحلم بغزوها وفتحها منذ أن كان عند سليمان بن عبد الملك في مدينة الرملة[١٢] وقد ساعدته الظروف الداخلية في جرجان ، حيث نشب نزاع بين الفرس والترك من أهلها ، الى سرعة السيطرة عليها بعد أشهر من وصوله الى خراسان ، فنزل في دهستان وبعد ذلك انتقل الى قهستان[١٣] .

١٠ـ العدوي ـ الأمويون والبيزنطيون ص ٢٢٢ .
١١ـ البلاذري فتوح البلدان ج ٢ ص ١٨١ .
١٢ـ ابن الاثير ـ الكامل ج٥ ص ٢٩ .
١٣ـ البلاذري ـ فتوح البلدان ج ٤ ص ٤٦٩ تاريخ الطبري ج ٦ ص ٥٤١ ـ ابن الأثير ج ٥ ص ٣٤ .

وحينما انتهى من فتح جرجان هاجم طبرستان ، التي تقع الى الجنوب من بحر قزوين ، والتي كانت تسكنكها عناصر فارسية ، وقد تمكن من فتحها وصالح أهلها على دفع جزية سنوية قدرها أربعة ملايين درهم(١٤) وظل ولاء أهل طبرستان يتأرجح بين الخضوع والسكوت أحياناً والتمرد أحياناً أخرى ، حتى كان عهد مروان بن محمد ، حين نقضوا ما كان بينهم وبين العرب من عهود ، مما جعل الدولة العباسية بعد أن استقرت تلجأ الى كبح جماح تمردهم قدر المستطاع •

نهاية سليمان بن عبد الملك :

رغم أنه أصبح خليفة ، فقد ظل يحتفظ ببلاطه في مدينة الرملة ، منذ أيام ولايته للعهد • لكنه وإن لم يقم بالرملة بصورة مستمرة ، فإنه كان يتردد على الرملة كثيراً • وكذلك كان قد أقام معسكراً له في دابق شمال حلب لتوجيه الغزوات العربية منه الى بلاد البيزنطيين ، وقد وافته المنية هناك سنة ٩٩ هـ/٧١٨ م •

وكان عهده يختلف عن عهد أخيه الوليد ، ففي حين كان عهد الوليد يتميز بنشاط الإعمار والبناء والتشييد ، فإن عهد سليمان كان عهد اللهو والنساء والغناء والسمر ، لأنه كان يحب كل هذه المسائل ، وتبعه الناس في ذلك ، لكنه لم يكن يسمح بممارسة هذه المسائل علانية وكيفما اتفق كما يتبادر للوهلة الأولى ، بل كان يكافح التهتك والتطرف في هذا الميدان ، وكان يكرم العلماء والأتقياء من رجال الدين ، ويحب أن تكون السجون خالية قدر المستطاع ، وكان يحسن للعلويين ويزيد في إكرامهم(١٥) •

والدليل على فعله لهذه الأعمال أنه قام بتقريب رجاء بن حيّوة إليه وجعله من حاشيته • وهو الذي اشتهر بالتقى والصلاح ، عاصر عبد الملك والوليد ، وكبر شأنه في عهدهما ، ووصل القمة في عهد سليمان بن عبد الملك ، وكان لا يخالفه في

١٤ـ البلاذري ـ فتوح البلدان ج ٤ ص ٤٧٢ •
١٥ـ الأغاني ج ٤ طبعة بولاق ص ٥٩ ـ ٦١ •

كثير من الأحيان ، مثال ذلك أنه هو الذي أشـار عليه بتعيين عمر بن العزيز لولاية العهد من بعده[١٦] على الرغم من وصية عبد الملك ، التي تنص بأن تكون الخلافـة لأولاده على التوالي (الوليد وسليمان ويزيد)، ولما مات سليمان في دابق كان رجاء بن حيّوة الى جانبه ، وهو الذي أعلم الناس بوفاته ، وطلب إليهم البيعة لعمر بـن عبد العزيز تنفيذاً لوصية الخليفة المتوفى سليمان بن عبد الملك .

١٦ـ تاريخ الطبري ج ٦ ص ٥٥٠ .

الفصل السادس

خلافة عمر بن عبد العزيز

لا ريب في أن موافقة سليمان بن عبد الملك على تعيين عمر بن عبد العزيز خليفة للناس ، كان من أكبر حسناته على الإطلاق ، لما يتحلى به هذا الخليفة العظيم من سجايا ومزايا غاية في الرقي والنضوج والرحابة والإتساع • وكان عمر بن عبد العزيز موجوداً في دابق عندما حضرت سليمان بن عبد الملك الوفاة ، في حين لم يكن هناك أحد من أهل بيت سليمان ، الأمر الذي سهل مهمة وصول عمر الى الخلافة ، التي كانت سترتقي الى أعلى المراقي ، لولا تآمر الأمويين عليه ، وقتلهم إياه أبشع قتلة ، ولم يكن له من ذنب ، سوى أنه نزع بنفسه الطيّبة وشموخه العربي النبيل الى إصلاح ذات البين بين كل رعايا الدولة ، ونسيان ماضٍ لا قيمة له إذا ما حكمت العقول الناضجة •

هو ابن عبد العزيز بن مروان عامل مصر الذي كانت له الخلافة بعد أخيه عبد الملك حسب وصية أبيهما مروان بن الحكم ، ولكنه مات قبل أخيه عبد الملك • وأمه هي أم عاصم بنت عاصم بن عمر بن الخطاب • ولد في المدينة المنورة في خلافة يزيد بن معاوية ، وفيها أمضى معظم أيام شبابه ، الأمر الذي أثر فيه بشكل كبير• وبعد وفاة والده دعاه عبد الملك بن مروان الى دمشق ، وزوجه ابنته فاطمة ، وفي عهد الوليد عيّن والياً على الحجاز ، فذهب الى المدينة مسقط رأسه ، وكله أمل في إرضاء أهلها وإكرامهم ، وتعويضهم عن كل الذي حل بهم في العهود الأموية السابقة • وبالفعل فقد اتصل بفقهاء المدينة وعلمائها وأحسن ، كي يجعلهم يعزفون

عن نقدهم وتجريحهم لخلفاء الدولـة الأموية وبعض ولاتها كالحجاج ، الذي كان شخصية غير مرغوب بها في كل الحجاز .

وحينما تسلم مقاليد الخلافة ومسؤولياتها ، لم يتبع طريقـة سليمان بن عبد الملك في الحكم ، وعزف عن أمور الدنيا كلها ، إلا ما تعلق بها من الإصلاح وإرضاء الرعية دون تفريق بين أحد ، حتى إنه عُدّ خامس الخلفاء الراشدين لتقواه وطهارته وارتفاعه عن الترهات والصغائر . وكان لا يرغب في متابعة عملية الفتوح ، لاعتقاده أن أسلافه من الأمويين ، لم ينفذوها من أجل رفع راية الدين ، بقدر ما كانت من أجل الحصول على المغانم والمكاسب المادية .

وانطلاقاً من هذا الواقع ، أمر بعودة الجيـش ، الذي كان قد أرسـل زمن سليمان بن عبد الملك لحصـار العاصمة البيزنطية[1] وكاد أن يعطي أوامره لإيقاف الحرب في بلاد ما وراء النهر ، ولكنه لم يفعل ، لأنه وجد أن الاسـلام كدين بدأ ينتشر في تلك الديار ، فأبقى الأمور على حالها ، لكنه أمر قادة الجيش العربي أن لا يتوسعوا أكثر مما فعلوا .

ولتنفيذ هذه السياسة الجديدة ، قام بعزل معظم الولاة ، الذين كانوا يشرفون على إدارة الولايات في عهد سليمان بن عبد الملك ، وعين بدلاً منهم من يثق بهم . وطلب يزيد بن المهلب ، ووضعه في السجن لأنه لم يدفع خمس الغنائم التي غنمها من الحرب ، التي نفذها في جرجان وطبرستان[3] ولم يكن تعيـين حكام الولايات الجديد ، على أساس انتمائهم القبلي ، بل كان يعتمد على أساس الجدارة والأهلية. وكان يعمل على مراقبة هؤلاء الولاة مراقبة دقيقة ، ويطالبهم برفع الظلم عن الناس، وإحقاق الحقوق ، واقامة العدل في كل مجال .

وقد اعتمد على الفقهاء وقربهم إليه، وجعل للقاضي منزلة رفيعة ، وكان يؤمن أن

١ـ تاريخ الطبري ج ٦ ص ٥٥٣ .
٢ـ تاريخ الطبري ج ٦ ص ٥٦٨ .
٣ـ البلاذري ج ٤ ص ٤٧١ .

الأمور العامة لا تصلح إلا بتوافر الأركان الأربعة ، الوالي ، والقاضي ، وصاحب بيت المال ، والخليفة[٤] .

سياسة عمر المالية :

منذ أيام معاوية بن أبي سفيان ، جعل الأمويون يغترفون الأموال من بيت المال ، فقصرت الجبايات التي فرضها الاسلام من الزكاة والخراج والعشور عن أطماعهم وجشعهم . من أجل ذلك زاد الأمويون في أشكال الضرائب على غرار ما كان عند البيزنطيين ، وأخذوا من المسلمين زكاة وجزية ، أو شيئاً يشبه الجزية ، كما لم يرضوا عن دخول المشركين وأهل الكتاب في الاسلام خوفاً من زوال الجزية، التي كان معظمها يذهب إليهم . أما الزكاة التي يدفعها المسلمون ، فلم يكن بالامكان أن يستفيد بنو أميّة منها ، لأنها يجب أن تنفق في الوجوه المذكورة في القرآن الكريم .

فلما جاء عمر أمر أن تؤخذ الجزية من أهل الكتاب والمشركين وحدهم ، وأن تؤخذ الزكاة من المسلمين وحدهم . وأما العشر والخراج فيؤخذان من أصحاب الأراضي إذا كانت المحاصيل وافية ، فإذا أقحلت أرض في عام ما ، فإن أصحابها يعفون من الجباية في ذلك العام . وحظر عمر على الولاة والعمال أن يتاجروا لأنهم يستطيعون بما لهم من النفوذ أن يحتازوا التجارة ويضروا بالرعية . ثم أن الوالي أو العامل موظف في الدولة ، ولا يجوز له أن يقوم بعمل آخر . وكذلك حظر عمر الولاة والعمال أن يستأثروا بالأملاك العامة لأن ذلك يضر عامة المسلمين ، بل يحق لهم أن يتمتعوا منها بمثل ما يتمتع به كل مسلم آخر . أما إذا مات صاحب أرض ، فإن ورثته أو الأشخاص الذين كانوا يعملون فيها معه يقومون فيها مقامه، ولا يجوز للوالي أو للعامل أن يأخذ منها شيئاً ، إلا إذا كان حقاً من حقوق الدولة ، وحينئذ يرسل ما أخذه الى بيت المال ، ولا يحتفظ بشيء منه لنفسه .

ولما جاء وفد من الترك من سكان ما وراء النهر ، الى عمر بن عبد العزيز

٤ــ تاريخ الطبري ج ٦ ص ٥٦٨ .

وشكوا إليه أن الولاة يحولون بينهم وبين دخول الاسلام ، سأل عمر الولاةوالعمال عن ذلك فقالوا له : إذا دخل هؤلاء في الاسلام سقطت الجزية فتعجز الدولة حينئذ عن نفقاتها ، لأن الزكاة كانت تنفق على الفقراء والمحتاجين فقط لا على تسيير أمور الدولة من رواتب وأبنية . فقال لهم عمر يومذاك قولة المشهور : « إن الله أرسل محمداً هادياً ولم يرسله جابياً »[٥] ثم أمر بألا يحال بين أحد وبين الاسلام ، ففي ذلك الوقت سقطت الجزية في مصر وفي ما وراء النهر ، إذ دخل معظم القبط ومعظم الترك في الاسلام .

ثم إن عمر حظر على بني أميّة أن يأخذوا في أيامه من بيت المال وكانوا يأخذونه من قبل . وعمدالى الأراضي التي كانت تحت أيديهم ، فردها أيضا الى بيت المال. فكان ذلك من أسباب نقمة آل البيت الأموي عليه . لأن عمر بن عبد العزيز أدخل الضرر بسياسته المالية هذه على بني أمية وعلى الدولة الأموية ، ولكنه قام بالمثل العليا في الاسلام خير قيام .

وأمر عمر بن عبد العزيز ، بألا يؤخذ الخراج عن أراضي العرب المسلمين ، التي اشتروها من أهل الذمة ، ولا عن الأراضي التي أسلم أصحابها عليها بعد أن كانوا من هل الذمة . وكتب الى عماله وولاته يأمرهم بتنفيذ ذلك[٦] وأمر أيضاً بأن يحظر على المسلمين شراءأرض أهل الذمة بعد سنة مئة هجرية ، وذلك من أجل أن تبقى هذه الأراضي خراجية ولا تصبح عشرية بانتقالها الى المسلمين ،حتى يضمن بذلك إيراد ثابت لبيت المال[٧] .

سياسته المالية فيما يخص الأرض التي فتحت في عهده :

جميع ما سبق ذكره من معلومات حول صلات عمر بن عبد العزيز المالية، كان يدور حول الأراضي ، التي فتحت في عهد أسلافه من الخلفاء الأمويين . وإنالأرض

٥ـ البلاذري ـ فتوح البلدان ج ٤ ص ٥١٢ .
٦ـ تاريخ الطبري ج ٦ ص ٥٦٩ .
٧ـ تاريخ ابن عساكر ج ١ طبعة دمشق ١٣٢٩ هـ ص ١٨٢ وما بعدها .

التي فتحت في عهده ، أخضعها لإصلاحات جديدة غير تلك التي فتحت في السابق، أو التي لم يثبت سلطان العرب فيها كمنطقة ما وراء النهر والهند وافريقية والأندلس • فالعرب الفاتحون كانوا يتبعون خطة معروفة في حروبهم ، تتلخص في أنهم كانوا يعرضون الاسلام على أهل الأرض المراد فتحها ، فإذا وافقوا على ذلك امتنعوا عن أخذ خراج أو جزية منهم ، وكانوا يعاملونهم كما يعاملون المسلمون • لكن الذي حدث على أرض الواقع ، كان أمراً مختلفاً ، فكثيراً ما خالف الفاتحون العرب هذه الأعراف ، ولم يعملوا بها ، لأن كثيراً من الذين اشتركوا في الفتوحات العربية ، لم يكن اشتراكهم في سبيل نشر الاسلام وإعلاء كلمة الله ، بل كان في سبيل الحصول على المكاسب والمغانم المادية •

ومن هذا الواقع المخزي ، انطلق عمر بن عبد العزيز لتطبيق وجهة نظره القائلة بعدم متابعة هذه الفتوحات وإيقاف الحروب من أجل ذلك • وقد استثنى من هذه الحروب ، تلك التي كانت فعلاً في سبيل الله والحق • لأنه كان يريد أن يدخل الناس في الاسلام بإرادتهم المحضة المعتمدة على القناعة والقبول ، والابتعاد عن وسائل القهر والاجبار والارهاب في سبيل ذلك[٨] •

والحق يقال ، إنه على الرغم من فترة حكم عمر بن عبد العزيز القصيرة ، فقد دخل في الاسلام نتيجة هذه السياسة الطيبة بشر كثيرون ، وبخاصة من الولايات الشرقية كالهند وسواها ، وبلاد المغرب العربي[٩] •

وفي الأندلس اتبع عمر بن عبد العزيز خطة مالية أخرى ، تجسّدت في أن أبقى قسماً من الأرض بيد أصحابها الحقيقيين ، شرط أن يقوموا بدفع خراج أرضهم ، أو نحو ذلك • وأخذ جزءاً منها ووزعه على جند جيشه ، بعد أن اقتطع حصةالدولة الشرعية وهي الخمس ، كون هذه الأراضي غنيمة • وليس بعيداً أنيكون قد أراد من خلال هذه الخطة أن يجعل العرب يتطلعون الى الاستقرار فيها • ولعله استوحى

٨ـ البلاذري فتوح البلدان ج ٥ ص ٦٢٠ •
٩ـ ابن الجوزي ـ سيرة عمر بن عبد العزيز طبعة مصر ١٣٣١ هـ ص ٩٩ ـ ١٠٠ •

خطته هذه من بعض التصرفات المشابهة ، التي قام بها صحابة عمالقة في عملهم وفي نظرتهم الثاقبة للأمور ، أمثال علي وعمر ومعاوية ، الذين أرادوا بأفعالهم هذه تعريب الأقاليم المفتوحة ، ولن يكون ذلك ، أو بالأحرى لن يتحقق الا بتثبيت العناصر العربية في هذه البلاد المفتوحة ، وجعل العرب يشعرون بأن مصالح لهم فيها أصبحت أمراً واقعاً ومهماً في حياتهم •

وأما أعماله في الحجاز واليمن وخراسان ، فقد كانت في غاية الروعة والدقة، تجسدت فيها ارادة حاكم جعل حياته رهناً لمسيرة الحق وتحقيق العدالة بقدر ما يستطيع ، ففي الحجاز قام بإعادة واحة فَدَك الى الشمال من المدينة المنورة الى ورثة فاطمة بنت محمد (ص) بعد أن كان أبو بكر وعمر قد حرما فاطمة منها بحجة أنها ملك للدولة [١٠] كذلك قام باعادة دار بمكة لأصحابها من ورثة طلحة بعد أن كان قد صادرها خلفاء أمويون من قبله[١١] •

وقبله كان والي اليمن محمد بن يوسف قد أساء التصرف، وصادر بعض الأراضي بغير وجه حق ، وفرض على اليمنيين خراجاً جديداً جعله فريضة عليهم ، من واجبهم تأديتها ، فقام عمر بابطال هذه الفريضة وإلغائها[١٢] •

وفي عمان كانت له تجربة طيبة في هذا الميدان ، حيث أمر أن توزع عشور عمان على المحتاجين والفقراء فيها، بعد أن كانت هذه العشور تجمع وترسل الى البصرة[١٣] •

وفعل الشيء نفسه في خراسان ، حيث أمر بتوزيع العشور على الفقراء والمعوزين فيها ، وكان يريد من عمله في هذه الولاية بالذات ، أن يحظى بمحبة ورضا أهلها ، واستقطابهم الى جهته [١٤] •

١٠ـ البلاذري ـ فتوح البلدان ج١ ص ٤٣ـ٤٤ •
١١ـ تاريخ الطبري ج٧ ص ٣٦ •
١٢ـ البلاذري ـ فتوح البلدان ج١ ص ٩٦ •
١٣ـ البلاذري فتوح البلدان ج١ ص ١٠٦ •
١٤ـ تاريخ الطبري ج٦ ص ٥٦٨ـ٥٦٩ •

مسالة توزيع العطاء في عهـده :

يقصـد بالعطاء ، ذلك المقـدار من المال ، الذي كان يوزع على المقاتلـين ، الذين كانوا يقومون بمهمة الحرب والدفاع عن البلاد • ومهما قيـل في طرائـق وأسس توزيع هذا المال ، فانه لا توجد أسس ثابتة سار عليها الخلفاء الأمويـون طوال حكمهم • فكان القادة في المعسكرات ، هم الذين يقولـون توزيـع العطاء وتقسيمه على الجنود ، ولكن ذلك كان يخضع في كثير من الأحيان الى مشيئة القائد ونظرته الى المقاتلين ، حيث كان يلغي من يريد ويحرمه من العطاء ، ويسجل من يريد في سجلات العطاء ويكرمه • وهذا ما جعل كثيرا من الجند يشعرون بالمرارة والحرمان والظلم ، فكانوا يتذمرون ويطالبون القادة باعطائهم حقوقهم ، التي هي حقـوق مشروعة لهم •

وجاء عمر بن عبد العزيز فحسّن صورة الوضع ، فحاول إرضاء الجميع وتلبية مطالبهم ورغباتهم قدر الامكان ، وجعل العطاء للعرب وغير العرب كالموالي ، الذين كانوا يحاربون مع العرب في خراسان ، وكذلك المغاربة في الأندلس والمغـرب • وفرض لعيال المقاتلة وذراريهم ولكل مولود وفطيم حصة من العطـاء ، وكذلـك للفقراء والزمنى والمحتاجين(١٥) •

حرصه على عـرب الأندلس :

كان عمر بن العزيز رحيماً بأبناء دولته ورعيته ، فقد شعر منذ دخل العـرب الأندلس ، بأنهم في خطر ، لأنهم في جزيرة بعيدة تحيط بهم البحار من معظم الجهات، ولا نصير لهم سوى القتال الشديد والتضحية المتميزة ، والصدق في التوجـه ، والتصميم على النصر في كل حين ، فلما تولى الخلافة ، قام بتوليـة شخصـين على المغرب والأندلس كان معجباً بتقواهما وحسن خلقهما ، وهو الرجل الذي عـرف بكرم أخلاقه وشدة تقاه • وهما اسماعيل بن عبد الله ، الـذي ولاه على المغـرب،

١٥ــ تاريخ الطبري ج٦ ص ٥٧٠ •

والسمح بن مالك الخولاني، الذي ولاه على الأندلس وبعث معهما عشرة من رجال التابعين ، لتفقيه أهل افريقية في أمور الدين .

ولما اطمأن عمر بن عبد العزيز الى أن المسلمين في الأندلس ، لا يتعرضون لخطر ما ، كلف السمح بن مالك أن يجدد القنطرة (أي الجسر) على نهر الوادي الكبير ، وأن يخمس الأرض بعد فرض الجبايات على الأراضي بالعدل .

وقام السمح بن مالك بغزوتين وراء جبال البرانس ، كانت الاولى سنة ١٠٠هـ / ٧١٩م وقد فتحت فيها أربونة . أما الثانية فكانت موغلة في أرض الفرنجة الى مدينة تولوز سنة ١٠٢هـ / ٧٢١ م بعد موت عمر بن عبد العزيز . ولكن العرب انهزموا وقتل السمح بن مالك . وتمكن عبد الرحمن الغافقي ، الذي كان واحداً من المقاتلين ، أن يعود بمن بقي من الجنود سالمين الى الاندلس[١٦] .

معاملته للناس وسجاياه ووفاته :

اتهمه بعض الباحثين الغربيين من أمثال فلهاوزن في كتابه (الدولة العربية وسقوطها) أنه كان رجلاً متحمساً لدينه بشكل كبير ، الأمر الذي جعله يقدم على منع شرب الخمر بالنسبة للمسيحيين ، وأنه ألزمهم باعتناق الاسلام ، ومن رفض قام بقتله ، ورفض شهادة المسيحي على المسلم الى غير ذلك من تهم لا حقيقة لها في الواقع ، لأنه كان شخصية مؤمنة يحب الحياة للجميع ، وهو الذي كان يؤمن بأن الناس جميعاً هم مخلوقات الله، ولا سبيل لاقناعهم بالاسلام عن طريق التهديد بالقتل والموت ، لانه هو الذي أبدع هذه السياسة لاول مرة في تاريخ الدولة العربية الاسلامية[١٧] وعلى العكس تماما فقد عامل المسيحيين معاملة طيبة ، بأن ترك لهم حرية العبادة في كنائسهم وكتب بذلك لكل عماله ، وذلك تطبيقاً للشريعة التي جاء بها الاسلام[١٨] مثال ذلك أنه كان بوده أن يرد الى المسيحيين كنيسة

١٦ــ البيان المغرب ج١ ص ٤٨ اخبار مجموعة ص ٢٢ــ٢٣ .
١٧ــ فلهاوزن ــ الدولة العربية وسقوطها ص ٢٨٩ .
١٨ــ تاريخ الطبري ج٦ ص ٤٩٩ .

مار يوحنا ، التي أخذها منهم الوليد بن عبد الملك بغير حق ، على أن يتركوا بالمقابل للمسلمين كنيستهم في باب توما ، التي لا حق لهم بها ، لان شروط الصلح بين الجيش الفاتح لدمشق وسلطان دمشق ، كانت تنص على أن جميع ما فتح عنوة خارج أسوار دمشق فهو للمسلمين ، ولكن المسيحيين رفضوا هذا الامر ، واتفقوا مع المسلمين على أن يتركوا لهم كنيسة مار يوحنا وتبقى لهم كنيسة مار توما مقابل ذلك (١٩) .

وبخصوص تصرفه في فرض الأتاوات ، فقد كان حسناً للغاية ، إذ قام بانقاص ما كان يؤديه أهل قبرص وغيرها كأيلة . وكذلك كتب الى ممثله على ولاية الكوفة عبد الحميد بن عبد الرحمن القرشي ، يأمره بأن يحسن معاملة أهل الذمة ، وأن يحصل منهم الخراج بوسائل لطيفة وانسانية ، وان يضع في الحسبان أمر التفريق بين الاراض المزروعة والاراضي غير المزروعة (٢٠) .

ومنع الولاة من أخذ ما كان يزيد على الخراج ، كالهدايا التي كان يعطيها الناس للولاة والأمراء في الماضي وفي مناسبات معروفة ، كأعياد المهرجان والنيروز ، وما يقدم لصغار العمال في حفلات الزواج وضرائب الجمارك وغير ذلك . كما منع أهل الذمة من بيع أراضيهم الخراجية الى المسلمين حتى لا تصبح عشرية ، وتقل موارد الدولة المالية ، وبذلك وقف في وجه العرب ، وحال دون تسلطهم على أرض الخراج (٢١) .

وفي سيرة عمر بن عبد العزيز الكثير من الصفات النبيلة الجديرة بالتنويه والذكر . فقد كان قبل الخلافة مفرطاً في النعيم . فلما ولي الخلافة انصرف عن الدنيا مرة واحدة ، وأقبل على احياء ما في كتاب الله من الحض على الاعمال الجليلة ، والاقتداء بحياة الرسول العربي الكريم . فزهد في الطعام واللباس ، ورد ما كان يصل اليه من الاموال الى بيت المال ، حتى انه تشوق الى الحج ، فلم يجد معه نفقة الطريق اليه . وكان يهمل أمر نفسه ويحرص على تعجيل قضاء حقوق

١٩ــ تاريخ الطبري ج٦ ص ٥٦٩ .
٢٠ــ ابن عبد الحكم ــ سيرة عمر بن عبد العزيز تحقيق احمد عبيد الطبعة الثالثة دمشق ١٩٦٤ ص ١٦٠ .

الرعية فاغتنى الناس في أيامه ، حتى كان الرجل يطوف بزكاته ، فيما قيل ، بأطراف البلاد ، فلا يجد محتاجا يدفعها اليه .

وكان لا يحب الشعراء فردهم عن بابه ، وجادل الخوارج في آرائهم السياسية والدينية بالتي هي أحسن ، وعفا عمن سبه . وكذلك قطع السب عن علي بن أبي طالب في عقب خطبة الجمعة ، على ما كان قد رسمه معاوية ، ووضع مكان السب الآية القرآنية الكريمة : « ان الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى ، وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي يعظكم لعلكم تذكرون » .

فبتلك السياسة الحكيمة ، وبهذه الأخلاق النبيلة ، عده ابن خلدون من الخلفاء الراشدين ومن طبقة الصحابة . ولكن بني أميّة كرهوا سياسته وأخلاقه وعدله ، وسقوه السم ، لأنهم لم يكونوا من طينته التي جبلت بطهر العروبة والاسلام ، عمل من أجلهما طوال حياته ، التي انتهت سنة ١٠١هـ / ٧٢٠م بدير سمعان . وكانت مدة خلافته سنتين وخمسة أشهر وبضعة أيام . وبوفاته خسرت الأمة فرصة نادرة للعودة الى جادة الخير والصلاح ، ولن تعيش الدولة الاموية بعده طويلاً ، لأن خلفاءها الذين جاؤوا بعده ولم يكونوا على درجة من الاهلية القيادية والأخلاقية ، تمكنهم من قيادة الناس في أصعب الأوقات وأحلكها بالنسبة للدولة الأموية .

الفصل السابع

خلافة يزيد بن عبد الملك (يزيد الثاني)

رجعت الخلافة بعد عمر بن عبد العزيز الى أبناء عبد الملك بن مروان ، فتولاها منهم يزيد وهشام . ويعرف يزيد بن عبد الملك بيزيد الثاني أو يزيد بن عاتكة ، نسبة الى أمه عاتكة ابنة يزيد بن معاوية . وسليمان بن عبد الملك هو الذي كان قد أوصى ، أن تكون الخلافة ليزيد بعد عمر بن عبد العزيز[1] .

وقد كان يزيد بعكس سلفه تماماً ، ففي حين كان عمر بن عبد العزيز رجل جدٍ وطهر ونزاهة ، كان يزيد رائد لهو ومجون وتهافت على اقتراف الموبقات التي لا تليق بحق خليفة للعرب المسلمين ، فقد تسلم الخلافة وهو ابن تسعة وعشرين عاماً ، وظل طوال مدة خلافته رجلاً مستهتراً ، انكب على اللهو في أحضان جاريتين له هما ، حبابة وسلامة ، ثم مات بهما عشقاً ، حتى قيل إن حبابة كانت تولي وتعزل العمال بغير إذنه[2] .

فتنة يزيد بن المهلب :

كان يزيد الثاني قيسي الهوى ، وكان قد تزوج فتاة قريبة للحجاج بن يوسف الثقفي . من أجل ذلك كان كارهاً ليزيد بن المهلب ، الذي كان يمنياً وعدواً لدوداً للحجاج . ولما جاء يزيد بن المهلب والياً على العراق ، من قبل عمر بن عبد العزيز ، أساء معاملة آل الحجاج . ولكن لما تولى يزيد بن عبد الملك الخلافة ، خالفه يزيد بن المهلب وثار عليه[3] .

---

١ ـ تاريخ الطبري ج٦ ص ٥٥٦ .
٢ ـ الاغاني ج١٥ طبعة دار الكتب ص ١٢٢ .
٣ ـ تاريخ الطبري ج٦ ص ٥٦٤ .

ولكن يزيد بن المهلب كان في السجن ، حينما سمع أن الخلافة ستؤول الى يزيد الثاني ، فدبر أمر هربه وذهب الى البصرة ، وتمكن من السيطرة عليها ، وبعد فترة وجيزة ، تمكن ابن المهلب من استقطاب القبائل اليمنية الى جانبه كربيعة والأزد، أما تميم وقيس فقد بقيتا في صف الوالي عدي بن أرطأة الفزاري ، وذلك بسبب العداء الذي كان بين هذه القبائل والقبائل اليمنية . لكن هذا الوضع لم يستمر طويلا بسبب ، أن ابن المهلب أغرى الناس بكرمه وكثرة عطاياه ، بينما لم يتمكن عدي الفزاري من عمل شيء في هذا الاتجاه ، فانفض الناس من حوله ، ولجأ الى قصر الإمارة . لكن ابن المهلب استطاع بعد قليل أن يسيطر على القصر ، واعتقل عدي وأصبح أسيراً لديه ، وصار يحرض على قتال الخليفة وأتباعه ، حيث كان قتالهم برأيه أفضل من قتال الترك والديلم[٤] . وأن يصل الكره الى هذا الحد ، فهذا من الأمور الخطيرة في تاريخنا العربي ، لن نجد مبرراً له مهما كانت الغايات والنيات والتوجهات .

وقد كان الحسن البصري العالم المشهور معاصرا لهذه الأحداث المريرة ، فلم يؤيد ابن المهلب على الرغم من رجحان كفته ، بل ذهب الى القول بصراحة أن خير حلّ بالنسبة لابن المهلب ، هو أن يعود الى السجن الذي كان فيه زمن عمر بن عبد العزيز . ولكن دعوة الحسن البصري بقيت دون تأثير وكأنها لم تكن ، وراح أمر ابن المهلب يسير الى صعود ، فسيطر على مدينة واسط ، ومنها ذهب الى الكوفة للقاء مسلمة بن عبد الملك ، الذي وجهه الخليفة لحربه . وبالفعل فقد تقاتل الاثنان في سنة ١٠٢ هـ/٧٢١ م . وبنتيجة هذا القتال ، الذي وصل الى أشده ، سقط ابن المهلب قتيلاً في المعركة ، وسقط شقيقاه حبيب ومحمد[٥] .

وما تبقى من آل المهلب ، هربوا الى كرمان ، فأرسل مسلمة بن عبد الملك في طلبهم ، فحاولوا الالتجاء الى السند ، ولكن المطاردين لحقوا بهم ، ودافع المهالبة عن أنفسهم دفاعاً بطولياً ، حتى قتلوا عن آخرهم باستثناء عدد قليل ، وأرسلت

---

٤ ــ الطبري ــ ج٦ ص ٥٨٧ .
٥ ــ تاريخ الطبري ج٦ ص ٦٠٠ .

رؤوسهم الى يزيد الثاني ، فأمر بتعليقها على أبواب دمشق وحلب ، وصودرت جميع أموالهم وأملاكهم العامة[٦] .

وبهذه النهاية الحزينة انتهت رحلة أسرة كريمة ، كان لبعض أفرادها شأن عظيم ، حيث شغلوا مناصب عالية المستوى على الصعيد السياسي والعسكري في دولة بني أمية .

بعد ذلك قام يزيد الثاني بتعيين مسلمة بن عبد الملك والياً على العراق وخراسان سنة ١٠٢هـ / ٧٢١م[٧] . لكنه عزله في العام نفسه ، والسبب في ذلك تقصيره في تأدية الخراج عن ولايته . وعين والياً بديلاً جديداً ، هو عمر بن هبيرة الفزاري ، الذي كان يشغل في عهد عمر بن عبد العزيز والي الجزيرة .

العصبية القبلية في عهد يزيد الثاني :

لقد كان الخطر الحقيقي على الدولة الأموية ، منذ أيام يزيد بن عبد الملك ، هو العصبية القبلية . حينما جعلت القبائل العربية من قيسية ويمنية تتنازع وتتقاتل في أنحاء البلاد ، وبخاصة في خراسان . ذلك لأن هذا النزاع قد شغل تلك القبائل عن الفتوح ، ثم عرض الدولة لخطر داخلي هو الاضطراب ، الذي ساعد الموالي المتسترين بالدعوة العلوية على القضاء على الدولة الاموية ذات العصبية العربية . ثم إن نشوب العصبيات ، عرض بلاد الدولة الأموية لأخطار خارجية تتمثل في هجمات الخزر[٨] والروم في المشرق . يضاف الى هذا كله اشتغال الأمويين في المشرق عن توطيد فتوحهم في الأندلس ، مما ترك الأمر هناك فوضى أو كالفوضى .

وقد ظهرت العصبية القبلية في عهد يزيد بن عبد الملك في أكثر من مناسبة ، وفي عهده اكتملت قوة القيسية ، بعد تلك الضربة القاسية التي تلقتها في مرج راهط ،

---

٧ ـ تاريخ الطبري ج٦ ص ٦٠٤ .
٦ ـ تاريخ الطبري ج٦ ص ٦٠٠ وما بعدها .
٨ ـ الخزر قبائل من الترك كانوا يعيشون شمال بحر الخزر (قزوين) في شمال فارس .

فقام بتعيين شخصية قيسية متعصبة لقبيلتها ، هذه الشخصية هي عمر بن هبيرة، قام بتعيينه على العراق وخراسان على الرغم من غضب الكثيرين ، وقد أساء الى قبائل الأزد واليمن بوجه عام ، وبخاصة الى الذين كانوا موجودين في خراسان ، هـذا وقد عدّ القسيون النصر على المهالبة هو نصر لهم .

والحقيقة التي لابد من قولها في هذا الصدد ، أن تأييد يزيد الثاني لاعمال عمر بن هبيرة في العراق وخراسان ، هـذه الأعمال التي تجسّدت بالضغط والظلـم والملاحقة لليمنيين ، لم يكن حسب خطة سياسية معينة اتفق على تنفيذها بشكل أو بأخر ، بقدر ما كان نتيجة عدم تقدير الخليفة للنتائـج التي ستتمخض عنهـا هذه التصرفات الشاذة ، ومن أين له أن يقدر خطورة هذه الاعمال ، وهو الذي لم تتوافر فيه صفة واحدة من صفات السياسيين والقادة المظفرين الذين يعرفـون تحريـك الأمور لمصلحة دولهم وشعوبهم . والدليل على ذلك أن سياسته في الشام ، كانت على خلاف ذلك ، فقد اعتمد على اليمنية اعتمادا كلياً ، حتى إن الجيش الذي أرسله لمقاتلة ابن المهلب كان في معظمه من اليمنية[٩] .

واذا ما أحببنا أن نختم الحديث عن فترة يزيد بن عبد الملـك ، التي كانـت قصيرة ، فاننا نستطيع القول، إنها فترة خلت من المنجزات العسكرية ، باستثناء بعض المعارك غير المهمة ، التي قام بها سعيد الحرشي والي خراسان في سمرقند ، وتلك التي قام بها الجراح بن عبد الله الحكمي في أرمينيا ، وأحرز بعض النجاح في تلـك البلاد البعيدة . وفي الاندلس قتل السمح بن مالك الخولاني ، وتولى آمر الامـر الأندلس بعده عنبسة بن سحيم الكلبي سنة ١٠٣هـ / ٧٢١ م . واستقرت الاحوال قليلا في الاندلس أيام عنبسة ، لكن أحوال المغرب كانت مضطربة ، وقد بدأت فيه النزاعات القبلية .

وكانت وفاة يزيد الثاني سنة ١٠٥هـ / ٧٢٤م بعد حكم دام أربع سـنوات ، وخلفه أخوه هشام بن عبد الملك ،بعد أن قبل نصيحة بعدم تعيين ولده الوليد ، إلا بعد وفاة هشام بن عبد الملك[١٠] .

---

٩ ــ انظر الطبري ج٦ ص ٥٩٧ عبد المنعم ماجد ــ التاريخ السياسي للدولة العربية ج٢ ط٣ ــ ١٩٦٦ ص ٢٧٢ .

١٠ــ تاريخ الطبري ج ٧ص ٢٢ .

الفصل الثامن

خلافة هشام بن عبـد الملك

مر معنا أن يزيد بن عبد الملك ، قد جعل الخلافة من بعده لشقيقه هشام بـن عبد الملك ، ثم لابنه الوليد بن يزيد بعد هشام • كان هشام بن عبد الملك موجـودا في الرصافة القريبة من الرقة ، لما وصلته شـارات الخلافة ، فأقام بالرصافة وتـرك دمشق ، لأن طاعوناً كان ينتشر في أرجائها غداة تسلمه مقاليد الخلافة[1] •

امتاز هشام بن عبد الملك عن أخيه يزيد بالحنكة والسياسة وحسن التصرف في المواقف الصعبة ، وهو فوق كل ذلك رجل جريء في الإقدام على تنفيذ ما يريده ، لكنه لم يكن كثير التدين غير متعلق بشؤون الدنيا وما الى ذلك •

اعتمد في حكمه المديد الى حدٍ ما على العصبية اليمنية ، فعزل عمر بن هبيرة القيسي عن العراق ، ثم ولى مكانه خالد بن عبد الله القسري اليمني • كان ذلك في سنة ١٠٥ هـ/٧٢٤ م • وكان خالد القسري مـن الولاة العظام كزياد بن أبيـه والحجاج بن يوسف[2] •

وعلى الرغم من أن خالد القسري قد قضى في ولاية العراق خمس عشرة سنة ، وهي أطول مدة قضاها والياً في العراق باستثناء الحجاج ، فان خصومه كانوا كثيرين ، لأنه حكم العراق حكماً استبدادياً استغلالياً ، قسـم خيراته بين أهله وأصدقائه •

---

١ ــ تاريخ الطبري ج٧ ص ٢٠١ وما بعدها •
٢ ــ تاريخ الطبري ج٧ ص ٢٦ •

ولكن العراق تمتع في عهده بسلم طويل . وكان خالد متهماً في دينه وفي أخلاقه ، فقد اتهمه الناس بمصاحبة المانوية ، حتى قيل إنه كان زندقياً[٣] .

وقد استهل خالد حياته السياسية في عهد الحجاج بن يوسف ، الذي ساعده عند الوليد بن عبد الملك ، فأرسله والياً على مكة عوضاً عن عمر بن عبد العزيز سنة ٩١ هـ/٧١٠ م . وقد عزل في عهد سليمان بن عبد الملك ، لأنه من رجال ومؤيدي الحجاج بن يوسف ، الذي كان يكرهه سليمان بن عبد الملك كثيراً . واستمر بعد ذلك شخصاً هامشياً مهملاً ، حتى كانت خلافة هشام فأعطاه العراق كما ذكرنا . وفي العراق حاول الابتعاد عن العصبية القبلية ، لكنه لم يتمكن فانغمس فيها وصار يحابي اليمانيين ، فكرهه القيسيون ، وتعاونوا مع المسلمين المتعصبين ، الذين كانوا يكرهونه لأمور تافهة طالما تعلقوا بها لتمرير وتبرير ما يريدون تحقيقه من أهداف ، من ذلك مسألة بنائه كنيسة في الكوفة لوالدته قبالة المسجد ، وتسامحه مع اليهود ، واستعماله لأشخاص ذميين في جباية الأموال والخراج[٤] .

هذه المسائل مجتمعة جعلت من خالد القسري شخصية ، لا يرتاح اليها الناس في العراق ، فكثر المعارضون له والناقمون عليه ، ففسروا بعض أعماله العمرانية ولا سيما في الزراعة والري ، أنها ليست من أجل المصلحة العامة ، بقدر ما هي موجهة لمنافعه ومنافع أسرته وشركائه من المتنفذين ، وقالوا إن الأموال التي كان يصرفها أحياناً لأعمال الخير ، لم تكن من انتاج أملاكه ، بل كانت من بيت المال ، الذي استخدمه بلا حدود لأغراضه ومصالحه الخاصة[٥] .

وقد أدى استمرار الشكوى من أعمال وتصرفات خالد القسري ، الى تغيير الخليفة هشام نحوه ، وبخاصة بعد أن أثاروا في نفس الخليفة مشاعر الخوف والرعب ، مما قد يقع له هو نفسه نتيجة لازدياد سطوة خالد ونفوذه . وقد عزز

---

٣ ـ ماني ، هو مؤسس الديانة الثنوية الفارسية القديمة القائمة على القول بالهين ، اله الخير والنور ، واله الشر والظلمة ، والزنديق هو من يبطن دينا ويعلن اخر .
٤ ـ تاريخ الطبري ج٧ ص ١٣١ .
٥ ـ فلهاوزن ـ الدولة العربية وسقوطها ص ٣٢٠ ـ ٣٢١ .

ذلك عهد الخليفة ، ظهور خالد بمظهر الزعيم الكريم السيد ، وتفوهه بكلمات يُفهم منها استهانته بالخليفة ، فقام بعزله وتعيين يوسف بن عمر الثقفي من أقرباء الحجاج[٦] .

بعد أن عزل ، اقتيد الى سجن الكوفة . وقام الوالي الجديد بنقل مركز اقامته الى مدينة الحيرة بالقرب من الكوفة . وكان هذا التصرف بأمر من الخليفة هشام ، الذي برره وسوغه بحجة أن يتجاور الشاميون مع الكوفيين في بلد واحد.

وفي سنة ١٢٠هـ/٧٣٨ م أطلق سراح خالد بأمر من هشام بن عبد الملك بعد سجن دام ثمانية عشر شهراً ، فلجأ الى بلدة بالقرب من الرصافة حيث كانت إقامة هشام ، وبذل عدة محاولات لمقابلة الخليفة ، لكن الخليفة لم يوافق ، على الرغم من تدخل مستشاره الأبرش الكلبي ، الذي كان هشام يثق به كثيراً . وفي سنة ١٢٢ هـ/٧٤٠م غادر خالد مكان اقامته بالقرب من الرصافة ، ونزل دمشق .

لكن والي العراق يوسف بن عمر ، ظل يلح على الخليفة أن يسمح له بملاحقة خالد ومحاسبته على أمواله ،ونجح في أخذ يزيد بن خالد لانه كان قد هرب من السجن . وقد ساعد يوسف في موقفه هذا صاحب شرطة دمشق كلثوم بن عياض القشيري ، فدبر تهمة وألصقها بخالد وأولاده ومواليه ، وهي اتهامه بمحاولة السطو على بيت المال ، بعد إشعال النار في بعض بيوت دمشق ، في وقت كانت الدولة مشغولة بحرب الروم. وصدق الخليفة التهمة ، لان صاحب الشرطة هذا هو ابن عم خالد ، ولا يمكن لابن عم أن يتهم ابن عمه زوراً وظلماً . فكتب هشام الى كلثوم يأمره بسجن خالد . لكنه لم يمض وقت طويل حتى كشفت الحقائق ، وأن خالد بريء من كل ما نسب اليه . ومنذ ذلك الوقت امتنع هشام بعدم تصديق آية تهمة ضد خالد ،لانه كان يندم بعد كل عقوبة كان ينزلها بخالد ، فسمح له بالإقامة بدمشق وعدم قبول أية دسيسة ضده[٧] .

---

٦ ـ تاريخ الطبري ج٧ ص ١٤٧ وما بعدها .

٧ ـ تاريخ الطبري ج٧ ص ٢٥٤ .

الدعـوة العباسية في عهـد هشام :

من المعروف أن سياسة الأمويين كانت مبنية على العصبية العربية الخالصة ، وكان الموالي (المسلمون من غير العرب) من الترك والفرس يلقون من تلك السياسة عنتاً كبيراً • ولكن استبداد الامويين كان شديداً وحكمهم كان قاسيا ، فلم يتمكن الموالي من التحرك قبل فترة عمر بن عبد العزيز ، الذي كان متساهلاً جداً كما رأينا ، وعادلا عدلاً لم يرض عنه بنو أمية • ثم جاء يزيد بن عبد الملك ، وكان مشغولا عن قيادة الدولة بشهواته ورغباته الشخصية • فلما جاء هشام كان أولئك الموالي قد استفحل أمرهم ، فظهروا على مسرح المعارضة والحرب •

لكن الأبحاث الحديثة وصلت الى حقائق ثابتة ، تقول إن الموالي لم يشكلوا كل المعارضة التي نجحت في انهاء الخلافة الاموية ، بل شاركهم العرب ، ولا سيما الموجودن منهم في الولايات الشرقية، في هذا الامر • وحتى تكون هذه المعارضة مقبولة على الصعيد العام ، تبنى أصحابها المطالب العلوية ، التي كانت تنادي بوجوب تسليم الخلافة الى آل علي ، لأن الموالي بحسب نظريات السياسة في العصور الوسطى ، لا يحق لهم المطالبة بالحكم لانفسهم من دون العرب • وكان لهؤلاء المعارضين عدة مراكز أهمها ، مركز قرب الكوفة في العراق ، ومركز في خراسان، تنشر منهما تعاليم المعارضة بالسر والعلن ، وتعد فيهما الجيوش ، التي ستنقض على الحكم الاموي في الوقت المناسب •

وفي مراحل هذه المعارضة الأخيرة ، تمكن بنو العباس من مناقشة أبناء عمهم العلويين في طلب الخلافة ، ولكنهم آثروا ألا يدعوا لأنفسهم بشكل مباشر ، لأن الموالي كانوا قد ألقوا قيادهم الى دعاة العلويين مرة واحدة ، ففضل بنو العباس أن ينالوا بالدهاء ما أيقنوا أنهم عاجزون عن نيله بالقوة والغلبة • وهكذا تستروا وراء الدعوة (للرضا من آل محمد) ثم استغلوا في ذلك وجاهة العلويين عند الناس كافة • كان المفهوم من الدعوة (للرضا من آل محمد) نقل الخلافة الى بني علي بن أبي طالب ، ذلك لان الذين قاوموا الأمويين على مدى قرن كامل من الدهر،

واستشهدوا في سبيل ذلك ، كانوا علياً وأبناءه . ولكن العباسيين كانوا يضمرون أن يستبدوا بالخلافة ، حينما تظفر تلك الدعوة .

وقد أبدى العباسيون براعة في سبيل دعوتهم (للرضا من آل محمد) فقد بثوها في خراسان مستغلين نقمة الفرس والترك على الأمويين ، ذلك لان سياسة الامويين تقوم على تقديم العرب في الولاية والحكم على غير العرب .

اتخذ العباسيون من الحميمة في جنوب الأردن مركزاً سرياً لدعوتهم ، ذلك لأن الحميمة كانت على طريق الحج ، وكان باستطاعتهم من أجل مصالح الدعوة ، أن يتصلوا بالحجاج القادمين من مختلف البلاد . وفي سنة ١٠٠هـ/٧١٨م وجه محمد بن علي بن عبد الله بن عباس من الحميمة دعاة الى العراق وخراسان وأمر بنشر الدعوة ، فانبث الدعاة يعملون بين الفرس والترك والموالي بضعة عشر عاماً .

وقد حاول الخلفاء الامويون محاربة الدعاة عن طريق السجن والملاحقة والقتل وتبديل الولاة ، لكنهم لم ينجحوا في ذلك . وفي سنة ١١٦هـ/٧٣٤م قام أحد الدعاة بخلع هشام ووالي خراسان . فأدرك هشام بن عبد الملك حجم الخطر ، فعزل عاصم بن عبد الله عن خراسان، وضمها الى والي العراق خالد بن عبد الله القسري، وهكذا بدأت سلسلة من عزل الولاة ، حتى ولي نصر بن سيار آمر العراق وخراسان ، وعلى الرغم من أنه كان من أعظم الولاة وأحزمهم ، فانه فشل في الحد من انتشار الدعوة ، وسبب ذلك على ما يبدو ، أنه في ذلك الوقت ، كان أمر بني امية قد اضطرب اضطرابا شديداً ، فلم يبق بامكان أحد ان يمنع سقوط الدولة الاموية ، وان كان بإمكان نفر من القادة المخلصين الحازمين أن يؤخروا ذلك السقوط حيناً من الدهر .

في هذا الوقت قيّض الله لدعاة بني العباس شاباً فارسياً ، هو أبو مسلم الخراساني ، فأرسله ابراهيم بن محمد بن علي إمام الدعوة العباسية آنذاك الى خراسان ليساعد الدعاة . واليه يرجع الفضل في بث الدعوة العباسية ومقاومة ولاة الأمويين والتغلب عليهم ، والى اجتناء ثمرة الدعوة العلوية وصرف الخلافة من العلويين الى العباسيين .

حـركة زيـد بن عـلي :

كان زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب من عظماء آل بيت رسول الله (ص) وكان يحدث نفسه بالخلافة ويطمح اليها • ويبدو أن طموحه الى الخلافة اشتهر ، فترك العراق ليتوجه الى المدينة ويعتزل فيهـا ، ويختفي عـن عيـون الأمويين • ولكن أهل الكوفة جاءوا اليه يشجعونه على الخروج والتمرد على بنـي أمية ، ووعدوه بأن ينصروه برجالهم وقوتهم • ثم حضر اليه أنصار علي من المدائن والبصرة وواسط والموصل وخراسان والري وجرجان وغيرها ، حتى اجتمع حوله خمسة عشر ألف رجل ، فأعلن الخروج على الأمويين • فسار اليه يوسف بن عمر أمير الكوفة وقاتله قتالاً شديداً في عدة مواقع • وقد سئل خلال الحرب عـن سبب قتاله هذا ، فقال إن السبب في ذلك ، أني أحببت مقاتلة الأمويين لأنهم قاتلوا جدي الحسين وقتلوه ، وأغاروا على المدينة المنورة يوم الحرة ، ثم رموا بيت الله (الكعبة) بالمنجنيق والنار[٨] •

وبعد أن انفض عنه أنصاره على عادتهم مع أجداده ، عزم على القتال في نحـو مئتي جندي ، وقتل في النهاية بعد أن أصابه سهم سنة ١٢٢ هـ/٧٤٠ م واجتز رأسه وأرسل الى دمشق ، حيث عرض لفترة من الزمن ، أُرسل بعـدها الى المدينـة المنورة ، حيث بقي معلقاً حتى مات هشام بن عبد الملك[٩] •

واستطاع ابنه يحيى الذي كان صغيراً ، أن يفـر الى خراسان فأقام في بلـخ متخفياً عدة سنوات ، ولكنه كشف في سنة ١٢٥ هـ وقتل في خلافة الوليد بن يزيد كما سيمر معنا في الفقرات التالية •

وعلى الرغم من فشل هذه الحركة كسابقاتها من حركات آل بيت رسول الله ضد الأمويين ، فانها عملت بشكل أو بآخر على مساعدة الدعوة العباسية ، حيث قام

---

٨ ــ تاريخ الطبري ج٧ ص ١٦٦ وما بعدها . اليعقوبي ج٢ ص٣٢٥ •
٩ ــ مقاتل الطالبيين ص ١٤٠ وما بعدها ــ اليعقوبي ٢٩٠ صـ ٣٢٦ تاريـخ الطبري ج٧ ص ١٨٠ •

أبو مسلم الخراساني بالتحريض على الانتقام لزيد وأصحابه من الأمويين . ولما تسلم الوليد الثاني مقاليد الحكم ، أرسل لوالي خراسان أن يعامل يحيى بن زيد معاملة جميلة ، بعد أن كان قد سجنه وأمر بإطلاق سراحه ، ولكن يحيى أعلن معارضته للأمويين في خراسان ، فقتله جند نصر بن سيار[١٠] .

ولابد أن هذه الحركات على صغرها وعفويتها ، فانها أدت الى الإسراع بانجاز نعش الأمويين وانتهاء أسطورتهم في الحياة السياسية ، لأنها ساعدت على استقطاب المعارضين لهذه الدولة ، بعدها انتشرت مفاسد الخلفاء والولاة الأمويين في كل أجزاء الدولة ، في خراسان وفي منطقة ما وراء النهر وفي الهند ، وفي مصر حيث أساء العمال الأمويين معاملة الأقباط ، وبخاصة في مجال جباية الضرائب[١١] .

العمليات العسكرية في زمن هشام بن عبد الملك :

لم تقتصر همة هشام على الصعيد الداخلي فحسب ، بل نراه يتطلع الى الخارج سواء كان ذلك في نواحي الغرب والشرق ، فقام بعدة حملات عسكرية بعد أن كانت قد توقفت منذ عهد عمر بن عبد العزيز .

١ ـ في المغرب والأندلس :

في أواخر سنة ١٠٥ هـ/٧٣٤ م قطع عنبسة بن سحيم جبال البرانس ، واستقر حيناً في أربونة حتى أتم تحصينها ثم شحنها بالرجال والعتاد . اتجه بعد ذلك غرباً نحو مدينة قرقشونة على نهر الأود . وحاصرها فصالحه أهلها على جزية وعلى أن يحاربوا من حاربه ، ويسالموا من سالمه . ثم صعد بعد ذلك نهر الرون حتى وصل الى منطقة لوكسوي الفرنسية ، وهي أبعد نقطة وصل اليها العرب في فرنسة[١٢] .

وفي سنة ١١٢ هـ/٧٣٠ م تولى عبد الرحمن الغافقي على الأندلس للمرة الثانية

---

١٠ ـ مقاتل الطالبيين ص ١٥٧ وما بعدها .
١١ ـ انظر دينيت ص ١١٥ .
١٢ ـ البيان المغرب ج١ ص ٤٨ ابن الاثير الكامل ج٥ ص ٦٥ .

وفي العام التالي أرسل غزوة الى بلاد الفرنجة بقيادة عثمان بن أبي نسعة وأمره أن يشتبك مع العدو ، حتى يكون هو قد أطل بمعظم جيشه •

وفي السنة التي تلت ١١٤هـ / ٧٣٣م قطع عبد الرحمن الغافقي جبال البرانس متجهاً نحو بوردو ، وحاول أود ملك أكويتانية في جنوب فرنسة أن يصد عبد الرحمن ، ولكنه انهزم في المعركة ، التي وقعت بينهما •

بعد ذلك توجه عبد الرحمن الى مدينة بوردو ، وأخذها عنوة ، ثم اندفع بجيشه شمالاً حتى مر بمدينة بواتييه قاصداً مدينة تور • فلم يجد أود مفراً من الاستنجاد بخصمه شارل مارتل مفضلاً أن يجتاح الفرنجة بلاده ، على أن ينتزعها منه العرب ، وبخاصة بعد أن رأى أن أهل المدن التي كان العرب قد استقروا فيها حينا مثل أربونة وقرقشونة قد بدأوا يتعاونون مع العرب (١٣) •

استجاب شارل مارتل لنداء أود خوفاً من التوسع العربي ، واستدعى جموعه من كل صوب ، وحدث الصدام الاول بين طلائع الجيش العربي والجيش الفرنجي فارتدت تلك الطلائع جنوباً راجعة نحو بواتييه ، حيث أراد العرب ان يصمدوا المجموع الفرنجية ، ثم كانت المعركة الفاصلة على نحو عشرين كيلومترا من بواتييه• واستمرت هذه المعركة بضعة أيام ، أطلت الهزيمة على الجيش العربي في نهايتها ، وقتل عبد الرحمن الغافقي ، ومعه كثيرون من وجوه القوم ، ودعيت هذه المعركة معركة بلاط الشهداء (١٤) • كانت هذه المعركة فاصلة في تاريخ الحرب وفي تاريخ الحضارة ، لعدة أسباب في غاية الاهمية منها ، أن العرب لم يغادروا جميع الأراضي التي كانت تحت أيديهم فيفرنسة ، ولكن حملة عبد الرحمن الغافقي كانت اخر محاولة جدية قام بها العرب باتجاه بلاد الفرنجة • وأنه بنتيجة هذه المعركة قد أصبح شارل مارتل بطلاً أوروبياً ، وكان اسمه قبل المعركة شارل فأصبح بعدها شارل مارتل (أي المطرقة) • ولأن الأوروبيين يعدون هذه المعركة رمزاً للانتصار

١٣ــ البيان المغرب ج٢ ص ٢٨ ابن الاثير الكامل ج٥ ص ٢٣٢ •
١٤ــ أخبار مجموعة ص ٢٤ــ٢٥ ــ البيان المغرب ج٢ ص ٢٨ ابن عبد الحكم فتوح مصر ص ٢١٧ •

الديني والسياسي فقد ظلت فرنسة منذ ذلك الحين المركز الذي خرجت منه معظم الحركات والجيوش لقتال العرب • ثم إن هذه المعركة قد دلت على أن القوة العسكرية في الاندلس ، كانت قد وصلت الى حتفها ، فلم يبق في مقدور العرب المسلمين في المغرب كله أن يجيشوا الجيوش بشكل يمكنهم من التغلب على أوروبا، التي تستخدم جموع البرابرة المتدفقين على أوروبة من شرقها وشمالها لقتال العرب، ثم ان هذه المعركة أثرت بشكل قوي في التلاقح الحضاري ، فقد أخرت انتقال الحضارة العربية الى أوروبا سنين طويلة ، حتى عادت فاحتكت بالعرب في ميادين الحروب الصليبية وغيرها بعد ثلاثمئة وخمسين سنة •

الأحداث الأخرى في المغرب والأندلس في عهد هشام :

كانت صلة الأندلس بدمشق تختلف باختلاف الخلفاء الأمويين فقد كانت الأندلس أحياناً تابعة لدمشق ، فكان الخليفة يعين لها الولاة كما كان في أيام عمر بن عبد العزيز على سبيل المثال ، وكانت أحياناً أخرى تابعة لمصر أو للمغرب ، وفي بعض الاحيان كان عرب الأندلس هم الذين يختارون الولاة •

فمن الذين حكموا المغرب والأندلس في وقت واحد ، عبيدة بن عبد الرحمن السلمي (١٠٧ ــ ١١٥ هـ) فلما علم باستشهاد عبد الرحمن الغافقي ولى على الأندلس عبد الملك بن قطن الفهري (١١٤ ــ ١١٥هـ) وكان من حزب أهل المدينة غير محب لبني أمية، ووصف بجوره وظلمه وتعسفه[١٥] •

ولما أضيفت الأندلس الى ولاية عبيد الله بن الحبحاب (١١٥ هـ) ، وقد كان من قبل والياً على مصر وافريقية والمغرب بوقت واحد ، عزل عبد الملك بن قطن عن الأندلس ، وعين عقبةبن الحجاج ، الذي كان يتصف بالرفق والعدل وحسن السيرة• وفي عهده فتحت أربونة وبنبلونة ومقاطعة ألبة •

١٥ــ البيان المغرب ج٢ ص ٢٨ نفح الصليب ج١ ص ١٤٦ ج٢ ص ١١ اخبار مجموعة ص ٢٥ .

وأرسل عبيد الله بن الحبحاب جيوشه الى السودان الغربي ، والى جزيرة صقلية ، وأحرزت هذه الجيوش الانتصارات .

حركة ميسرة المتغري في المغرب زمن هشام :

تُعد هذه الحركة من أخطر ما واجهه حكم هشام بن عبد الملك في المغرب، ذلك لانها واحدة من الانفجارات القوية ، التي تمخضت عن موجة الظلم والتعسف، التي مارسها الأمويون في المغرب . فلما انهزم الخوارج في المشرق ، هرب بعضهم الى المغرب ، فبدأت دعوة الصفرية والإباضية بالانتشار فيه شيئاً فشيئاً . وقد تقبل ميسرة المتغري المعروف بالحقير ، وهو مغربي من قبائل البتر دعوة الخوارج الصفرية ، وقاتل عبيد الله بن الحبحاب وولاته في المغرب ، وقتل بعضهم . وأرسل ابن الحبحاب جيشاً كبيراً لقي ميسرة على وادي الشليف ، على مقربة من تاهرت في الجزائر ، وبعد قتال شديد غير حاسم ((وإن كانت قد رجحت فيه كفة ميسرة)) انسحب ميسرة خوفاً من الهزيمة ، من أجل ذلك قتله أتباعه وولوا على أنفسهم خالد بن حميد الزناتي ، ثم عادوا الى قتال جيش ابن الحبحاب من جديد على وادي الشلف نفسه ، فانهزم جيش ابن الحبحاب وقتل في المعركة عدد كبير من أشراف العرب وأنجادهم وأبطالهم ، فسميت تلك الموقعة ((موقعة الأشراف)) وبذلك قام المغرب كله على ابن الحبحاب[١٦] .

وصل خبر هذه الحركة الى الأندلس ، فقام المغاربة الموجودون فيها على واليها عقبة بن الحجاج بقيادة عبد الملك بن قطن والي الأندلس السابق ، ونجح عبد الملك في إقصاء عقبة وتنصيب نفسه والياً برضا أهلها في سنة ١٢٣هـ / ٧٤١ م .

واتسعت الحركة في المغرب وخلع المغاربة عبيد الله بن الحبحاب ، فأرسل هشام بن عبد الملك الى المغرب جيشاً في نحو ثلاثين ألف بقيادة كلثوم بن عياض القشيري ، الذي كان رجلاً كبير السن ، فعهد هشام الى الجيش بأنه اذا حدث بكلثوم حادث فالأمير بعده ابن أخيه بلج بن بشر القشيري ، فان أُصيب فالأمير بعده ثعلبة بن سلامة الجذامي .

١٦ـ البيان المغرب ج١ ص ٥٢ وما بعدها فتوح مصر ص ٢١٨ .

وبالفعل فقد وصل الجيش الى المغرب في سنة ١٢٣هـ / ٧٤١ م • ولم يكن كلثوم وبلج من ذوي المقدرة والحنكة والامن ذوي الحلم ، فزادا في الإساءة الى المغاربة • ثم التقى الجيش الخلافي المعارضين المغاربة على نهرسبو في السنة المذكورة وانهزم جيش الخلافة وقتل كلثوم ، فانسحب ما تبقى من الجيش بقيادة بلج بن بشر الى منطقة سبتة ، وحوصروا فيها ، حتى ألح عليهم الجوع حتى أكلوا دوابهـم • وفي أثناء الحصار اتصل بلج بن بشر بعبد الملك بن قطن ، وطلب منه بعض المؤونـة وعدداً من المراكب يجوزون عليها الى الأندلس ، ولكن عبد الملك خاف على ولايته في الأندلس من بلج وجماعته ، فلم يرسل لهم شيئاً مما طلبوا ، لكن الاضطراب في الأندلس كان قد بلغ أشده ، فخشي عبد الملك بن قطن على عرشـه من المغاربـة ، فلجأ الى بلج وأصحابهفاستدعاهم الى الأندلس ، بعد أن شرط عليهم أن يمكثوا في الأندلس عاماً واحداً ، وأخذ على ذلك رهائن من جيش بلج ودخل بلج الأندلس مع جماعته من أهل الشام، وتمكن من إنقاذ وضع الوالي في الأندلس(١٧) •

بعد ذلك قام هشام بن عبد الملك بارسال نجدة جديدة الى المغرب بقيـادة حنظلة بن صفوان والي مصر ، وما كاد حنظلة يصل الى القيروان حتى ثار عليـه الخوارج الصفرية ، ولكن حنظلة تمكن أن يهزم الخوارج في معركتين بالقرب مـن مدينة القيروان في سنة ١٢٤هـ / ٧٤٢ م(١٨) •

أما في الأندلس ، فقد قـام عبد الملك بن قطن باقطاع بلج وأصحابه أرضـاً في نواحي قرطبة ليسكنوها ريثما يحل موعد مغادرتهـم للاندلس ، وقـد عرف أصحاب بلج في الأندلس باسم الشاميين تمييزاً لهم من العرب، الذين كانوا قد جاءوا مع طارق وموسى بن نصير ، والذين كانوا يعرفون بالبلديين لتبلدهم وطول مكثهم في الأندلس(١٩) ولما مر عام على وجود بلج وأصحابه في الأندلس ، دخلوا مرحلة التمكن والقوة ، فرفضوا أن يغادروا الأندلس، ثم خلعوا عبد الملك بن قطن، وولوا

١٧- اخبار مجموعة ص ٣٠-٣١ البيان المغرب ج١ ص ٥٤ وما بعدها .
١٨- فتوح مصر ص٢١٩-٢٢٢ اخبار مجموعة ٣٦-٣٧ البيـان المغـرب ج١ ص ٥٨ - ٥٩ .

على أنفسهم أميرهم بلج بن بشر ، ودخل بلج قصر قرطبة في سنة ١٢٤ هـ / ٧٤٢ م وقتل عبد الملك بن قطن وهو في عمر التسعين[١٩] .

وبعد موت بلج تولى على الأندلس ثعلبة بن سلامة ، فضبط الأمور ولكنه اتبع سياسة عصبية يمنية ففسد أمره بسرعة ، ثم قام عليه المغاربة في مدينة ماردة ، وكذلك البلديون ، فهزمهم وأفشى فيهم القتل ، وأسر منهم عدداً كبيراً ، وقد أساء معاملة الأسرى ، فباع قسماً منهم بطريقة فخرية ، ثم قتل قسماً آخر .

وبذلك تكون سلطة الدولة الأموية ، قد بلغت في أيام هشام بن عبد الملك أقصى اتساعها ، فقد امتدت من شاطىء المحيط الأطلسي الى كاشغر على حدود الصين ، وهو امتداد لم تبلغه دولة في العصور القديمة ولا في العصور الحديثة ، يضاف الى ذلك أن بلاد الدولة العربية قد نشرت ثقافتها كاملة في كل مكان نشرت ظلالها عليه .

حروب هشام في الجبهات الأخرى :

لم تكن جبهة المغرب وحدها ، هي التي شغلت هشام بن عبد الملك ، بل تراه يلتفت الى جبهة الروم والترك وغيرهم . ففي الجبهة البيزنطية بادر منذ الأيام الأولى لحكمه لمشاغلة البيزنطيين بعد توقف للحروب في أواخر القرن الأول الهجري أوائل القرن الثامن الميلادي ، وقد استهل عمله في هذا الميدان في بناء الحصون والأماكن الدفاعية الأخرى ، ثم أعقب ذلك غزوات صيفية متعددة ، قادها ولداه معاوية وسليمان اللذان تميزا بالشجاعة والبأس والإقدام[٢٠] .

وبصورة عامة فان حروب هشام على هذه الجبهة،لم تسفر عن نتيجة حاسمةلكلا الطرفين . فالعرب كانوا يغزون في فصل الصيف ، وإذا حصل وسيطروا على منطقة ما ، فانهم كانوا يغادرونها عند حلول الشتاء،. أما الروم فقد حققوا بعض الانتصارات على العرب في سنة ١٢٢هـ/٧٤٠م حيث قضوا على جيش عربي عند موقع أكرونيون قرب عمورية ، وهي الموقع الذي سقط فيه البطل العربي عبد الله البطال شهيداً .

وفي الجبهة الشمالية الشرقية حيث كانت شعوب الترك وراء بحر الخزر،تعثرت

---

١٩ ــ البيان المغرب ج١ ص ٥٦ ابن الاثير ج٥ ص ١١٧ .
٢٠ــ البلاذري ــ فتوح البلدان ج٢ ص ٢٢٨ــ٢٢٩ تاريخ الطبري ج٧ ص ٩٠ .

مسيرة العرب الى حد كبير ، ففي سنة ١١٢هـ/٧٣١م هُزم العرب هزيمة كبيرة أمام الترك ، وتحسنت الأحوال فيما بعد على يد مسلمة بن عبد الملك ومروان بن محمد .

وفي منطقة ماوراء النهر ، كانت الحروب شبه مستمرة مع السكان المحليين بسبب المعاملة السيئة ، التي كان يعاملهم بها العرب هناك ، وبخاصة أن العرب كانوا بعد عمر بن عبد العزيز ، يأخذون الجزية عن أولئك الذين أعلنوا اسلامهم . وفي الفترة الأخيرة راح العرب هناك يتعاونون مع السكان المحليين، وربما كان ذلك بفعل تأثير الدعاة العباسيين[٢١] وعندما تفاقمت الأمور في هذه المنطقة قام هشام بن عبد الملك بتعيين نصر بن سيار ، وهو من الرجال الذين كانت الأيام قد صقلتهم وعلمتهم التجارب ، وقد عين والياً لخراسان برمتها[٢٢] وقد نجح هشام في هذا التعيين ، لأن نصر بن سيار لم يكن له عصبية في هذا الإقليم ، فحتى تستقيم له الأمور ، كان لابد له من اتباع طريق النزاهة والعدل بين الجميع ، وهذا مافعله .

نهـاية هشام بن عبد الملك :

توفي هشام بن عبد الملك سنة ١٢٥هـ/٧٤٣م وترك وراءه بلاداً واسعة الأرجاء، ولكن الدولة الأموية كانت ، بما تنازعها من عوامل الضعف ، قد أشرفت على السقوط . وكانت وفاته في بلدة الرصافة ، التي قضى فيها معظم حياته السياسية [٢٣] .

وقد تحدث المؤرخون كثيراً عن صفاته الجسمية والأخلاقية ، فقالوا إنه لم يكن جميلاً ، وقيل إنه كان أحول العينين . أما من الناحية الاخلاقية ، فقد وصف بالتقوى وحسن السيرة والدين ، وقرب بعض المحدثين والفقهاء من أمثال الزهري وأبي الزناد ، أضف الى ذلك أنه كان متيقظاً لأمور دولته السياسية العامة . وقد تقرب الى المسيحيين ولم يكن متعصباً ضدهم ، حتى أنه سمح لمسيحيي انطاكية بأن يعينوا شخصاً لشغل كرسي بطريركية انطاكية بعد أن كانوا قد حرموا من ذلك مدة طويلة ، وقد عين لهذا المنصب في زمانه الراهب استيفانوس ، ويسميه العرب أصطفان[٢٤] .

٢١ـ تاريخ الطبري ج٧ ص ١٢٥ـ١٢٦ .
٢٢ـ تاريخ الطبري ج٧ ص ١٥٤ .
٢٣ـ تاريخ الطبري ج٧ ص ٢٠٠ .
٢٤ـ فلهاوزن ص ٣٣٤ـ٣٣٥ .

وعلى الرغم من محاولاته المستمرة لكبح جماح العصبية القبلية ، فانه لم يتمكن من عمل شيء في طريق الغاء العصبية نهائياً ، ذلك لأنها كانت قد تأصلت وترسخت في نفوس النـاس •

لكن الصفة التي ميزته عن غيره من الخلفاء ، هي أنه كان يرفض مقابلة النـاس والاتصال بهم ، وكان الأبرش الكلبي هو صلة الوصل بينه وبين الناس ، وقد اتهمه الناس أنه هرب الى الرصافة من أجل عدم ملاقاة الناس والاتصال ، لكن ذلك لم يكن صحيحاً ، لأن معظم الأمويين فضلوا سكنى البادية على سكنى المدن المتحضرة•

وقد اتهم هشام بن عبد الملك بتكديس الأموال لحسابه الخاص ، والغنى علـى حساب المصلحة العامة ،وربما كان مصدر هذه التهمة أولئك الذين حرمهم من العطاء وهم من غير المقاتلة ، حيث كانوا قبله يشاركون المقاتلة في العطاء ، أما هشام فقـد قرر أن لايوزع العطاء إلا على المقاتلة تحديداً •

لكن هشاماً من جهة أخرى ، كان يمتلك شيئاً كثيراً من الضياع والأراضـي الزراعية ، وكان ينافسه في ذلك واليه خالد القسري حتى قيل ان هشاماً كان يمنـع خالداً من تسويق غلاله قبل غلال الخليفة(٢٥) •

ومهما يكن من أمر ، فقد كان هشام بن عبـد الملك رجـلاً محباً لجمع المال والثروة والتركيز على مصالحه الخاصة ، ولم يلتفت كثيراً إلى شؤون الناس ، وإلا لما كان المؤرخون قد حملوا عليه بحـدة وقسوة ، واتهموه بأبشـع التهـم بعكس المصلحين ، الذين مثلهم بقوة ووضوح في العصر الخليفة عمر بن عبد العزيز ، الذي لم يذكـره مؤرخ إلا ووصفه بصفات طيبة ، تفوح منها روائح الصـدق والأمـان والطهارة والتقشف والسعي الصادق لتحقيق مصالح الرعية على مختلف الصعد•

٢٥ــ فلهاوزن ص ٣٣٦ــ٣٣٧ •

الفصل التاسع

خلافة الوليد الثاني ويزيد الثالث

كان الوليد الثاني ، أي الوليد بن يزيد بن عبد الملك من فتيان بني أمية وظرفائهم وشجعانهم وأشدائهم ، وكان منكباً على اللهو والشراب وسماع الغناء، وكان شاعراً محسناً . وقد بلغ من قصر نظره في تلك الحقبة المضطربة من تاريخ الأسرة الأموية ، أنه أقصى اليمانية عن مناصبهم ، وملأ مكانهم بالقيسية[1] .

وقد جاء الى الخلافة بموجب وصية يزيد بن عبد الملك ، التي عهد فيها بالخلافة الى أخيه هشام بأن يكون ابنه الوليد صاحب الحق في العرش بعد عمه هشام . وقد نشأ في بلاط عمه هشام ، الذي عامله معاملة قاسية ، لأنه كان يشكل عقبة أمامه بخصوص مسألة نقل ولاية العهد إذا أراد ذلك ، ويقال ، إنه هو الذي شجعه على سلوك مسلك اللهو والمجون والفسق ، آملاً في أن لايلجأ الى المطالبة في الحكم ، وكان يشوه سمعته وصورته في كل محفل وفي كل مناسبة[2] .

ومن حسن حظ الوليد الثاني ، أن معاوية بن هشام توفي على حين غرة ، فتبخرت أحلام هشام ، وبدا واضحاً أنه لن يتمكن من تقديم بديل مناسب ينوب مناب الوليد ، فانكب على إصلاح الوليد ، لكن ذلك لم ينفع معه شيئاً ، لأن شخصيته كانت قد تبلورت ، فنشأت مشاحنات كثيرة بين هشام والوليد ، حتى إن بعض المصلحين أشاروا على هشام باستبدال الوليد وإبعاده عن ولاية العهد ، وبدأت الضغوط تتعالى على الوليد من قبل هشام ، فترك القصر وراح يعيش على سجيته، وزاد في تحرج أموره وفاة مسلمة بن عبد الملك، الذي كان يقوم بحمايته ورعاية[3]

١ ــ الأغاني ج٧ ص٢ .
٢ ــ الأغاني ج٧ ص٢ وما بعدها .
٣ ــ الأغاني ج٧ ص ٦٠ .

فهرب من الرصافة وانطلق الى مكان بعيد عن المراقبة في فلسطين هو موقع الأزرق[٤] وراح يمارس هوايته في اللهو والمجون.

وخلال إقامته في هذا الموقع ، كان يتسقط أخبار موت عمه هشام ، لأنه على مايبدو كان يريد أن يضع حداً لأيام محنته المفروضة عليه . وبعد انتظار طويل،أطل عليه الفرج بموت هشام بن عبد الملك ، ولشدة فرحه بذلك ، أقام لأصحابه المرافقين له حفلة شراب كبرى[٥] وكان عياض بن مسلم كاتب الوليد في السجن عشية وفاة الخليفة ، فلما علم بموته غادر السجن وجاء الى القصر فختم خزائن هشام بما فيها، ورفض تقديم أية مساعدة لتشييع جثمان الخليفة[٦] .

قام عياض بعد ذلك بإرسال شارات الخلافة الى الوليد ، وأخبره بكل ماقام به من أعمال . ولما وصله الخبر ترك مستقره في منطقة الأزرق ، وتوجه الى دمشق ، فأمر بمصادرة أملاك هشام ومعاملة أولاده أشنع معاملة[٧] وزاد في أعطيات وأرزاق الناس ، حتى يظهر نفسه بأنه أفضل من هشام عمه ، وانتقم من أتباعه ومؤيديه في قضية خلعه من ولاية العهد ، ولا سيما بنو القعقاع . كما قام بعزل الكثير من عمال هشام السابقين ، وبخاصة في دمشق والمدينة ، وجدد أمر الولاية لبعضهم كنصر بن سيار والي خراسان[٨] .

وضعه بعد توليه أمر الخلافة :

لم تتغير أحوال الوليد بعد توليه منصب الخلافة ، على الرغم من ثقل المسؤولية وجسامتها تجاه الرعية والمتغيرات السياسية العامة . فقد انصرف الى الاقامة في البادية ، يمارس كل أنواع اللهو فيها ، كما كان يفعل في حياة عمه هشام . فلم يلتفت الى أمور الدولة وتسييرها .

---

٤ ـ تاريخ الطبري ج٧ ص٢١١ .
٥ ـ الأغاني ج٧ ص ١٦ .
٦ ـ تاريخ الطبري ج٧ ص ٢١٥ .
٧ ـ تاريخ الطبري ج٧ ص ٢١٦ .
٨ ـ تاريخ الطبري ج٧ ص ٢٣١ وما بعدها .

ونظر الى الناس نظرة احتقار وازدراء ، باستثناء حاشية سوء اختارها من المغنين والجواري والخدم والشعراء . وكان يقضي جل نهاره في ممارسة الصيد ، أما الليل فكان يمضيه في شرب الخمر وسماع المغنين والمغنيات ، ساعده على ذلك الأموال الطائلة ، التي ورثها عن عمه هشام ، والتي كان يصرفها بسرعة كبيرة ، الأمر الذي جعله يفكر في مصدر مالي آخر قبل أن يغصب ، فقام يوسف بن عمر الثقفي باستغلال ذلك ، فقام بمفاوضة الخليفة على أن يبيع له ولاية خراسان وواليها نصر بن سيار وأتباعه ، وقد تمت موافقة الخليفة على أن يقدم يوسف مبلغاً كبيراً ، لكنه لم يكن يساوي إلا جزءاً يسيراً من دخل هذه الولاية . وبذلك أصبح ليوسف حق التصرف في خراسان ، فأمر واليها بجمع الأموال والهدايا والحضور الى حيث إقامة الخليفة ، وانصاع نصر بن سيار للأوامر وأخذ يجمع الأموال والهدايا من أهل خراسان ، وطلب من معاونيه مساعدته في هذا الأمر ، ولما انتهى من ذلك سار في موكب كبير ، وبينما هو في طريقه الى الخليفة بلغه خبر موته ووقوع فتنة في الشام، فعاد الى قصر الامارة في خراسان وهرب يوسف بن عمر دون أن يحصد نتيجة مشروعة في السيطرة على خراسان (٩) .

الثورة على الوليد ومقتله :

كان لمقتل يحيى بن زيد بن علي ، الذي استغل حالة الفوضى في عهد الوليد فأعلن الثورة على الأمويين ، أثره البالغ في زيادة النقمة على حكم الوليد ، وهو الذي أمر والي العراق يوسف بن عمر بأن ينزل جثة يحيى ويحرقها ، وبالفعل فقد نفذ يوسف أمر خليفته فأحرق الجثة وذرها في الفرات (١٠) وفوق هذه العملية المشينة قام بتعذيب وقتل خالد القسري، الذي عرف بشدة إخلاصه لبني أمية وتفانيه في خدمتهم ، وهو الذي لم يوافق على خلع الوليد نفسه ، ولا على مخالفته والثورة عليه بعد أن نصحه أتباعه بذلك (١١) .

---

٩ ــ الطبري ج٧ ص ٢٢٤ .
١٠ ــ الطبري ج٧ ص ٢٣٠ .
١١ ــ تاريخ الطبري ج٧ ص ٢٢٣ .

ويكمن الخطر في مقتل خالد القسري ، أن اليمانية عدّوا ذلك إهانة كبيرة لشرفهم ومستقبلهم العام ، لذلك نراهم يجتمعون لأول مرة على هدف واحد في كل من العراق والشام ، فبدأت المؤامرة لقتل الوليد ، وزاد من سرعتها أن بعض الشائعات بدأت تلوح في الأفق ، ومفادها أن الخليفة عازم على جعل ولاية العهد في ابنيه الحكم وعثمان ، وكانا صغيرين دون سن الحكم [١٢] وهما لأمّيْن من الجواري ، الأمر الذي جعل أولاد الوليد الأول ينكرون عليه هذا الأمر ، وانضم إليهم أبناء هشام . وقد التف هؤلاء الأمراء الناقمون ، وانضم إليهم رجال من زعماء بني كلب ورتبوا حركتهم بمدينة دمشق ، وأرادوا أن ينضم إليهم خالد القسري ولكنه رفض[١٣] .

وقد رتبت الأمور على أساس أن يكون المرشح للخلافة بعد الوليد الثاني يزيد بن الوليد بن عبد الملك ، وكان الناس يميلون إليه ، لأنه كان يظهر الزهد والإيمان، وجهز المتآمرون كل شيء للانقضاض على الخلافة ، وأخذت البيعة ليزيد في منطقة المزة ، وسار بعد ذلك الى المسجد الأموي وسيطر عليه،مستغلاً غياب والي دمشق عبد الملك بن محمد بن الحجاج بن يوسف الثقفي ، وكان في قطنا هارباً من الطاعون، الذي حل بدمشق آنذاك ، ودخل الانقلابيون في كل مداخل مدينة دمشق المعروفة، كباب الجابية ، والباب الشرقي ، والباب الصغير ، وباب توما،وباب الفراديس[١٤] .

وبعد أن نجحت خطة يزيد الثالث في دخول دمشق ، أخذ يستعد لمحاربة الوليد الثاني ، فطلب من الناس التطوع،فقبل بعضهم وأغرى بعضهم الآخر بالمال والهدايا، وجعل على قيادة ما اجتمع له من أهل دمشق عبد العزيز بن الحجاج بن عبد الملك، وهو ابن عمه . وكان الوليد الثاني مقيماً بالأغدق ، فأشار عليه أصحابه الإنسحاب الى حمص أو الى تدمر ، ولكنه لم يقبل بهذا ، وحين عرف باقتراب المعارضين،التجأ الى حصن قريب ومعه بضع مئات من المؤيدين ، انفض معظمهم عنه بعد أن طلبوا منه المال والاعطيات ، لكنه رفض ذلك ، وحوصر وحيداً في الحصن ، فدخل عليه

١٢ ــ تاريخ الطبري ج٧ ص ٢١٨ .
١٣ ــ تاريخ الطبري ج٧ ص٢٣٢ .
١٤ ــ تاريخ الطبري ج٧ ص ٢٤١ــ٢٤٢ .

المعارضون وقتلوه • وكان مقتله سنة ١٢٦هـ/٧٤٤م [١٥] ومنذ ذلك الحين انهارت الجبهة الأموية في الشام وضاعت هيبة الخلافة •

وعلى الرغم من سيرته الذاتية ، التي أتينا على ذكرها،والتي كانت حافلةباقتراف الموبقات ، وعدم الاكتراث بأمور الدولة وشؤون الحكم ، فانه قرّب إليه بعض المتدينين ، مثل المحدث الذي يكنى بأبي الزناد ، لكنه كان يكره الزهري ،لأنه كان يعيبه عند هشام بن عبد الملك ، أما القدرية فقد أبقاهم في جزيرة دهلك ، حيث كانوا منذ عهد عمه هشام ، الذي نفاهم الى هناك • وقد أحسن معاملة الإخوة المسيحيين[١٦] •

خلافة يزيد الثالث وابراهيم :

بعد موت الوليد الثاني ، بايع الناس يزيد الثالث وهو يزيد بن الوليد بن عبد الملك • وفي بداية عهده الذي لن يستمر طويلاً ، نوّه للناس أنه لم يأت الى الحكم حباً فيه أو رغبة في سلطة ، ولكن جاء من أجل إعادة الأمور الى سبيلها القويم، بعد أن وصلت الى أسوأ حالاتها في عهد سابقه الوليد الثاني ، حتى إنهذكر فيما ذكر وبصيغة الطلب من الرعية ، أن تحاسبه اذا أساء بالخلع والنفور ، وبالسمع والطاعة وحسن المؤازرة اذا قام بتنفيذ واجبه العام، الذي يقوم علىتجسّيد العدل والمساواة بين جميع أفراد المجتمع ، بغض النظر عن قربهم وبعدهم من الخليفة بسبب أو غير ذلك • كما أنه وعد بمعاملة أهل الذمة معاملة طيبة[١٧] •

ورغم هذه الوعود الجميلة المليئة بالآمال العريضة ، فانه اعتمد في حكمه على العصبية اليمانية ، وبخاصة بني كلب اعتماداً كلياً ، الأمر الذي أثار حفيظة القيسيين ، فعزل والي العراق يوسف بن عمر الثقفي ، وولى عوضاً عنه منصور بن جمهور الكلبي ، وقد اقتيد الى سجن دمشق ، وظل فيه الى أن مات يزيد الثالث ، حيث قتل قبيل دخول مروان الثاني دمشق على يد يزيد بن خالد القسري ثأراً لأبيه[١٨] •

---

١٥ ــ تاريخ الطبري ج٧ ص ٢٥٢.
١٦ ــ الأغاني ج٧ ص ١١ .
١٧ ــ انظر تاريخ الطبري ج٧ ص٢٦٨ــ٢٦٩ .
١٨ ــ انظر معلومات تفصيلية في تاريخ الطبريج٧ص٢٧٠ وما بعدها.

ولم تطل أيام منصور بن جمهور الكلبي في العراق ، حيث قام الخليفة يزيد الثالث بعزله ، وتعيين عبد الله بن عمر بن عبد العزيز مكانه ، فأحبه العراقيون لمحبتهم والده عمر بن عبد العزيز ، الذي كانت محبته ماتزال فاشية بين الناس[١٩].

أما في باقي الأمصار فقد تباين الوضع بين مصر وآخر ، ففي خراسان حيث كان واليها نصر بن سيار ، رفض الاعتراف بالوضع الجديد ، وكذلك فعل مروان بن محمد والي أرمينيا والجزيرة ، بينما سلم الناس أمرهم الى العهد الجديد في السند وسجستان . ولكن موت يزيد الثالث بعد حكم دام قرابة ستة أشهر ، قضى على أمور صعبة كانت ستحدث .

وقد خلفه في الحكم أخوه ابراهيم بن الوليد ، ولكن ابراهيم كان ضعيفاً جداً ، فلم يفز بمبايعة جميع الناس ، فكانت جماعة منهم تسلم عليه بالخلافة وجماعة تسلم عليه بالإمارة ، وجماعة أخرى لاتسلم عليه بشيء من كل هذا . وقد ساعدته بخاصة جماعة القدرية التي كانت خلال هذه الفترة من الجماعات القوية على كل الصعد ، يساعدها على ذلك ، أن يزيد الثالث وابراهيم كانا يؤمنان بمبادىء القدرية ويشجعانها [٢٠] وبقي على حاله حتى جاء مروان بن محمد فخلعه ، وقتل عبدالعزيز بن الحجاج بن عبد الملك ، لأن يزيد الثالث كان قد بايع لعبد العزيز بعد أخيه ابراهيم[٢١] .

وبالجملة فان مقتل الوليد الثاني ، كان بداية السير على طريق نهاية الدولة الأموية وسقوطها على يد العباسيين ، لأن هذا الحادث تم بتخطيط وارادة الأمويين أنفسهم ، وخطورة ذلك تكمن في أن الوليد الثاني على الرغم من سيرته القبيحة ، فانه كان إنساناً له في أعناق الناس بيعة وعهد ، وهو الرجل المعين لولاية عهد خليفة قدير هو هشام بن عبد الملك . إذاً كان مقتله ضربة قاسية للأسس والدعائم الثابتة

---

١٩ ــ تاريخ الطبري ج٧ ص ٢٨٤ .
٢٠ ــ تاريخ الطبري ج٧ ص ٢٩٩ .
٢١ ــ تاريخ الطبري ج٧ ص ٢٩٥ .

الأركان ، التي اعتمد عليها حكم بني أميّة بصورة عامة ، ولا سيما أهـل الشـام كمؤيدين مخلصين ، وبنو أميّة كحكام حرصوا دوماً على بقاء الحكم فيهم • أما بعد مقتل الوليد الثاني فقد اعتمد الحكم على جماعات متباينة في الأهداف والطموحات، فكثر المشاغبون ، وانتشرت الخلافات والفتن في جميع أطراف الدولـة ومناطقها ، وظهر مغامرون لايهمهم سوى جمع الثروة وحيازة الجاه والعظمة لأنفسـهم ومـن يلوذ بهـم •

الفصل العاشر

خلافـة مروان بن محمد (مروان الثاني)

يُعد عصر مروان بن محمد عصر الفتنة الثالثة في تاريخ الدولـة الأموية[1] ، ذلك لأن بدايته كانت الفتنة التي أدت الى مقتل الوليد الثاني ، ولأن نهايته توجت بمقتل مروان بن محمد نفسه سنة ١٣٢ هـ/٧٥٠ م ومروان بن محمد هو سليل فرع من البيت الأموي المرواني ، كان يحقد على عبد الملك وأبنائه ، وبخاصة على أبناء الوليد الأول وهشام ، لأنهم هم قتلـة الوليد الثاني ، ولأنهم هم الذين حرموه من الوصول الى منصب الخلافة ، فوالده هو محمد أخو عبد الملك بن مروان . وهو من الأمويين الذين تميّزوا بشهرتهم على الصعيد العسكري والقيادي ، الأمر الذي مكّنه من شغل منصب والي الجزيرة وأرمينية ، منذ سنة ١١٤ هـ/٧٣٣ م بالاضافة الى أذربيجان[2] وقد كان موفقاً في كل المعارك الحربية ، التي خاضها على الجبهـة البيزنطية ، وكذلك الأمر في أعماله الإدارية والقيادية ، فهـو صاحب الرأي الذي نجح من خلاله في تغيير بنية الجيش ، وذلك بالاعتماد على الجنود المحترفين للجندية كمهنة ومستقبل ، بعد أن كان الاعتمـاد على المتطوعة ، الذين لا يمكن تدريبهم بما فيه الكفاية ، بحيث يمكن الاعتماد عليهم بثقة شبه كافيـة . كذلك قام باعتماد مقاتلين في الجيش من القبائل العربية كافة ، بعد أن كان الجيـش يتألف من قبائل تحارب كمجموعات قبلية تخضع لقادتهم القبليين ، بينما أصبح الآن قـادة الجيش

١ــ كانت الفتنة الأولى سـنة ٣٥ هـ حيث أدت الى مقتـل عثمان بن عفـان وانتهت سـنة ٤٠ هـ بمقتل علي بن ابي طالب . أما الفتنـة الثانية فقد بدأت بخلافة يزيد بن معاوية سنة ٦٠ هـ وانتهت بمقتل عبد الله بن الزبير سـنة ٧٣ هـ .

٢ــ تاريخ خليفة بن خياط ــ القسم الثاني ص ٥٤٢ .

من الرجـال المجربين والمؤهلين الذين تعتمدهم الدولة على هـذا الأساس • وهو صاحب الاعتماد في المعارك الحربية على نظام الكراديس ، أي الوحدات الصغـيرة المتراصة ، التي يسهل تقدمها وتأخرها ، وتبديل مواقعها • ويقول بعض المؤرخين، إن نظام الكراديس هذا لا يعود في وجوده الى مروان بن محمد كابتكار واختراع ، فهو موجود قبـله ، ولكن مروان هو الذي عممه وجعله أسلوباً معتمداً اعتماداً كلياً في الحـروب •

ولمـا علم مروان بن محمد بن مروان بن الحكم أو مروان الثاني بموت يزيد وخلافة ابراهيم جمع جيشاً وحارب ابراهيم وانتصر عليه ، ثم دخل دمشق فبويـع فيها بالخلافة سنة ١٢٧ هـ/٧٤٤ م • بعدئذ عاد الى حران فيما بين النهرين ، حيث يكثر أنصاره من القيسية ، واتخذها عاصمة له ، هرباً من دمشق ومن الشام كلهـا حيث كانت السيادة لليمانية[٣] •

لم يكن أمر نقل العاصمة الأموية من دمشق الى حران من الأمور الحكيمة ، ومن المستغرب أن يقدم عليه رجل مجرب مثـل مروان بن محمد ، لأن عملية النقل أثارت حفيظة وحقد أهل الشام ، لأنهم خسـروا المركز العملاق الذي كان لهـم ، وخسروا الخيرات التي كانت تتدفق عليهم بسبب قربهم من الخليفة ، واعتماده عليهم في معظم الأمور • كل ذلك أثار النقمة والحقد على مروان ، وزاد ذلك حدةوتوتراً، أنه كان ابن أمة ، وهم الذين اعتادوا أن يكون الخليفة عربياً صميماً من جهة أبيه وأمه ، أضف الى ذلك أن الخلافة لم تصله عن طريق الإرث الشرعي المسالم ، الذي كان يتجسّد ببيعة جماعية من معظم الرعية ، لذلك فقد عُدّ مغتصباً للخلافة • كل هذه الأمور مجتمعة أدت الى خلق جو عاصف ، تخللته القلاقل والمعارضات، الأمر الذي أدى الى شغل مروان بن محمد طوال فترة حكمه •

المعارضات والقلاقل في عهـد مروان بن محمد :

بدأت المعارضة ضد حكـم مروان بن محمد أول ما بدأت في فلسطين ، التي كان يحكمها ثابت بن نعيم الجذامي ، الذي كان يحقد على مروان ويعمل ضـده ،

٣ـ فلهاوزن ص ٣٦٤ •

وانتشرت هذه المعارضة حتى وصلت الى حمص[٤] لكن مروان بن محمد الذي كان موجوداً في مدينة حماة ، استطاع من إخماد جذوة معارضة أهل حمص وأجبرهم على الاستسلام .

وفي غوطة دمشق ثار الناس بعد أن ولوا عليهم يزيد بن خالد القسري ، الذي قتل في نهاية الأمر على يد رجال مروان بن محمد ، الذين تابعوا ذلك الى فلسطين، وتمكنوا من قتل المعارضين فيها وفي مقدمتهم ثابت بن نعيم الجذامي[٥] أما المعارضون في مدينة تدمر فقد أعلنوا استسلامهم عندما علموا بنية مروان بالقدوم لحربهم بنفسه ، فأمنهم في أنفسهم وأموالهم .

بعد إخماد هذه المعارضات والفتن ، توجه مروان بن محمد الى مدينة دمشق، وجمع الناس وأخذ البيعة لولديه عبيد الله وعبد الله وزوجهما ابنتي هشام بن عبد الملك ، وشهد حفل الزواج أمراء البيت الأموي وغيرهم من وجوه الناس[٦] .

ظن مروان بعد ذلك أن أهل الشام أصبحوا من أنصاره المخلصين ، فطلب منهم الاشتراك في إخماد فتنة وقعت في العراق ، التي كان قد وصلها جيش بقيادة يزيد بن عمر بن هبيرة ، فاستجابوا لطلبه ، وتوجهوا بجيش من عشرة آلاف رجل ، فوصلوا الى الرصافة ، وهناك التقوا سليمان بن هشام ، الذي كان يسكن قصر أبيه ، فدعوه الى خلع مروان ، بعد أن وعدوه بالبيعة والتأييد ، وقد أعجبه العرض فوافق عليه ، وتوجه بمن معه من قوة الى قنسرين فسيطر عليها ، وكتب الى أهل الشام ، يدعوهم لمبايعته والقدوم عليه . وقد لاقت دعوته هذه قبولاً كبيراً من أهل الشام ، فتوجهت منهم أعداد كبيرة الى قنسرين ، وانضمت الى سليمان .

وبسرعة فائقة وصلت هذه التحركات وأخبارها الى مروان بن محمد ، فأمر قائده يزيد بن هبيرة بالبقاء حيث هو في العراق ، وتوجه بنفسه الى قنسرين ، واشتبك مع جيش سليمان في قتال صعب ، أسفر عن هزيمة ساحقة لأهل الشام[٧] .

٤ـ انظر تفاصيل هذه الأحداث في تاريخ الطبري ج ٧ ص ٣١٢ وتاريخ خليفة بن خياط القسم الثاني ص ٥٦٦ ـ ٥٦٧ .

٥ـ تاريخ الطبري ج ٧ ص ٣١٣ وما بعدها تاريخ خليفة بن خياط القسم الثاني ص ٥٦٧ .

٦ـ تاريخ الطبري ج ٧ ص ٣١٤ .

٧ـ تاريخ الطبري ج ٧ ص ٣٢٤ ـ ٣٢٥ .

وهرب سليمان مع من تبقى من جيشه الى حمص ، ثم تركها الى تدمر ، ومنها الى العراق ، وترك لأخيه سعيد قيادة الجيش ، فقدم مروان بن محمد الى حمص وحاصرها مدة طويلة ، وفي النهاية وقعت في يديه ، وأمر بهدم أسوارها وأسوار بعليك ودمشق ، كي لا تعود الى القيام ضده من جديد، كان ذلك في سنة ١٢٨هـ/ ٧٤٦ م • التفت بعدها الى معالجة أمور العراق الصعبة[٨] •

كان عامل العراق في هذه الأثناء عبد الله بن عمر بن عبد العزيز ، وقد سلك في حكمه للعراق طرائق طيبة ، فكان يوافق على كل طلبات العراقيين بتبديل موظف وتعيين آخر ، وكان يستميلهم عن طريق بذل الأموال والهدايا والأعطيات ، وكان يريد بذلك تعويضهم عن كل الذي حرموا منه في العهود السابقة ، فنقم الشاميون على عمر من جراء ذلك • وقد أسرف عمر في عمليات عطائه هذه ، التي لم تشمل أو ترضي جميع العراقيين ، فاحتج قسم منهم ، فاضطر لتوزيع الأموال عليهم[٩] •

وعلى الرغم من هذه النفقات الباهظة ، فإن أهل الكوفة راحوا يدعون الى عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب • وهو الذي كان قد قدم الى العراق ، فأكرمه ابن عمر وأجرى عليه وعلى إخوته كل يوم ٣٠٠ درهم • وفي الكوفة تزوج معاوية فتاة من أسرة كريمة فمال إليه فريق من أهلها ، ثم التفوا حوله لأنه من آل الرسول ، ووجدوا فيه مرشحاً للخلافة • وبمرور الوقت كثر أنصاره ، فاستولوا على قصر الإمارة بالكوفة ، وبايعوه عليهم ، فألف جيشاً منهم وخرج لمحاربة ابن عمر الذي كان يقيم بالحيرة[١٠] •

وقد تمكن ابن عمر من تفريق مؤيدي ابن معاوية واعلان استسلامهم فخرج ابن معاوية الى المدائن ، فبايعه أهلها وانضم إليه آخرون من خارجها ، فكثر أنصاره مرة أخرى ، وسار بهم الى أصبهان ، ومنها الى اصطخر وبايعه أهلها وسائر الناس في فارس وكرمان والأهوار ، وانضم إليه رجال هاربون من أصل بني أميّة ، أمثال سليمان بن هشام ، ومنصور بن جمهور الكلبي • وكان القاسم المشترك الذي

٨- تاريخ الطبري ج ٧ ص ٣٢٦ •
٩- تاريخ الطبري ج ٧ ص ٣٠٥ •
١٠- تاريخ الطبري ج ٧ ص ٣٠٣ وما بعدها •

اجتمع عليه هؤلاء هـو العداء لمروان بن محمد وليس الـولاء لآل بيت رسـول اللـه (ص) .

بعد ذلك شعر والي العراق ابن عمر بقوته وجبروته ، فأعلن العصيان ضـد الخليفة مروان بن محمد ، الذي أتى ابن عمر لشأنه في العراق بادىء الأمر ، ثم قرر حربه على يد النضر بن سعيد الحرشي أحد رجالات القيسية المشاهير ، وقد خاض معهم معارك عدة لم تسفر عن نتيجة ايجابية ، الى أن ظهـر الخوارج كقوة جديدة في الميدان السياسي في العراق ، لأن الخوارج أصبحوا في هذه الأثناء أكثر عدداً ، لأن حركتهم تحولت من حركة دينية الى حركة ذات مصلحة سياسية وأهداف دنيوية ، وقد تزعمهم في هـذه الفترة الضحاك بن قيس الشيباني ، الذي توجـه الى مدينة واسط ، حيث كان فيها ابن عمر فحاصره فيها وقتله ، وقيل إنه بايع الضحاك خليفة بعد أن انضم الى حركة الخوارج ، وعاد الضحاك الى الكوفة ، فمكث فيهـا أمداً قصيراً ثم غادرها متوجهاً الى الجزيرة ، فكثر الناس حوله ، وكان مروان بن محمد في هذا الوقت محاصراً حمص ، فأمر ابنه عبد الله بن مـروان بالذهاب لمحاربـة الضحاك ، فتوجه على الفور الى نصيبين وحوصر فيها . بعد ذلك بمدة في سـنة ١٢٨ هـ/٧٤٦ م التقى مروان بن محمد الخوارج بمعركة كبيرة ، قتـل فيها القائد الخارجي الضحاك وقائده وخليفته الخيبري ، وبذلك انتهى أمر الخوارج[١١] .

بعد ذلك تحرك جيش يزيد بن عمر بن هبيرة الفزاري الى الكوفة وقاتل عاملها الخارجي ، وتغلب عليها سنة ١٢٩ هـ/٧٤٧ م ، ثـم ذهب الى واسط وأسر عاملها ابن عمر الذي كان يتولاهـا للضحاك الخارجي ، وهزم أتباعـه ، فهربوا الى ابن معاوية في المشرق ، لكن أمرهم لم يدم طويلاً . وعاد بعدها مروان بن محمد الى حران ، بعد أن اقتنع أن أقاليم الدولة كلها أصبحت تدين له بالولاء المطلق ، لكن الأمر لم يكن كذلك ، إذ كانت الرايات العباسية قد بدأت في الظهور في الأقاليـم الشرقية على يد أبي مسلم الخراساني باسم آل البيت[١٢] فكانت معركة (الزاب) قرب الموصل سنة ١٣٢ هـ/٧٥٠ م ، التي هزم فيها مروان ، هي التي دقت آخـر مسمار في نعش الخليفة مروان بن محمد ، بل وفي نعش ملك بني أمية .

١١ـ تاريخ الخلفاء ص ٢٣٤ .

أحداث المغرب والأندلس خلال هذه الفترة :

يئس أهل الأندلس البلديون والشاميون من الاطمئنان في حكم ثعلبه بن سلامة ، فكتبوا الى والي إفريقية حنظلة بن صفوان يسألونه أن يرسل إليهم والياً ، فأرسل إليهم أبا الخطار حسام بن ضرار الكلبي •

ولما وصل أبو الخطار الى الأندلس ، قام بإطلاق الأسرى الذين ، كانوا لا يزالون في حوزة ثعلبة، ثم اخرج ثعلبة وجماعة من أصحابه الشاميين من الأندلس ، ثم قام بتفريق أهل الشام ، وكانوا جميعاً يسكنون في قرطبة ومنطقتها ، فأنزل أهل دمشق في منطقة غرناطة لشبهها بدمشق وسماها دمشق • وأنزل أهل حمص في إشبيلية لشبهها بحمص وسماها حمص • وأنزل أهل الاردن في مقاطعة رية (في أشذونة ومالقة) وسماها الأردن • وأنزل أهل فلسطين في شذونة (مقاطعة شريش) وسماها فلسطين ، وأنزل أهل مصر ، وكانوا كثراً في منطقتين ، في تدمير جنوب شرق الأندلس وفي باجة جنوب غرب الأندلس[١٢] •

ظهور العصبية القبلية في الاندلس :

كان أبو الخطار أعرابياً عصبياً مفرطاً في تعصبه لقومه اليمانيين ، ولكنه لما أصبح والياً على الأندلس سار سيّرة عادلة حكيمة ، ثم حدثت أحداث ردته الى الإفراط في العصبية •

الصميل بن حاتم :

كان أبو الخطار اعرابياً عصبياً مفرطاً في تعصبه لقومه اليمانيين ، ولكنه لما بشر قائداً على جند قنسرين • ومع أنه كان أمياً لا يقرأ ولا يكتب فإنه كان من الدهاة الحكماء ، الذين يحسنون الصبر على الإساءة والاستفادة من الفرص المتاحة لصالحه •

١٢ــ نفح الطيب ج ١ ص ١٦٨ البيان المغرب ج ٢ ص ٣٣ .

لما عين أبو الخطار مدينة جبان مكاناً لجند قنسرين ،رفض الصميل أن يذهب إليها ، وأصر على البقاء في قرطبة ، فجعل أبو الخطار يسيء إليه بالقول والعمل . وقد ضربه أحد الجنود في قصر قرطبة بحضور أبي الخطار بالسوط على رأسه فمالت عمامته ، فخرج الصميل على تلك الحال وعمامته مائلة مغضباً ، فقال له أحد الحجاب ، أقم عمامتك . فرد عليه الصميل قائلاً ، إن كان لي قوم فسيقيمونها .

كانت هذه الحادثة بدءاً للنزاع على منصب الولاية في الأندلس بين القيسية واليمنية . وقد كان القيسية قوم الصميل قليلين في الأندلس ، بينما كان اليمانية قوم أبي الخطار كثيري العدد ، ولكن دهاء الصميل جعل النصر دائماً للقيسية على اليمنية .

أراد الصميل أن يبعد الجميل عن ولاية الأندلس ، فاتفق مع أتباعه على أن يأتوا برجل يمني من أتباع أبي الخطار ، يجعلونه والياً على الأندلس بالاسم ، ويكون الفعل والقوة في يدهم هم . ثم كتب الصميل الى ثوابة بن سلامة وهو من اليمانية ووالي اشبيلية سابقاً ، وعرض عليه أن يكون أميراً للأندلس مكان أبي الخطار ، فقبل ثوابة عرض الصميل وانضم إليه مع جماعات أخرى من اليمانية ، كانوا يحقدون على أبي الخطار .

وفي سنة ١٢٧ هـ/٧٤٥ م سار الصميل الى قتال أبي الخطار ، وعلى مقدمة جيشه ثوابة بن سلامة ، والتقى الجيشان على وادي لكه ، وهزم في النتيجة أبو الخطار وأسر . فدخل ثوابة الى قرطبة وأصبح أميرها في الظاهر ، أما الحاكم الحقيقي فكان الصميل[١٣] .

احداث المغرب :

لما فرق أبو الخطار أهل الشام في مناطق الأندلس ، أخرج عبد الرحمن بن حبيب من نسل عقبة بن نافع من الأندلس ، لأن عبد الرحمن كان له وجاهة منقرابته

١٣ـ انظر هذه الأحداث مفصلة في ابن الأثير الكامل في التاريخ ج ٥ ص ١٦١ البيان المغرب ج ٢ ص ٣٤ـ٣٥ أخبار مجموعة ص ٥٧ نفح الطيب ج ١ ص ١٤٧ .

لعقبة بن نافع وتأثير في جماعات من أهل الشام ، كما كان يطمع في الإمارة على الأندلس . فانتقل عبد الرحمن الى المغرب ، ثم أنه استطاع أن يستبد بأمر المغرب وأن ينال موافقة مروان بن محمد ومروان بن محمد يومذاك لا سلطة له على دمشق نفسها ، وبنوا أميّة في مشغلة عن أمور البلاد كلها [١٤] .

ثار الخوارج من جديد على عبد الرحمن بن حبيب في مناطق مختلفة من طرابلس ليبيا وإفريقية والمغرب ، ولكن عبد الرحمن تغلب على تلك الثورات كلها [١٥] .

يوسف بن عبد الرحمن الفهري :

توفي ثوابة فجأة ، فاختلف القيسية واليمانية على من يتولى الإمارة في الأندلس ، وطال اختلافهم فبقيت الأندلس أربعة أشهر بلا والٍ في هذه الأزمة اقترح الصميل أن يكون والي الأندلس عاماً من القيسيين وعاماً من اليمانيين على التوالي، لكن ذلك لم يؤخذ على محمل التنفيذ في البداية ، وفي النهاية اتفقوا أن يكون هذا الوالي يوسف الفهري ، وهو من نسل عقبة بن نافع ومتقدماً في السن ، وكان يعيش في عزلة عن الناس ليس له فيهم أعداء ولا خصوم . ثم كان يتنافس على ولاية المغرب نفر من الطامحين المتخاصمين . ففي مثل هذه الأحوال يحسن الإتيان بشخص يجتمع فيه عدد من صفات يوسف الفهري . غير أن يوسف الفهري كان رجلاً ليناً أيضاً فاستطاع الصميل أن يحكم من ورائه ، كما كان يحكم من وراء ثوابة بن سلامة الجذامي .

الاستيقاظ العصبية القبلية من جديد :

ما كان الأمر يستقر ليوسف الفهري حتى أشار عليه الصميل باتباع سياسة قيسية وبإقصاء جميع اليمانية عن مناصب الدولة . ولكن اليمانية وحدوا صفوفهم

---

١٤ ـ البيان المغرب ج ١ ص ٦١ فتوح مصر ص ٢٢٣ ـ ٢٢٤ .
١٥ـ فتوح مصر ص ٢٢٣ ـ ٢٢٤ وتاريخ المغرب العربي الاسلامي ص ٧٠ وما بعدها .

من جديد وعادوا الى جانب أبي الخطار ، الذي كان قد هرب من السجن ، فانقسم أهل الأندلس قسمين متحيزين ، قيسية ويمنية ، وعادت العصبية سيرتها الأولى .

ثم مضى عام على إمارة يوسف الفهري على الأندلس ، فجـاء اليمانية يطلبون تنيفذ الاتفاق بتنحي يوسف الفهري لوالٍ يمني . كان يوسف الفهري مستعداً لترك الحكم خوفاً من الفتنة والقتال ، ولكن الصميل أبى . ولمـا رفض يوسف الفهري أن يقود الجيش لقتال اليمنية قاده الصميل بنفسه .

والتقى الجيشان على مقربة من قرطبة في أوائل سنة ١٣٠ هـ/٧٤٧ م فانهزمت اليمنية ووقـع قائدا الجيش اليمني يحيى بن حريث وأبو الخطار في الأسر فقتلهما الصميل ، وقتل نفراً كثيرين من الأسرى . وجاء على الأندلس منذ سنة ١٢٩ هـ/٧٤٧ م أعـوام من القحط ، ثـم كثرت الاضطرابات في الأندلس والمغرب . وظل الأمر على ذلك حتى سقطت الدولة الأموية في الشام ، ونجا عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك المعروف بعبد الرحمـن الداخل من ملاحقـة العباسيين ، ودخل الأندلس وأعاد فيها ملك بني أمية وضبط الأمور فهدأت الأحوال[١٦] .

١٦ـ البيان المغرب ج ٢ ص ٣٦ أخبار مجموعة ص ٥٩ وما بعدها .

الفصل الحادي عشر

الحيـــاة الادارية في العصـــر الأمـــوي

الخلافــة والــوزارة :

كان شـــكل الحكم في الدولة ملكاً مطلقاً استبدادياً وراثيا على ما كان معروفا عند الفرس والروم ، يرتكز في ظاهره على الأساس الديني • وسبب ذلك أن الخلافة انقلبت من شورى حقيقية الى شورى شكلية ، وغدا انتقالها من خليفة الى آخــر بالإرث• ولأن الخليفة لم يكن يعتمد في إدارته العامة على دستور مكتوب ومعروف، هــذا بالاضافة الى عــدم وجود مجالس ثابتة رسمية[١] وكانت السلطات الثلاث التنفيذية والتشريعية والقضائية تجتمع في شخص الخليفة •

وبصورة عامة فقــد كان الخليفة الأموي رئيس الدولــة والمشرع والقاضي والقائد العام للجيش والإمام في المسجد • ورغم أن الخليفة الأموي لم يكن أحياناً راغباً في تحمل هذه المسؤوليات جميعها ، فإنه كان يعيين الذين يجب أن يقوموا بها تعييناً شخصياً ، وكان جميع الولاة والقضاة والقادة مسؤولين تجاهه • وكان جميع الخلفاء الأمويين عرباً أقحاحاً ، من جهة آبائهــم وأمهاتهم ، ما عدا يزيد الثالث بــن الوليد بن عبد الملك بن مروان، فإنه كان ابن أمة ، وكذلك مروان بن محمد •

أما الوزارة فقد وجدت في العصر الأموي من حيث التسمّية دون الاختصاص وكان معنى الوزارة في بني أمية ، حجب العامة عن الخليفة والقيام بالأعمال الإدارية،

١ـ ابن خلدون المقدمة ص ٣٦٧ •

وكانت من أرفع المراتب في الدولة الأموية • وكان الوزير ينظر في أحوال التدابير والمفاوضات وسائر أمور الحمايات والمطالبات ، وما يتبع ذلك[٢] •

ولكن لا ينبغي أن نفهم هذا اللقب الوزاري بالمعنى نفسه ، الذي عرف به في العصر العباسي ، ذلك لأن معظم وزراء بني أميّة كانوا مجرد كتاب قربهم الخلفاء إليهم واعتمدوا عليهم في تصريف الأمور وإبداء الرأي • لهذا لا يجوز أن يطلق عليهم لقب وزراء ، لأن وظيفة الوزير بالمفهوم الذي تحدد في العصر العباسي والعصور التالية ، لم تكن من الوظائف المعروفة في العصر الأموي •

الدواوين :

شعر الخلفاء الراشدون باستحالة الإشراف على جميع الأعمال ، فأنشأوا الدواوين المختلفة ، وقد تم ذلك في عهد عمر بن الخطاب • وما لبثت هذه الدواوين أن تعددت في عهد معاوية بن أبي سفيان ثم في عهد الخلفاء الأمويين من بعده • وأهم هذه الدواوين :

١ ـ ديوان الجند :

أسس هذا الديوان بفعل حاجات ملحة لتنظيم أمر الجند • فقد كان الناس يتطوعون للذهاب الى الفتوح تطوعاً حراً بلا قيود لأسمائهم ولا أعطياتهم ولا للغنائم التي يأخذونها • وبقي الأمر كذلك حتى أوجد عمر بن الخطاب ديوان الجند ، وهو في الحقيقة سجل الجيش ، اعتمد فيه على ترتيب الأنساب مبتدئاً من قرابة الرسول العربي الكريم وما بعدها الأقرب فالأقل قرباً وذلك في سنة ٢٠هـ/٦٤١م •

٢ ـ ديوان الخراج والجبايات :

يعد من أهم الدواوين جميعاً لأنه يشرف على الشؤون المالية للدولة ، ويتولى العناية بالوجوه العامة للأموال كلها ، أنه ديوان لأنواع الضرائب التي كانت الدولة تجبيها • وقد اقتبسه عمر بن الخطاب من الإدارة الفارسية فكان هناك ديوان العراق بالفارسية ، وديوان الشام بالرومية ، وديوان مصر بالقبطية • وقد كان الذين

---

٢ ـ ابن خلدون المقدمة ص ٤٢١ ـ ٤٢٢ •

يكتبون في هذه الدواوين من الذين يعرفون الفارسية أو الرومية أو القبطية ، ويعود ذلك الى قلة خبرة العرب بأمور الإدارة ، وتفضيلهم ترك النظم الإدارية والمالية في البلاد المفتوحة على ما كانت عليه دون تغيير أو تعديل • وظل ديوان الجبايات والخراج في عصر الدولة الأموية حتى أيام عبد الملك بن مروان ، عندما استحال الأمر ملكاً ، واستقرت دعائم الدولة العربية ورسخت قواعدها ، وانتقل القوم من بساطة البداوة الى رونق الحضارة • وقد أمر عبد الملك بن مروان في سنة ٧٨ هـ/٦٩٧ م أن ينقل ديوان الشام الى العربية ، وأمر الحجاج أن يقتصر ديوان العراق على العربية بعد أن كان بالعربية والفارسية ، وهكذا حصل لجميع الدواوين الأخرى ، فانتشرت العربية ونشطت الترجمة من اليونانية والفارسية والهندية[٣] •

٣ ـ ديوان الرسائل والكتابة :

لم يكن هذا الديوان موجوداً في أيام الراشدين ، وكان أول ظهوره في عهد معاوية بن أبي سفيان • ويقوم صاحب هذا الديوان بالإشراف على الرسائل الواردة من جميع الولايات العربية الاسلامية ، أو الموجهة من الخليفة الى عماله • وكان متولي هذا الديوان ينتقى من أقرب الناس الى الخليفة ، للحفاظ على الأمانة والسرية • ثم تعقدت هذا الديوان وتعددت اختصاصاته ، وكثر من يعمل به ، فوجد كتاب رئيسون يقومون بالإنشاء ، وآخرون يساعدونهم في الاختصار والتبييض ، وأصبح لهذا الديوان محفوظات خاصة يتولى الإشراف عليها الخازن ، فكانت أصول المراسلات ونسخها تنظم في سجلات أو مغلفات خاصة ، يقال لها أضابير ، توضع عليها بطاقات تدل على محتوياتها ليسهل استخراجها والعودة إليها[٤] وقبل أن ينصرم العصر الأموي كانت الكتابة قد أصبحت صناعة ذات قواعد وأصول في أيام عبد الحميد الكاتب ، كاتب مروان بن محمد ، وأصبح الكاتب كأنه وزير له رأي في أمور الدولة ، وله سلطة عظيمة في تسييّرها •

٣ـ الجهشياري ـ الوزراء والكتاب تحقيق مصطفى السقا وابراهيم الابياري طبعة القاهرة ١٩٣٨ ص ١٧ و ٤٠ و ٦٧ لصولي ـ أدب الكتاب ص ١٩٠ وما بعدها . ابن خلدون المقدمة ص ٤٣٢ .

٤ـ عبد المنعم ماجد ـ تاريخ الحضارة الاسلامية في العصور الوسطى طبعة القاهرة ١٩٦٣ ص ٣٦ .

٤ ــ ديوان الخاتم :

كان من أكبر دواوين الدولة الأموية ، أنشأه معاوية بن أبي سفيان ، حتى لا تخرج التوقيعات دون ختم فلا يعرف ما تحتويه من أسرار أحد غير الخليفة ، فلا تتعرض هذه التوقيعات للتزوير والتعديل • وأصبح هذا الديوان يضم عدداً من الكتاب القائمين على إنفاذ كتب السلطان والختم عليها ، إما بالعلامة أو بالحزم ، وكان الحزم يتم عن طريق لصق رأس الصحيفة على ما تنطوي عليه من الكتاب • وقد يجعل على مكان الإلصاق علامة يؤمن معها من فتحه والإطلاع على ما فيه • وهي لا تخرج عن ختم المكان الملصوق بخاتم منقوش قد غمس في مذاق من الطين معد لذلك ، لونه أحمر(٥) •

٥ ــ ديوان البريد :

مستحدث في زمن معاوية أيضاً ، وسبب استحداثه اتساع رقعة الدولة ، حتى أصبح من الضروري نقل الرسائل بسرعة كبيرة ، لتأمين الاتصال السريع بين الخليفة وعمال الولايات • فكانوا يضعون الخيل السريع في أماكن معينة ، فإذا وصل صاحب الخبر المسرع الى مكان منها وقد تعب فرسه ، ركب غيره فرساً مستريحاً ، وكذلك يفعل في المكان الآخر ، وهكذا حتى يصل بسرعة(٦) •

القضاء :

لم يكن للمسلمين قوانين موضوعة ، بل كان لهم كما هو معروف شريعة نزلت مجملة في القرآن الكريم ، ثم فصلت في الحديث ، وعلى هذا فلم يكن للقاضي في أول الأمر إلا النظر في القضايا والدعاوى وتطبيق أوامر الدين ونواهيه عليها • وكان الرسول العربي الكريم يباشر القضاء بنفسه في المدينة • وكما انتشر الاسلام في

٥ــ تاريخ الطبري ص ٦ ص ١٨٤ الجهشياري كتاب الوزراء والكتاب ص ٢٥ ابن خلدون المقدمة ص ٤٧١ ابن الأثير لكامل ج ٤ ص ١١ •
٦ــ ابن طباطبا ص ١٠٦ •

الجزيرة العربية ، جعل الرسول نفسه يستقضي الجلة من أصحابه ، ثم أن عمر بن الخطاب جعل القضاء منصباً مستقلاً بنفسه عن الخلافة نفسها .

أما في عهد الدولة الأموية ، فقد بقي القضاء بسيطاً كما كان في عصر الراشدين، اذ لم تكن المذاهب الأربعة قد ظهرت بعد ، فكان القاضي يعتمد على الاجتهاد في الاحكام مستعيناً في ذلك بالكتاب والحديث والاجماع ، وكان القضاة مستقلين في أحكامهم وإرادتهم ، لم تؤثر فيهم ميول أهل الحل والشأن من الحكام . وكان الخليفة الأموي ، هو الذي يختار القضاة بنفسه ويعيّنهم ، ولكن بعضهم كان يختارهم ولاة الأمصار بموافقة الخليفة . وكان القضاء في هذا العصر على نوعين ، قضاء شرعي يستوحي أحكامه ويستنبطها من مصادر الشريعة ، كالقرآن والحديث والاجماع ، وقضاء مدني يتولاه المحتسب[٧] .

أما المشكلات التي كان يستعصي حلها على القاضي الشرعي ، فكان يفصل فيها قاضي المظالم . مثال ذلك أن بعض الناس مسلماً أو غير مسلم كان اذا تعرض لظلم ما، كأن يظلم أحد الامراء شخصاً ، أو لا يرضى مستقض بحكم القاضي[٨] عندئذ يرفع المظلوم أمره الى الخليفة ، الذي كان في عصر الأمويين يجلس في المسجد ، إما كل يوم أو أياماً معروفة في الاسبوع . وكان الخليفة بشكل عام ينصف المظلوم ، إلا أن الغالب في رد المظالم كان إرضاء للمظلوم أكثر منه عقاباً للظالم . ويرجع الفضل في إنشاء محكمة المظالم هذه الى الخليفة عبد الملك بن مروان . ويعد عمر بن عبد العزيز أول من ندب نفسه للنظر في المظالم فردها ، وراعى القوانين الشرعية وأعادها ، ورد مظالم بني أمية على أهلها ، حتى قيل له ، وقد شدد عليهم فيها وأغلظ: « إنا نخاف عليك من ردها العواقب » فقال ، « كل يوم أتقيه وأخافه دون يوم القيامة لا وقيته»[٩] .

القضاء في المغرب والأندلس :

لم نعرف في عصر الولاة حكومة بالمعنى الحديث ولا بالمعنى ، الذي كان معروفاً

٧ ـ الماوردي ـ الأحكام السلطانية ص ٧٤ ابن خلدون المقدمة ص ٣٩٢ .
٨ ـ يسمي العرب ذلك ظلامة أو مظلمة .
٩ـ الماوردي ـ الأحكام السلطانية ص ٧٤ .

في الدولة الأموية في ذلك الحين ، أو في أيام عمر بن الخطاب على الاقل ، تنظيماً قاصراً على الجيش وبيت المال وعلى سجلات الدولة . لقد كانت حكومة الاندلس في عصر الولاة حكومة عسكرية استبدادية ، يبرز فيها الطابع القبلي . لقد كان الوالي هو الحاكم والقائد والقاضي ، وكان يعالج جميع أمور الدولة كأنها أمور متعلقة به وحده . وكان الوالي يعيّن عمالاً على المدن المختلفة ، ويعزلهم حسب ما يرى هو ، وقد كان هؤلاء العمال في الأغلب من أقربائه وأصدقائه .

ولم يتمكن عرب الأندلس أن يستفيدوا من التشريع ومن التنظيم السياسي اللذين كانا في الأندلس ، كما فعل العرب حينما نزلوا في الشام والعراق وفارس ومصر، لأنهم كانوا يجهلون لغة أهل الاندلس ، ولأن معظم العرب الذين نزلوا في الأندلس كانوا بدواً لم يتمرسوا في أمور السياسة والحكم على أسس حضرية . لذا فقد بقي التشريع عندهم مستمداً من الينابيع الدينية، كالقرآن والحديث والاجماع .

وترك العرب للنصارى في الأندلس حرية سياسية واسعة ، تركوا لهم القضاء فيما بينهم وشيئاً من الادارة المحلية المستقلة الخاصة بهم . وكان الحاكم بأمر النصارى يسمى القومس . ولا شك في أن حياة هؤلاء الدينية واستمرار الأسقفيات والأبرشيات في حواضر الأندلس المهمة الى جانب لغة لهم لا يعرفها العرب ، قد أجبر العرب على الرضا بمثل هذا النظام .

وقد كان للنصارى ، منذ عصر الولاة قضاء خاص بهم ، يعتمدون فيه على القانون القوطي . وكان قاضيهم يدعى قاضي النصارى أو قاضي العجم ، لأن العرب كانوا يطلقون على أهل الاندلس ، الذين لم يدخلوا في الاسلام ولا تعلموا اللغة العربية عجماً . وكذلك كان لليهود تنظيم قضائي واداري على غرار ما كان للنصارى[١٠] .

السكة :

لما تولى معاوية الخلافة ضرب دنانير عربية عليها صورته متقلداً سيفه على غرار

١٠ـ علي أحمد ـ القضاء في المغرب والأندلس خلال العصور الوسطى طبعة دمشق دار حسان ١٩٩٣ ص ٢٣و٢٤ و ٧٩ وما بعدها .

الدنانير البيزنطية(١١) لكن هذه الدنانير لم تصل الينا ، وكل ما وصل الينا بعض الفلوس النحاسية التي ضربت في فلسطين ، نقشت عليها صورة معاوية • والحقيقة فانه لم يعرف العرب عملة خالصة مستقلة إلا في زمن الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان ، الذي وجد أن ضرب عملة عربية ، هو ضرورة لأزمة فرضتها الظروف لتدعيم البناء الاقتصادي والسياسي للدولة العربية (١٢) •

ولا بد أن عبد الملك بن مروان ، كان يريد من عملية ضرب عملة عربية واحدة ، أن يوحد النظام النقدي في الدولة العربية ، بعد أن تعددت العملات الخاصة ، التي أصدرها عبد الله بن الزبير في الحجاز وأخوه مصعب في العراق ، وبذلك يكون قد حقق تجسيد سيادة الدولة العربية وتحريرها من أي نفوذ أجنبي أو تشرذم محلي •

الطراز :

بعد عصر الفتوحات تحول العرب عن استخدام الثياب الخشنة كالجبب الصوفية ، والأقبية الطويلة المربوطة في وسطها الزنانير ، والصابرات التي يرتدونها فوق الأقبية، وراحوا يلتفتون الى أمور التأنق في اللباس والظهر بمظاهر الفخامة، مما أدى الى تطور وازدهار صناعة المنسوجات في كل أنحاء الدولة ، وعرفت مصانع النسيج بدور الطراز ، التي تطور معناها مع الايام، حتى غدت تعني المصنع الحكومي للثياب (١٣) •

والطراز كلمة فارسية معناها التطريز وعمل المديج ، الذي أخذ عن الروم والفرس ، دون إجراء أي تعديل أو تغيير على صناعة النسيج السابقة على ظهور الاسلام ، باستثناء أنهم أدخلوا الكتابة العربية التي تشير الى أسمائهم مع كلمات أخرى • وكان يتولى ادارة دور الطراز رجل يدعى صاحب الطراز ، ينظر في أمور الصباغ والأنوال والعمال وما يتعلق بذلك •

١١ـ المقريزي ـ شذور العقود في ذكر النقود القديمة والاسلامية تحقيق السيد محمد الطباطبائي النجف ١٣٥٦ هـ ص٦ •

١٢ـ عبد الرحمن فهمي ـ فجر السكة العربية ص٣٨•

١٣ـ ابن خلدون المقدمة ص ٤٧١ ـ ٤٧٢ •

الفصل الثاني عشر

الحيـــاة الفكريـــة في العصر الأمـــوي

ازدهرت الحركة الفكرية في العصر الأموي ، وشملت مجالات العلوم الدينية واللغوية ، والتاريخ والجغرافية ، والعلوم التطبيقيـــة كالفلك والرياضيـــات وعلوم الطبيعية والفلسفة . وفيما يأتي دراسة موجزة لأهم مناشط الفكر في هذا العصر .

١ ــ العلوم الدينية :

هي أول ما عرف العرب من العلوم ، وقد انتشــرت في مختلف الولايات عـــن طريق الصحابة الذين تفرقوا في هذه الولايات ، وتأسست المدارس الدينية التي كان أساسها القرآن والحديث والفقه ، فكانت بداية التأليف العلمي عند العرب . وكانت مراكز هذه الحركة، المدينة والفسطاط والبصرةوالكوفة ودمشق.ومن أشهر علمائها عبد الله بن عمرو بن العاص في الفسطاط المتوفي سنة ٦٥ هـ / ٦٨٥م ، ويزيد بن أبي حبيب المتوفى سنة ١٢٨ هـ / ٧٤٦ م في الفسطاط أيضاً .

وكان في مقدمة العلوم الدينية ، علم القراءات الذي يُعد أساس علم التفسير ، ويتناول هذا العلم أساليب قراءة القرآن نتيجة لانعدام التشكيل والنقاط . ومن أئمة القراءآت في المدينة نافع بن عبد الرحمن بن أبي نعيم المدني [١] وفي مكة عبد الله بن كثير المتوفى سنة ١٢٠هـ / ٧٣٨ م وفي الكوفة عاصم بن أبي النجـــود المتوفي ســـنة ١٢٨هـ / ٧٤٦ م ، وفي دمشق عبد الله بن عامر اليحصبي المتـــوفى ســـنة ١١٨ هـ /

---

١ ــ ابن النديم ــ الفهرست ص ٢٨.

٧٣٦ م .ومن هذه العلوم علم التفسير ، الذي كان قد ينشأ في عهد النبي (ص) الذي كان أول شارح للقرآن ، ثم تولى صحابته هذه المهمة بعده ، ومن أشهر المقربين من الصحابة عبد الله بن عباس. وعن الصحابة أخذ التابعون ، وعن التابعين أخذ تابعوا التابعين ، فجمعوا أقوال من تقدمهم وصنفوا التفاسير[٢] . وكان الحديث النبوي من العلوم الدينية المعول عليها ، وهو كما هو معروف كل ما روي عن النبي (ص) من قول أو فعل . وقد أخذ الناس الحديث عن الصحابة ، الذين طالت صحبتهم برسول الله (ص) ، ثم ظهرت طبقة التابعين الذين أخذوا الحديث عن الصحابة . ولم يدوّن الحديث إلا في أواخر القرن الثاني الهجري في خلافة عمر بن عبد العزيز، وكانت الأحاديث تحفظ في صدور الرجال ، أو تكتب في صحائف متفرقة ، ولما كانت بعض الأحاديث قد انتحلت لتلبية حاجة البدع والنزعات[٣] فقد حرص عمر بن عبد العزيز على تدوين الأحاديث الصحاح ، فأمر بعض من كان يثق بهم من علماء الحديث بجمعها ، فكتبت في دفاتر وأرسلت منها نسخ الى أنحاء الدولة العربية . ومن أشهر المحدثين في العصر الاموي سفيان بن سعيد بن مسروق الثوري بالبصرة ، وله من الكتب (الجامع الكبير) الذي يجري مجرى الحديث ، وأبو عبد الرحمن محمد بن عبد الرحمن بن المغيرة وله من الكتب كتاب (السنن)، وعبد الملك بن عبد العزيز بن جريج ، وصنف كتاب (السنن) ، ومغيرة بن مقسم الضبي ، وصنف كتاب (الفرائض) وغيرهم كثيرون[٤] .

٢ ـ علوم اللغة العربية :

اللغة العربية هي التي نزل بها القرآن الكريم ، وهي اللغة التي سجل بها روائع الشعر العربي القديم ، الذي يتضمن من السمو الفكري والذوق الفني والابداع ما يعبر عن سعة أفق العرب ونضوجهم العقلي وخصب خيالهم ، وقد اضطر العرب بعد اختلاطهم بغير العرب الى وضع قواعد اللغة العربية لتحميها من اللحن والخطأ ،

---

٢ ـ صبحي الصالح ـ مباحث في علوم القرآن دمشق ١٩٦٢ ص ٣٣١ وما بعدها.
٣ ـ عبد العزيز سالم . التاريخ والمؤرخون العرب ص ١٧٥ .
٤ ـ الفهرست لابن النديم ص ٢٢٥ وما بعدها .

فظهرت مدرسة النحويين في البصرة ، ويرأسها أبو الاسود الدؤلي • وعن أبي الاسود الدؤلي أخذ جماعة من دارسي النحو[٥] كذلك استخدمت الشريعة الاسلامية والنظم السياسية والادارية في الدولة العربية ألفاظاً ومصطلحات لم يكن للعرب عهد بها من قبل . وإزدادت هذه المصطلحات بما نقله المسلمون عن اليونانية والفارسية فيمختلف ميادين العلوم كالطب والرياضة والفلسفة والكيمياء ، وأدى ذلك الى البحث في مفردات اللغة من حيث معانيها وأصولها واشتقاقاتها ، فظهرت المعاجم العربية ، وأول من وفق في جمع أول معجم في اللغة العربية الخليل بن أحمد الأزدي المتوفى سنة ١٧٠هـ ، وذكروا أنه كان غاية في استخراج مسائل النحو وتصحيح القياس ، وهو أول من استخرج العروض وحصن به أشعار العرب ، وصنف الخليل كتابه المشهور المسمى العين كما صنف كتباً أخرى منها كتاب النغم وكتاب العروض ، وكتاب الشواهد ، وكتاب النقط والشكل ، وكتاب فائت العين ، وكتاب الايقاع[٦] •

علم التاريخ :

قامت الدراسات التاريخية في البداية على سيّرة الرسول العربي الكريم وأخبار غزواته ومن اشترك فيها من الصحابة ، وأخبار هجرة المسلمين الاوائل الى الحبشة ثم الى يثرب ، وكانت مكة والمدينة المركز الرئيس لنشاط هذه الحركة التاريخية • وكان المؤرخون يعتمدون على الروايات الشفهية كما كان يفعل المحدثون ، مما يدل أن التاريخ العربي في بدايته سلك الطريقة نفسها التي سلكها الحديث ، فكان الخبر التاريخي على هذا النحو يألف من رواة الخبر على التتالي وهو ما يعرف بالسند أو الاسناد ثم نص الخبر ويسمى المتن[٧] وأقدم الكتب التاريخية التي تجمع بين الحديث والتاريخ كتب المغازي والسيرة وكان سبب الاهتمام فيها ، هو اهتمام المسلمين بأقوال الرسول وأفعاله للاهتداء بها والاعتماد عليها . وتألقت حركة التأليف في هذا المجال في المدينة باعتبارها دار هجرة الرسول وصحابته • وينقسم

---

٥ ــ الفهرست لابن النديم ص ٤٠و٤٢ .
٦ ــ الفهرست ص ٤٣ .
٧ ــ احمد امين . ضحى الاسلام ج٢ القاهرة ١٩٣٨ ص ٣١٩ عبد العزيز الدوري . بحث في نشأة علم التاريخ عند العرب بيروت ١٩٦٠ ص ٢٠ .

مؤرخو السيرة والمغازي في مدرسة المدينة ومكة الى ثلاث طبقات ، اشتهر من الطبقة الاولى منهم ، أبان بن عثمان بن عفان المتوفى سنة ١٠٥ هـ / ٧٢٤م ، وعروة ابن الزبير المتوفى سنة ٩٢ هـ / ٧١١ م الذي مكّنه نسبه من أن يروي الكثير من الاخبار والأحاديث عن النبي (ص) ، فروى منها عن أبيه الزبير ، وعن أمه أسماء وعن خالته عائشة ، وعن عروة أخذ هشام وابن شهاب الزهري ٠

ومن رجال الطبقة الثانية عبد الله بن أبي بكر حزم الانصاري المتوفى سنة ١٣٥ هـ/٧٥٣ م ، وعاصم بن عمرو بن قتّادة الأنصاري المتوفى سنة ١٢٠هـ/٧٣٨م الذي عهد اليه عمر بن عبدالعزيز بالجلوس في جامع دمشق ليحدث الناس عن مغازي رسول الله (ص) وعن مناقب الصحابة ، وعليه اعتمد ابن اسحق والواقدي[٨] وكذلك ابن شهاب الزهري المتوفى سنة ١٢٤هـ / ٧٤٢م أعظم مؤرخي المغازي والسّيرة الذي يرجع اليه الفضل في توضيح خطوط السيرة وفي تأسيس المدرسة التاريخية في المدينة [٩] ٠

ومن رجال الطبقة الثالثة محمد بن اسحق المتوفى سنة ١٥٢ هـ/٧٦٩م أشهر تلامذة الزهري ، واليه تنسب أقدم كتب السيرة التي وصلت إلينا ، ومحمد بن عمر الواقدي المتوفى سنة ٢٠٧هـ/٨٢٣م الذي فاق ابن اسحق في دقته في المادة والأسلوب مع اهتمام زائد بأمر التاريخ ، وفي تحقيق تواريخ الأحداث وتوضيح الإطار الجغرافي المتصل بالمواقع[١٠] ٠

وفي هذا العصر أيضاً ظهرت مدرسة أخرى للتاريخ في البصرة والكوفة ، تميّزت بتناول الموضوعات الخاصة بالمعارك والفتوح الاسلامية ودراسة الأنساب ، نتيجة للصراع الحزبي وللاقليمية وللقبلية[١١] وفي الوقت نفسه وجد في هذه المدرسة كتاب للسّيرة والمغازي ، نذكر منهم معمر بن راشد اليماني البصري المتوفي سنة ١٥٠هـ / ٧٦٧ م ٠ ومن أشهر كتاب التاريخ والأخباريين من أصحاب

---

٨ ــ أحمد أمين ضحى الاسلام ج٢ ص ٣١٩ و ٣٢٥ الدوري المرجع السابق ص ١٩ و ٢٠ ٠

٩ ــ الدوري المرجع السابق ص ١٠١ ٠

١٠ــ الدوري المرجع السابق ص ٣٠ــ٣١ ٠

١١ــ الدوري المرجع السابق ص ١٢٣ ٠

هذه المدرسة ، أبو مخنف لوط بن يحيى الأزدي المتوفي سنة ١٥٧ هـ/٧٧٤ م الذي عني بكتابة الأحداث التاريخية العامة ، كالردة والفتوح ومعارك الجمل وصفين ، ومقتل الحسين ، وعن الأزارقة والخوارج ، اضافة الى اهتمامه بالانساب[١٢] • ومنهم أيضا سيف بن عمر الكوفي الاسدي المتوفي سنة ١٨٠هـ/٧٩٧م وقد اتسمت أخباره في الفتوحات وبخاصة ما كان متعلقا منها بالعراق بميول واضحة المعالم لقبيلته وتعصب ظاهر لها [١٣] ومنهم عوافة بن الحكم الكوفي الذي كان على دراية كبيرة بالأخبار والفتوح والانساب والشعر[١٤] •

وقد ظهر اهتمام العرب بأنسابهم في الجاهلية عقب الفتوحات الاولى ، عندما أنشأ عمر بن الخطاب الديوان ، وبدأ بالعباس عم النبي (ص) ثم ببني هاشم ثم بمن بعدهم طبقة بعد أخرى مراعياً في ذلك الاعتبار الديني والقبلي في آن واحد • وزاد اهتمام الأمويين بالانساب ، فوضعوا لهذا الغرض سجلات خاصة ، واشتدت العناية بالانساب أيضا منذ أواخر العصر الأموي عندما قامت الخصومات القبلية ، ونشأت الشعوبية ، وأخذ الشعوبيون من الموالي يفتشون عن مثالب العرب في الوقت الذي كانت القبائل تبحث عن مفاخرها[١٥] ومن أشهر نسابة العراق محمد بن السائب الكلبي المتوفي سنة ١٤٦هـ/٧٦٤م وكان من علماء الكوفة الذين اهتموا بدراسة الأنساب •

أما بالنسبة للتاريخ العربي القديم ، الذي يتناول أخبار العرب في الجاهلية الأولى أو الجاهلية القريبة من الاسلام ، فقد تمت كتابته في عصر الدولة الاموية عندما ثبتت دعائم الدولة العربية ، وبدأ العرب يعنون بأخبارهم القديمة ، فشهد القرنان الاول والثاني للهجرة اهتماماً خاصاً بدراسة أخبار العرب القديمة • وأهم من اشتغل في هذه الفترة ، عبيد بن شرية الجرهمي ، الذي عمل قصاصاً أخبارياً في

١٢ـ الفهرست لابن النديم ص ٩٣.
١٣ـ احمد امين المرجع السابق ص ٣٤٣ الدوري المرجع السابق ص ٣٧.
١٤ـ الفهرست لابن النديم ص ٩١.
١٥ـ الدوري المرجع السابق ص ٤٠ .

بلاط معاوية بن أبي سفيان[١٦] وذكروا أنـه ألف لمعاوية كتاب (الملوك وأخبـار الماضين) الذي طبع في ذيل كتاب التيجان في ملوك حمـير . وهذا الكتاب يتضمن كثيراً من أخبار العرب في الجاهلية ، كما يحتوي كثيراً من الأشعار التي وضعت على لسان عاد وثمـود وطسم وجديس والتبابعة ، ويغلب على هـذه الأخبار الطابـع القصصي[١٧] وعاش هذا المؤرخ الى أيام عبـد الملك بن مروان . وكذلك وهب بن منبه المتوفى سـنة ١١٠ هـ/٧٣١ م ، قيل إنه من فارس وقيل أنه من أصل يهودي وأسلم ، وينسبون إليه معظم الاسرائيليات الواردة في المصادر العربية . ومن الكتب المنسوبة إليه (كتاب الملوك المتوجة من حمـير وأخبارهم وقصصهم) ويغلب على أخبار وهب طابع القصص الشعبي الخرافي[١٨] .

عـلم الكـلام :

ظهرت في العصر الأموي بعض الحركات الفلسفية الدينية ، كالجبرية والقدرية والمعتزلة . فالجبرية يقولون إن إرادة اللـه مطلقـة ، وقدرته تضع حـداً لإرادة الانسان ، والانسان على هذا النحو مجبر لا اختيار له ولا قدرة ، وأن الله يخلـق في الانسان الأعمال والأفعال ، ولا قدرة للانسان عـلى تبديلها ، وأول من قـال بالجبرية جهم بن صفوان فسمي أتباعه بالجهمية . وقـد نفى الجبرية صفات الله ، لأن صفات الله بشرية والبشر خلق . أما القدرية فقـد جاءت حركتهم كرد فعـل لحركة الجبرية ، ومذهب القدرية هـو أن الانسـان يملك القـدرة والإرادة عن تصرفاته ، ودعمت القدريـة آراءها بآيات من القـرآن الكريم ، وكانت القدرية تعارض بني أميّة لأنها تعد أن للفرد حرية الاختيار . أما المعتزلة فهي أعظم مدارس الفكر والكلام في الاسلام ، وظهرت في بداية القرن الثاني الهجري في البصـرة ، ويرجع أصل هذه التسمية الى واصل بن عطاء الذي اعتزل حلقة استاذه الحسـن البصري ، لاختلافه معـه في الرأي وتتلخص آراء المعتزلة في القـول بعدم تكفير

---

(١٦) المسعودي ــ مروج الذهب ج ٣ ص ٣١ الفهرست لابن النديم ص ٨٩ .
(١٧) جواد علي ــ العرب قبل الاسلام ج ١ ص ٤٤ .
(١٨) هاملتون جب ــ دراسات في حضارات الاسلام ــ ترجمة الدكتور احسان عباس وآخرين طبعة بيروت ١٩٦٤ ص ١٤٤ .

مرتكب الكبائر وعده في منزلة بين المنزلتين ، أي بين المؤمن والكافر[19] . وقالوا بالقدرة أي أن الله لا يخلق أفعال الناس ، وإنما هـم يخلقون أفعالهم ، وأنهم من أجل ذلك يثابـون أو يعاقبون على عكس ما قـال به خصومهم من الفقهاء ، الذين تغالوا في سلب الانسان قدرته وحريته في التصرف . وقال المعتزلة بسلطان العقـل وقدرته على معرفة القبيح من الحسن ، ودعاهم الى القـول بهذا المبدأ ما رأوه من جمود بعض الفقهاء ووقوفهم عند النصوص . كذلك قال المعتزلة بالتوحيد ، فنفوا أن تكون لله تعالى صفات أزلية من علم وقدرة وحياة وسمع وبصر غير ذاته ، بـل إن الله عالم وقادر ، وحي وسميع وبصـير بذاته ، وربمـا دعاهم الى هذا القول ما شاع في عصرهم من ذهاب قوم الى تجسيم الله تعالى وإثبات صفات له كصفات المخلوقات ، وقد استند المعتزلة في آرائهم الى قوله تعالى : « سبحان رب العـزة عما يصفون » .

وقد قـام خلفاء بني أميـة باضطهاد المعتزلة ، باستثناء بعضهم الـذي ذهب مذهبهم مثـل يزيد الناقص بن الوليـد ، ومروان بن الحكم الذي لقب بالجعدي لأخذه القول بالقدر عن الجعد بن درهم المعتزلي .

الكيمياء والطب :

اهتم الأمويون بالكيمياء والطب ، وأول من اهتـم بهذا العلم وبإخراج كتب القدماء في الصنعة خالـد بن يزيد بن معاوية[20] الذي أخـذ العلم على يد راهب اسكندري يقال له مريانوس الراهب . وقد كان خالد هذا قد نزل مصر في خلافـة مروان بن الحكم ، فقد سار معه عندما خـرج مروان على رأس حملته الى مصـر للاستيلاء عليها في سنة ٦٥ هـ/٦٨٥ م .

وفي الطب نبغ عـدد مهم ، كابن أثال طبيب معاوية ، وكان خبـيراً بالأدوية المفردة والمركبة ، وتيادوق طبيب الحجاج وماسرجويه طبيب مروان بن الحكـم ، الذي ترجم بعض الكتب الطبية من السريانية الى العربية مثل كتاب أهرن بن أعين

---

(١٩) المسعودي ــ مروج الذهب ج ٣ ص ٢٢٢ .
(٢٠) الفهرست لابن النديم ص ٣٥٤ .

القس ، وأبو الحكم طبيب معاوية ، وابن أيجر السكندري طبيب عمر بن عبد العزيز(٢١) •

المنجزات المدنية والدينية :

تمكن الأمويون بفعل سياستهم العربية الصادقة ، أن يسيروا في ميدان العمارة الدينية والمدنية على طريق القوة والمنعة ، فقد اهتموا بالتعمير السلمي ، وأحاطوا رجال الفن والصناعات في البلاد المفتوحة بالرعاية والتقدير ، فأسبغوا عليهم حمايتهم ، واصطنعوهم في أعمالهم الفنية ، وكان اختيار دمشق مركزاً للخلافة الأموية أثره الكبير في تأثرهم ببعض الطرز الفنية ، التي كانت تسود بلاد الشام ، حيث كانت تزدهر مدارس الفن الهلنستي والبيزنطي المتأثر ببعض أساليب الفن الساساني بحكم الجوار ، ولم يأنف العرب أن يتتلمذوا على أيدي أرباب الحرف والفنانين من مختلف الجنسيات(٢٢) •

١ ـ المنجزات المدنية :

انكب الأمويون على الاهتمام بالأمور الحياتية من ترف وأبهة وفخامة، فعكفوا على إنشاء القصور الفخمة والمزينة بالزخارف والصور والتماثيل وتدلنا الآثار الأموية الباقية من القصور الخلافية على تجاوز الأمويين استخدام الزخرفة الى استعمال التصوير في القصور والحمامات •

ويظهر في بناء القصور الأموية في البادية ميل الأمويين الأصيل الى الفن ، وانجذابهم نحو البادية حيث التمتع بهدوء الصحراء التي عاش فيها آباؤهم قبل عصر الفتوحات ، وحن إليها أبناؤهم ، ولاشك أن البادية هي التي نبعت منها ملكات العرب الفكرية ، ولاسيما ملكات الحسن الشعور والخيال ، وهي مصدر الإلهام للشعراء والحكماء ، ولهذا آثر خلفاء بني أمية ، الذين لم تغنهم حياة الترف واللهو

---

(٢١) ابن ابي اصيبعة ــ عيون الانباء في طبقات الأطباء طبعة بيروت ١٩٦٥ ص ١٧١ وما بعدها . ابن جلجل طبقات الأطباء والحكماء ص ٦١ .

(٢٢) أحمد فكري ــ تصدير للترجمة العربية لكتاب (الفنون الاسلامية) تأليف ديماند وترجمة الاستاذ أحمد عيسى القاهرة ــ ١٩٥٩ ص ٥ .

في المـدن ، أن يقصدوا الباديـة للتنعم فيهـا بالراحة والهدوء ، أو الفـرار من الطواعين[٢٣] ولهذا أقاموا قصورهم على حافة البادية .

وماتزال بعض آثار القصور الأموية باقية حتى اليوم ، أهمها آثار قصر المشتى، الذي قيل إن الوليد الثاني أقامه على أنقاض قصر غساني في شرق الأردن ، ويحيط بالقصر سور خارجي مربع الشكل تدعمه أبراج نصف دائرية في بدناته ، وأبـراج اسطوانية في الزوايا الأربع ، ويبلغ طول كل جانب منه ١٤٤ م . ويتألف القصر من مجلس أمامي مزود بغرف جانبية ، وفناء مركزي كبـير يتوسطه حوض ماء . أمـا القاعة الرئيسية فأشبه ما يكون نظامها بالنظام البازيليكي القائم على ثلاثة أروقـة تمتد عمودية على الجدار الرئيسي ، وكان القصر مزوداً ببوابة واحدة يكتنفها على كل من الجانبين برج نصف دائري مطـول ، ويزين الجدران الجانبية واجهـة من النقوش الدقيقة حفرت زخارفها في الكسوة الحجرية حفراً غائراً ، وقد نقلت هـذه الواجهة الى متحف الدولة ببرلين[٢٤] .

والى الوليد الثاني أيضاً يعود الفضل في بناء قصر خربة المنية[٢٥] الذي يقـع الى الشمال الغربي من بحيرة طبرية . وكذلك قصر القسطل الذي يبعد نحو عشرين ميلاً جنوبي عمان[٢٦] ويذكر المؤرخون أن الوليد الثاني كان ينزل بالقصر الأزرق ببادية الأردن ، ويقع على عين ماء يقال لها الأغدق[٢٧] .

وقام الخليفة هشام بن عبد الملك ببناء قصر خربة المفجر ، على بُعد ثلاثةأميال من أريحا بالقرب من البحر الميت ، وكان قصراً شتوياً تزدان جدرانه برسوم آدمية وحيوانية ، وقد سجل اسم هشام على أحد جدران القصر . والى هشام بن عبـد الملك أيضاً ينسب قصـر الحير الغربي الواقع على بُعد أربعين ميـلاً الى الجنوب الغربي من تدمر . وقد عثر في أطلال هذا القصر على نقوش عربية وعلى تماثيل من

---

(٢٣) ابن الأثير ــ الكامل ج٥ ص ٢٦٢ .
(٢٤) آرنست كونل ــ الفن الاسلامي ترجمة أحمد موسى القاهرة ١٩٦١ ص١١ــ١٢
(٢٥) أرنست كونل ــ المرجع السابق ص ١٢ .
(٢٦) ابن الأثير ــ الكامل ج٥ ص ٢٨٣ .
(٢٧) تاريخ الطبري ج٨ ص ٢٨٩ ابن الأثير ج٥ ص ٢٦٥ .

النوع التدمري الروماني[٢٨] وكان هذا القصر محاطاً بغابة من الأشجار والجنات. وهناك بقايا قصر يسمى الحير الشرقي ، ويقع على بُعد أربعين ميلاً شمالي شرقي تدمر ، ينسب بناؤه الى هشام بن عبد الملك[٢٩] .

٢ ـ المنجزات الدينية :

وتنحصر هذه المنجزات بشكل خاص في المساجد ، التي اهتم الأمويون ببنائها من جديد ، وتجديد ما كان مبنياً منذ عهد الراشدين من أمثال جامع البصرة والكوفة والفسطاط ، وجامع المدينة الذي أُعيد إنشاؤه في زمن الخليفة عثمان ، وجامع صنعاء الكبير ، الذي أُعيد بناؤه في زمن الوليد بن عبد الملك . أما المساجد الجديدة في عهد الأمويين فهي كثيرة مثل جامع دمشق ، والجامع الأقصى وقبة الصخرة ، وجامع الزيتونة بتونس وجامع عقبة بن نافع في القيروان .

آ ـ تجديد المساجد الأولى :

قام الوليد بن عبد الملك بتجديد جامع الرسول بالمدينة المنورة سنة ٨٨ هـ/ ٧٠٦ م حتى أصبح من أجمل المساجد ، بعد أن جلب إليه ما استطاع من المعماريين وأهل الفن من سائر الأقطار[٣٠] كذلك جدد جامع البصرة الذي كان قد بني باللبن والطين على زمن معاوية بن أبي سفيان سنة ٤٤ هـ/٦٦٥ م فأعيد بناؤه من الآجر والجص وسقف بخشب الساج[٣١] وجُدد جامع الكوفة سنة ٥١ هـ/٦٧٠ م[٣٢] وأضيف الى جامع صنعاء الكبير الذي بناه وبر بن يحنس الأنصاري الصحابي سنة ٦ هـ . وعندما أفضت الخلافة الى الوليد بن عبد الملك ، أمر بتجديد هذا

---

(٢٨) تاريخ الطبري مجلد ٨ ص ١٨٠ .

(٢٩) دانيال شلومبرجة ـ قصر الحير الغربي ـ ترجمة الياس ابو شبكة طبعة بيروت ١٩٤٥ .

(٣٠) السمهودي ـ وفاء الوفا ج١ ص ٣٦٨ .

(٣١) البلاذري ج٢ ص ٤٢٦ .

(٣٢) البلاذري ج٢ ص ٣٤٠ .

الجامع وتوسيعه • وزيد في جامع عمرو بن العاص الذي أسس في سـنة ٣١ هـ/ ٦٤٣ م عدة مرات في العصر الأموي[٣٣] •

ب ـ بعض المساجد الجديدة :

أعظم هذه المساجد على الاطلاق مسجد بني أمية بدمشق ، وهو ما بحثنـاه مطولاً في عرضنا لخلافة الوليد بن عبد الملك ، فلا سبيل لتكراره هنا مرة أخرى •

أما الجامع الأقصى فهو أحد المساجد الأموية المهمة في الشام ، أنشأ الخليفة عمر بن الخطـاب في موضعه مصلى من الخشب في سنة ١٦ هـ ، ثـم بناه الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان سنة ٦٥ هـ/٦٨٥ م ، وقيل الوليد بن عبد الملك في سنة ٨٧ هـ/٧٠٦ م ، وقيل إن بناء هذا الجامع أقيم على موضع كنيسة ترجع الـى أيام جستنيان[٣٤] وقد تهـدم هذا الجامع وأعيد بنـاؤه في زمن الخليفة العباسي المهدي ، ثم أصيب في عصر الصليبيين حـين استولوا على بيت المقدس واتخذوه كنيسة ، وأغلب الظن أن قسمه الأوسط مازال يحتفظ بعناصره الأموية الأولى •

وتعد قبة الصخرة ببيت المقدس من أحسن العمائر الدينيـة الأموية ، أنشأها الخليفة عبد الملك بن مروان في سـنة ٧٢ هـ/٦٩٢ م في وسط الحـرم الشريف ، وكانت هذه البقعة موضع احترام جميع أتباع الديانات السماوية • وقبة الصخرة بناء حجري مثمن الشكل تتوسطها الصخرة التي قيل إن رسول الله (ص) أسـرى عندها ليلة الإسراء ، فسميت القبـة لذلك بقبة الصخرة • وكان سبب بناء قبـة الصخرة أن عبد الملك منع أهل الشام من الحج ، وذلك أن ابن الزبير كان يأخذهم إذا حجوا بالبيعة ، فلما رأى عبـد الملك ذلك منعهم من الخروج الى مكة ، فضج الناس وقالوا : تمنعنا من حج بيت الله الحرام وهو فرض من الله علينا ، فقال لهم: هذا ابن شهاب الزهري يحدثكم أن رسول الله قال : لا تشد الرحال إلا الى ثلاثة مساجد : المسجد الحرام ، ومسجدي ، ومسجد بيت المقدس وهو يقوم لكم مقام

---

(٣٣) أحمد فكري ـ المدخل الى مساجد القاهرة ومدارسهـا ـ طبعـة القاهـرة ١٩٦١ ص ٢٠١ •

(٣٤) ابن الأثير الكامل ج٥ ص ٩ •

المسجد الحرام ، وهذه الصخرة التي يروى أن رسول الله وضع قدمه عليها لما صعد الى السماء ، تقوم لكم مقام الكعبة ، فبنى على الصخرة قبة ، وعلق عليها ستور الديباج ، وأقام لها سدنة ، وأخذ الناس بأن يطوفوا حولها كما يطوفون حول الكعبة[٣٥] وقد ظل تخطيط قبة الصخرة فريداً في العمارة الاسلامية في عصورها المختلفة ، لأن تصميمها يطابق الغرض الذي أقيمت من أجله ، وهو تحويط الصخرة المقدسة بالحرم الشريف[٣٦] .

الى جانب ذلك فقد أقيمت في العصر الأموي مساجد أخرى جامعة في أنحاء مختلفة من الدولة العربية ، لا يمكننا أن نتعرض لها جميعاً ، ذلك لأن هذا الأمر يستلزم وقتاً طويلاً وصفحات عديدة ، ويكفي أن نذكر منها المساجد التالية ، المسجد الجامع بالقيروان ، وجامع الزيتونة بتونس سنة ١١٤ هـ/٧٣٢ م، والمسجد الجامع بواسط سنة ٧٤ هـ/٧٠٣ م ، ومسجد قصر الحير الشرقي سنة ١١٠ هـ/ ٧٢٨ م ، والمسجد الجامع بحران سنة ١٢٦ ــ ١٣٢ هـ/٧٤٤ ــ ٧٥٠ م ، والمسجد الجامع بالأسكندرية المعروف بجامع الألف عمود ، الى غير ذلك من مساجد .

---

(٣٥) تاريخ اليعقوبي ج٢ ص ٢٦١ .

(٣٦) Cresul'el ashort account of Earlg musléns architecture Beirut 1968 - P.P. 17 - 40 .

الفصل الثالث عشر

البحرية العربية في العصر الاموي

١ ـ نشأة البحرية العربية :

لا شك أن الانتصار الحاسم ، الذي أحرزه العرب على جيوش بيزنطة في موقعة اليرموك ، يُعد نقطة تحول هامة في حركة الفتوح العربية أدت الى انهيار قوى الروم وانفصال الشام عند حسم الامبراطورية البيزنطية[١] .

ومنذ ذلك الوقت أخذت مدن الشام الكبرى تتساقط بسرعة الواحدة بعد الاخرى في أيدي العرب ، وكذلك المناطق الساحلية حيث لم يكد العرب ينتهون من فتح دمشق حتى وجه يزيد بن أبي سفيان همه الى فتح مدن الساحل ، ولم يأت عام ١٧ هـ حتى كان قد افتتح صيدا وبيروت وجبيل ، وفي الوقت نفسه كان عبادة بن الصامت يفتح عنوة مدن الساحل الشمالي وهي اللاذقية وجبلة وطرطوس[٢] .

وساعد فتح بلاد الشام على فتح مصر ، اذ كانت تربط بينهما منذ أقدم العصور مصالح سياسية واقتصادية واحدة ، وكثيرا ما ارتبطت الشام ومصر معا

---

١ ـ يذكر المؤرخون أن هرقل عندما بلغه نبأ الكارثة التي حلت بجيشه في وقعة اليرموك رحل الى القسطنطينية ، فلما تجاوز الدرب الذي يصل أرض الشام بأرض بيزنطة ، نظر الى الاراضي السورية بأسى وقال يودعها بنظره : عليك يا سورية السلام ونعم البلد هذا .. (أنظر عن ذلك البلاذري ـ فتوح البلدان تحقيق صلاح الدين المنجد القسم الاول القاهرة ١٩٥٦ ص ١٦٢).

٢ ـ البلاذري المصدر السابق ص ١٥٧ ابن الأثير الكامل في التاريخ طبعة صادر بيروت ١٩٦٥ ج٢ ص ٤٩٢ .

بفضل موقعهما الجغرافي والمصالح المشتركة في وحدة تاريخية وثيقة ، وكان مصيرهما واحدا خلال فترات طويلة من التاريخ القديم والوسيط ، وكذلك الامر في التاريخ الحديث والمعاصر[٣] .

وسجلت الفتوح العربية في مصر والشام تحولا فجائيا في الاستراتيجية الدفاعية للعرب في هذه المرحلة من تاريخهم ، فقد أحسوا بعد أن افتتحوا مدنا ساحلية تمتد من انطاكية شمالا حتى ساحل برقة غربا بأهمية الدفاع البحري عنها ، في وقت كانوا يدركون تماما مدى تخلفهم في المعارف البحرية ، وسبب هذا التخلف يرجع الى تعرض القسم الجنوبي من بلادهم ، ولا سيما اليمن وعمان وحضرموت زمنا طويلا لسيطرة الاحباش ، الذين استأثروا بالطريق التجاري عبر البحر الاحمر ، ثم لسيطرة الفرس الذين قضوا على تجارة العرب في الخليج العربي ، واحتكروا لانفسهم تجارة الهند[٤] هذا بالاضافة الى طبيعة بلادهم الصحراوية ، حيث يندر وجود الاشجار التي تصلح أشجارها لصناعة السفن ، وحيث تخلو من معدن الحديد اللازم لصناعة المراسي والمسامير والكلاليب باستثناء اليمن ، ومن الزفت والقطران ، هذا بالاضافة الى صعوبة الملاحة في البحر الاحمر لكثرة ما يعترض السفن فيه من صخور وشعاب مرجانية[٥] ولهذا السبب ، ولانه يدرك قدرة القوى البحرية البيزنطية وسطوتها ، عمد الخليفة عمر بن الخطاب الى اتباع سياسة بحرية دفاعية لمواجهة خطر استرداد البيزنطيين لسواحل الشام ومصر ، معتمدا في ذلك على وسائل برية ، كترميم القلاع والمناور والمراقب والمسالح الممتدة بحذاء الساحل وشحنها بالمقاتلة والمرابطة [٦] وبقي العرب يتبعون هذه السياسة الى أن تهيأ لهم تثبيت أقدامهم وتمكين سيادتهم على الشام

---

٣ ــ السيد عبد العزيز سالم ــ الصلات التاريخية بين الشام ومصر في العصر الاسلامي ــ مجلة العلوم بيروت العدد الخامس ١٩٦٤ ــ السيد عبد العزيز سالم ــ تاريخ الدولة العربية بيروت ١٩٧٠ ص ٤٨٦ .

٤ ــ

٥ ــ فتحي عثمان ــ الحدود الاسلامية البيزنطية ج٢ القاهرة ١٩٦٧ ص ٣٣٥ .

٦ ــ البلاذري ج١ ص ١٥٢ .

ومصر ، فتطلعوا الى مجاراة البيزنطيين في سياستهم البحرية الهجومية ، وبدأوا يؤسسون القوة البحرية الاسلامية ، حفاظا على سيادتهم على الشام ومصر .

ويرجع الفضل الكبير في انشاء الاسطول العربي الى معاوية بن أبي سفيان عامل الشام في خلافة عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان ، الذي فطن الى أهمية الاساطيل في الدفاع عن السواحل أثناء قيام أخيه يزيد بغزو مدن الساحل ، فقد تعرض للكثير من المتاعب في فتح بعض تلك المدن كقيسارية وطرابلس وعسقلان . أما قيسارية فقد عجز عمرو بن العاص عن فتحها ، اذ كانت تتلقى الامدادات من البحر . ويكاد يجمع المؤرخون على أن معاوية هو الذي تولى فتحها قسرا في سنة ١٩ هـ وقيل سنة ٢٠ هـ بعد أن كان قد يئس من ذلك . وأما طرابلس فقد استعصت على المسلمين في ولاية يزيد بن أبي سفيان لمناعتها وقوة تحصيناتها . وكان فتحها يستلزم حصارا بريا وبحريا قد يطول أمده ، كما حدث في حصار قيسارية الذي دام ما يقرب من سبع سنوات[٧] فاضطر يزيد الى ارجاء فتح طرابلس حتى تتوفر لديه الامكانات[٨] أما عسقلان فقد فتحها صلحا ، وأسكنها الروابط ووكل بها الحفظة[٩] فلما توفي يزيد بي أبي سفيان في طاعون عمواس ، وآلت ولاية الشام الى أخيه معاوية الذي كان يشاركه في فتوحه لمدن الساحل ، رأى معاوية الحالة السيئة التي وصلت اليها تحصينات المدن الساحلية ، فكتب الى الخليفة عمر بن الخطاب يصف له حال هذه السواحل ، ويقترح عليه انشاء أسطول بحري للغزو في البحر ، فرد عليه عمر يأمره بترميم حصونها ، وترتيب المقاتلة فيها ، واقامة الحرس على مناظرها لما أمره به عمر ، فحصن الثغور العربية ، وشحنها بالمقاتلة الذين يرابطون طوال فصل الصيف ، ويتولون حراستها في المناظر والابراج والمناور[١٠] وعلى هذا النحو أصبحت سواحل الشام سلسلة متصلة من التحصينات ، التي ترابط فيها حاميات مرابطة ، تنقسم كل منها الى مجموعات ،

---

٧ ــ دام من سنة ١٣ ــ ٢٠ هـ .
٨ ــ السيد عبد العزيز سالم ــ طرابلس الشام في التاريخ ــ الاسكندرية ١٩٦٧ ص ٣٢ .
٩ ــ البلاذري ج١ ص ١٦٩ .
١٠ــ البلاذري ج١ ص ١٥٢ .

وكل مجموعة تتألف من مئة رجل ، وكانت هـذه التحصينات مزودة في أعلاهـا بمواقيد يشعلها الحراس والقائمون بالدفاع عن الساحل عند اقتراب سفن الاعداء منه ليلا • كذلك اهتم عمر بن الخطاب بسواحل مصر ، ولا سيما بثغر الاسكندرية ، فكان يبعث في كل سنة غازية من أهل المدينة ترابط بالاسكندرية[11] وقسم عمرو بن العاص أجناده في مصر الى قسمين متساويين ، قسم أبقاه معه في الفسطاط ، وقسم وزعه الى نصفين ، أحدهما لرباط الاسكندرية وحدها ، والنصف الثاني لسائر السواحل المصرية[12] •

ولما استخلف عثمان بن عفان سنة ٢٤ هـ كتب اليه معاوية يستأذنه في غزوة قبرص ، ويعلمه قربها وسهولة الامر فيها ، فرد عليه ينهاه عن ذلك كما نهاه عمر ابن الخطاب من قبل ، ويأمره بتحصين السواحل وشحنها واقطاع من ينزله اياها القطائع ففعل[13] •

حينئذ قرر معاوية السير في تنفيذ خطته في اعداد أسطول بحري حتى يتهيأ له أن يفتح مدينة طرابلس المنيعة من جهة ، ويغزو الجزر المواجهة لساحل الشام كأرواد وقبرص ورودس ، ويتخذها مراكز أمامية لتوجيه الغزوات البحرية الى بلاد البيزنطيين من جهة أخرى ، فجلب الاخشاب من غابات الارز بلبنان ، وأرسلها الى دار الصناعة بالاسكندرية[14] وبعد أن تم اعداد عدد من السفن ، أخذ معاوية يفكر جديا في فتح طرابلس ، التي كان يعتبرها كالشوكة القائمة في جانبه ، ووجه لهذا الغرض القائد سفيان بن مجيب الازدي الى طرابلس ، الذي فتحها سنة ٢٦ هـ • وشجع فتح طرابلس معاوية على الخروج لغزو قبرص ، فكتب الى الخليفة عثمان بن عفان في عام ٢٧ هـ يهون عليه ركوب البحر الى قبرص ، فأذن له بغزو الروم بحرا في قبرص على ألا يحمل الناس على الغزو كرها •

١١ــ البلاذري جـ١ ص١٥٢ •

١٢ــ ابن عبد الحكم • فتوح مصر والمغرب والاندلس تحقيق عبد المنعم عامر القاهرة ١٩٦١ ص ٢٥٨ السيوطي حسن المحاضرة جـ١ القاهرة ١٣٢١ هـ ص ٧٩ المقريزي كتاب المواعظ والاعتبار طبعة بيروت ١٩٥٩ جـ١ ص ٢٩٣ •

١٣ــ السيد عبد العزيز سالم ــ تاريخ الاسكندرية ص ٩٥ــ٩٦ •

١٤ــ البلاذري ــ جـ١ ص ١٥٢ و١٨١ •

واشترك مع معاوية في هـذه الغزوة جمع من الصحابـة ، كأبي الدرداء وأبي ذر الغفاري ، وفضالة بن عبيد الأنصاري ، والمقداد بن الأسود ، وعباد بن الصامت الذي حمل معه زوجته(١٥) وأعدت السفن لنقل القوة العربية على ساحل عكا ، وهناك أقام معاوية بعض الوقت رمم خلاله تحصينات عكا وصور . ثم أبحرت الحملة الى قبرص في ربيع سنة ٢٨ هـ ، وكانت هذه الحملة أول غزو للعرب في البحر وما كادت السفن العربية ترسو الى ساحلها حتى أذعن أهل قبرص بالطاعـة للعرب ، فصالحهم معاوية على جزية سنوية ، واشترط عليهم أن يلتزموا موقفـا حياديا في الصراع العربي البيزنطـي ، وأن يبلغـوا العـرب بسير عدوهـم من البيزنطيين .

فلما كانت سنة ٣٢ هـ قام أهل قبرص بمسـاعدة البيزنطيين عـلى الغزو في البحر بسفن قدموها لهم ، فغزاهم معاوية في سنة ٣٣ هـ في عدد كبير من السفن ، وافتتح قبرص هذه المرة بالقوة ، ثم أقرهم عـلى صلحهـم ، وبعث الى قبرص بجيش عربي عدته ١٢ ألفا من أهل الديوان لتعريبها(١٦) .

ولما أصبح معاوية خليفة ، عمل على تدعيم الدفـاع عن السـواحل . لكن طرابلس انتفضت عليه في أول خلافته ، وتمكن بعض الروم من أهلها من قتـل عاملها واحراق قطع من الاسطوال العربي الراسية في مينائها ، لكن معاوية تمكن من القضاء على هذه الحركة(١٧) .

ومنذ ذلك الحين اهتم معاوية باصلاح دار صناعة عكا ، واعدادها للعمل من جديد ، فأمر بجمع الصناع والنجارين فجمعوا ، ورتبهم على السواحل ولم تزل السفن تصنع في الشام بمدينة عكا حتى آلت الخلافة الى المروانية فنقلوها الـى صور في عهد هشام بن عبد الملك ، وظلت بصور حتى سنة ٢٠٦ هـ(١٨) .

١٥ــ البلاذري ج١ ص ١٤٠ .
١٦ــ البلاذري ج١ ص ١٤٠ .
١٧ــ البلاذري ج١ ص ١٨١ــ١٨٢ .
١٨ــ اليعقوبي كتاب البلدان طبعة ليدن ١٨٩١ ص ٢٣٧ .

٢ ـ أسباب قيام البحرية العربية :

اضافة الى كل الذي ذكرناه سابقا ، فيوجد ثلاثة أسباب ساعدت على قيام البحرية العربية ، أولها محاولة العرب السيطرة على مدينة القسطنطينية ، وثانيها توافر المواد الاولية ودار الصناعة والفنيين والملاحين في مصر والشام ، وثالثها ارتباط مصر والشام وتضامنهما في العمليات الحربية ضد البيزنطيين ٠ وسنـ[illegible] في كل سبب من هذه الاسباب على انفراد ٠

آ ـ محاولة العرب السيطرة على القسطنطينية :

كان العرب يهدفون منذ البداية القضاء على الامبراطورية البيزنطية ، لانهم لم يكونوا مطمئنين بعد فتح الشام ومصر الى الجانب الرومي ، ولذلك كان عليهم أن يفتتحوا القسطنطينية قلب بيزنطية والعالم القديم ، وقلعة الروم المنيعة ، والرأس المدبّر للتنظيم البحري للبيزنطيين في حوض البحر المتوسط الشرقي ٠ لذلك حاول العرب فتح القسطنطينية عدة مرات منها حصار معاوية لها من سنة ٥٤ هـ الى ٦٠ هـ ٠ وكانوا يأملون في أن يحققوا هذا الهدف عن طريق الأندلس ، لكن فشلهم الكبير في معركة بلاط الشهداء سنة ١١٤ هـ في جنوب فرنسا ، وضع حدا لمحاولاتهم[١٩] ٠

ومنذ سنة ٤٩ هـ أخذ العرب يشكلون خطرا متزايدا على بيزنطة فقد استعمل معاوية على البحر القائد العربي عبد الله بن قيس ، الذي غزا خمسين غزوة ما بين شاتية وصائفة ، وبدأ معاوية قتاله ضد القسطنطينية بأن أغزى سفيان بن عوف العامري الى الطوانة بأرض الروم ، فأصيب جيشه بالحمى والجدري ، ثم أغزى بعده فضالة بن عبيد الانصاري في سنة ٤٩ هـ برا الى القسطنطينية ، وسير ابنه يزيد في قوة عربية لتعزيز هذه الحملة فسميت غزوة يزيد بن معاوية بالرادفة[٢٠] ٠

١٩ـ البلاذري ج١ ص ١٤٠ ٠

٢٠ـ تاريخ المسلمين وآثارهم في الاندلس ص ١٤٦ ٠

وبدأ العرب ينافسون البيزنطيين في البحر ، ونجح جنادة بن أبي أميّة الأزدي في فتح جزيرة رودوس عنوة في سنة ٥٢ هـ ، وأنزلها قوما من العرب[٢١] وفي سنة ٥٤ هـ افتتح جنادة بن أبي أمية الازدي جزيرة ارواد ، وأسكنها معاوية العرب ، واتخذها قاعدة لتوجيه حملاته البحرية على القسطنطينية أثناء حرب الاعوام السبعة التي حاصرها خلالها معاوية • وفي سنة ٥٥ هـ غزا جنادة اقريطش ، وتهيأ له بعد ذلك مهاجمة البيزنطيين في عاصمتهم[٢٢] •

ب ـ توافر المواد الاولية والايدي الفنية الماهرة :

عندما قرر معاوية بن أبي سفيان وهو بعد والٍ على الشام على انشاء أسطول عربي ، كان يعرف تمام المعرفة أن في امكانه تحقيق هذا الهدف ، فالأخشاب الضرورية لصنع السفن متوفرة في مناطق متعددة من الأرض العربية في مصر والشام[٢٣] كذلك كان في امكان معاوية استغلال معدن الحديد المتوفر في مصر والشام واليمن لعمل المسامير والمراسي والفؤوس كما يتوفر في مصر القطران الوارد من ليبيا ، وهو مادة لازمة لقلفطة السفن[٢٤] بالاضافة لهذه المواد الضرورية لصناعن السفن كانت تتوفر في الشام ومصر الايدي العاملة الخبيرة ، كالنجارين والمقلفطين وغيرهم ممن كانوا يشتغلون في دار الصناعة بالاسكندرية • وقد شغل الاقباط المصريون دورا فعالا في صناعة الاسطول العربي في كل من مصر وسورية والمغرب ، وشاركوا في المعارك البحرية التي خاضها العرب ضد البيزنطيين •

وقد ازدادت أهمية البحرية العربية منذ أن أسس مسلمة بن مخلد الانصاري والي مصر من قبل معاوية دار صناعة جزيرة الروضة في سنة ٥٤ هـ على أثر قيام

---

٢١ ـ تاريخ اليعقوبي ج٢ ص ٢٢٩ المسعودي مروج الذهب ج٣ ص ٢٤ الطبري ج٦ ص ١٣٠ •
٢٢ ـ البلاذري ج١ ص ٢٧٨ •
٢٣ ـ البلاذري ج١ ص ٢٧٩ ابراهيم العدوي ـ الامويون والبيزنطيون القاهرة ١٩٥٣ ص ١٦٥ •
٢٤ ـ المقريزي ـ الخطط ج٣ ص ١١٠ •

البيزنطيين بمهاجمة بلدة البرلس في سنة ٥٣ هـ[٢٥] أما أهل الشام وبالذات سكان السواحل اللبنانية من صور وصيدا جنوباً الى جبيل وطرابلس شمالا فقد برعوا في صناعة السفن وتمرسوا في ركوب البحر ، ونبغوا في قيادة الاساطيل منذ أقدم العصور بحكم تطلعهم الى البحر واحتكاكهم التجاري بعالم البحر المتوسط القديم[٢٦] كما اعتمد معاوية بن أبي سفيان على عناصر عربية يمنية تنتمي الى قضاعة ، كانت قد استقرت في مشارف الشام قبل نزوح الأزد الغساسنة[٢٧] .

ج ـ ارتباط مصر والشام واتحادهما في العمليات الحربية ضد البيزنطيين:

أدى الموقع الجغرافي لمصر وبلاد الشام والمصالح السياسية والاقتصادية المشتركة قيام روابط وثيقة بين القطرين الشقيقين منذ أقدم العصور التاريخية ، تدل عليها بعض المظاهر الحضارية في الاقتصاد ، وفي الفكر والدين والفن[٢٨] وقد تعززت هذه الصلات التاريخية ، وتوثقت الروابط الاقتصادية والسياسية عبر التاريخ القديم والتاريخ الوسيط ، بحيث ارتبط البلدان بمصير واحد في معظم الأوقات ، فتعرضا للسيطرة الفارسية واليونانية والرومانية في العصر القديم ، وخضعا للدولة البيزنطية ، ثم دخلا في فلك الدولة العربية الاسلامية ، وارتبطا بوحدة وثيقة زمن الطولونيين والاخشيديين والفاطميين والأيوبيين والمماليك ، وأصيبا بكارثة الغزو الصليبي ، والغزو المغولي والغزو العثماني .

وأدرك العرب حقيقة التلاحم والتواصل بين البلدين الشقيقين منذ الفتح العربي الاسلامي للشام ، فاستلزم فتح الشام فتح مصر . وفي عصر الراشدين خاض الاسطول المصري مع الاسطول الشامي المعارك البحرية ضد البيزنطيين ، وفيها اشترك مقاتلة من المسيحيين مع اخوانهم المسلمين ، وفطن معاوية منذ

٢٥ـ الهمداني ـ مختصر كتاب البلدان طبعة ليدن ١٨٨٥ ص ٦٦ .
٢٦ـ الكندي ـ كتاب الولاة والقضاة تحقيق رفن جست بيروت ١٩٠٨ ص٣٨.
٢٧ ـ عبد العزيز سالم ـ دراسة في تاريخ مدينة صيدا في العصر الاسلامي بيروت ١٩٧٠ ص ٣٤ـ٣٥ـ٤٣ـ٤٨ .
٢٨ـ المسعودي ـ التنبيه والاشراف طبعة بيروت ص ١٨٦ .

بداية الصراع بينه وبين الخليفة الراشد علي بن أبي طالب الى أهمية ضم مصر الى سلطانه ، فضمها الى الشام قبل اجتماع الحكمين في دومة الجندل حرصا منه على ضمان التفوق البحري • ومنذ ذلك الوقت أصبح تاريخ مصر هو تاريخ الشام ومصير مصر مصيره ، وتساند البلدان في المحن وتكاتفاً في الأزمات ، فكانت مصر خلال مراحل الكفاح كلها ، وعليها وقع عبء النضال في معظم فترات التاريخ الوسيط ضد قوى العدوان لاسيما الصليبي والمغولي ، الذي انحصر هدفه على سحق قوى مصر وقهرها[٢٩] وكان للشام أيضا الفضل الاكبر في انقاذ مصر والدفاع عنها عندما انتهز الصليبيون فرصة ضعفها ، وحاولوا الاستيلاء عليها زمن الخليفة الفاطمي العاضد ، وشهدت مصر صراعا عنيفا بين نور الدين محمود بن زنكي الداعي الى تأليف جبهة عربية متحدة وبين الصليبيين في سبيل ضم مصر[٣٠] •

وكان لتضامن مصر والشام في مرحلة التحدي البيزنطي لقوى العرب بعد حركة الفتوحات العربية ، ووقوف البلدين معا ابان عمليات الغزو البحري ، التي كان يوجهها البيزنطيون الى سواحل الشام ومصر ، أكبر الاثر في تحقيق أمل معاوية في انشاء بحرية عربية ، ولم تبخل مصر عليه بخبرات ملاحيها وصناعها ، الذين تخصصوا في سد ثغرات السفن واستخدام المسامير الحديدية في بنائها[٣١] وكان من أثر التعاون الوثيق هذا قيام بحرية عربية شاميّة مصرية مشتركة ، حولت خطط العرب من استراتيجية دفاعية الى هجومية في مرحلة مبكرة للغاية من تاريخهم ، وعمرت صفحات هذا التاريخ بالامجاد والمفاخر والبطولات •

٢٨ـ رشيد الناضوري ـ أقدم صلات حضارية بين مصر ولبنان ـ مجلة كلية الاداب ـ جامعة الاسكندرية ١٩٦٨ •

٣٠ـ جوزيف نسيم ـ الوحدة وحركات اليقظة إبان العدوان الصليبي ـ الاسكندرية ١٩٦٧ ص ٥١ •

٣١ ـ جمال الدين الشيال ـ وحدة مصر وسورية في العصر الاسلامي ـ محاضرات جامعة الاسكندرية ١٩٥٨ ص ٩ •

٣ ـ اهم الوقائع البحرية بين العرب والبيزنطيين حتى نهاية العصر الاموي :

خاض العرب ثلاثة وقائع هامة ضد البيزنطيين ، نجحوا في بعضها وفشلوا في بعضها الآخر وهي :

موقعة ذات الصواري :

تذكر المصادر العربية الى أن معاوية بن أبي سفيان خرج مع أهل الشام ومصر في أسطول كبير ، تولى قيادته عبد الله بن سعد ، مستهدفا مهاجمة الدولة البيزنطية في أراضيها ، وبلغت هذه الانباء قنسطانز ، فأخذ يستعد لمعركة صعبة ، فأعد أسطولا كبيرا من ٥٠٠ سفينة وقيل ٦٠٠ وقيل ٧٠٠ ، وذلك للانتقام من العرب لما أصابهم على أيديهم في افريقية[٣٢] .

وقد حدثت ذات الصواري في منطقة ليكيا على ساحل آسيا الصغرى ، حيث هال العرب منظر البحر وقد امتلأ سفنا بيزنطية . ومع ذلك فقد اشتبكت سفن العرب مع سفن الروم في معركة عنيفة ، فربط العرب سفنهم بعضها الى بعض ، وحولوا المعركة البحرية الى معركة أقرب ما تكون الى المعارك البرية ، واشتد القتال من الجانبين أعداد هائلة ، واختلطت دماء القتلى بمياه البحر ، حتى قيل أنها صبغته بلونها الاحمر القاني ،وطرحت الامواج جثث الرجال ركاما[٣٣] ولكن المعركة انتهت بانتصار حاسم للعرب[٣٤] وبهذا الانتصار الكبير ثبتت للعرب السيطرة على حوض البحر المتوسط والتفوق على البيزنطيين[٣٥] .

حصار المسلمين الاول للقسطنطينية (٥٤ـ٦٠هـ / ٦٧٣ـ٦٧٩):

مهد معاوية بن أبي سفيان للحروب التي خاضتها قواته البحرية والبرية حول

٣٢ـ أحمد مختار العبادي ـ دراسات في تاريخ المغرب والأندلس ص ٤ .
٣٣ـ ابن عبد الحكم فتوح مصر والمغرب ص ٢٥٦ الطبري ج٥ ص ٦٩ .
٣٤ـ الطبري ج٥ ص ٧٠ .
٣٥ـ ابن عبد الحكم ـ فتوح مصر والمغرب ص ٢٥٥ ـ ٢٨٥ الطبري ج٣ ص ٦٩ ـ ٧١ .

القسطنطينية نفسها فيما بين عامي ٥٤ ــ ٦٠ هـ بحملات استطلاعية برية وبحرية متتابعة بقصد دراسة الطرق المؤدية الى الحاضرة البيزنطية نذكر من بينها شاتية بسر بن أبي أرطأة بأرض الروم في سنة ٤٣ هـ التي بلغ فيها القسطنطينية ، وفقاً لما رواه الواقدي ، وان كان فئة من المؤرخين طعنوا في صحة هذا التاريخ (٣٦) وحركة بسر البحرية فيسنة ٤٤ هـ ، وشاتية مالك بن عبيد الله بأرض الروم في سنة ٤٦ هـ ، وشاتية مالك بن هبيرة بأرض الروم سنة ٤٧ هـ ، وصائفة عبد الله ابن قيس الفزاري بحراً ، وغزوة مالك بن هبيرة السكوني بحراً ، وغزوة عقبة بن عامر الجهني بأهل مصر في البحر سنة ٤٨ هـ . وفي سنة ٤٩ هـ أرسل معاوية حملة برية لغزو القسطنطينية بقيادة سفيان بن عوف ، ثم أردف به ابنه يزيد بعدما أصاب المسلمين في غزواتهم جوع ومرض شديدين ، وصحب يزيد بن معاوية معه ابنه عباس وابن عمر وابن الزبير وأبو أيوب الأنصاري (٣٧) فأوغلت الحملة في بلاد الروم حتى بلغ العرب القسطنطينية ، واشتبكوا مع البيزنطيين في قتال عنيف ، وتفانى العرب في القتال ، واستشهد من أبناء الصحابة عبد العزيز بن زرارة الكلابي ، فبلغ خبر استشهاده معاوية بن أبي سفيان فقال فيه : « والله هلك فتى العرب » (٣٨) . وفي هذه الوقفة توفي أبو أيوب الانصاري ، وهو يحاصر القسطنطينية فدفن بالقرب من سورها ، وعاد يزيد بعد ذلك مع جيشه الى الشام في العام نفسه .

وظل العرب يهاجمون الاراضي البيزنطية صيفا وشتاء في البر والبحر حتى استولى الاسطول على أزمير وليكيا ، كما استولى على جزيرة رودس وكوسي وخيوس ، وفي سنة ٥٤ هـ بدأ الحصار الفعلي للقسطنطينية ، واستدعى الامر تعزيز القوة البحرية فانضم الى الاسطول العربي المرابط في مياه القسطنطينية أسطول عربي بقيادة جنادة بن أبي أمية ، استولى على جزيرة أرواد القريبة من

٣٦ــ ابراهيم العدوي ــ الدولة الاسلامية وامبراطورية الروم ص ٦٤ .
٣٧ــ الطبري ج٦ ص ١٠٢ .
٣٨ــ الطبري ج٦ ص ١٣٠ ابن الأثير ج٢ ص ٤٥٨ .
٣٩ــ ابن الاثير ج٢ ص٤٥٩ .

القسطنطينية[٤٠] فاتخذها العرب قاعدة بحرية أمامية لإمداد الجيش المحاصر للعاصمة البيزنطية بالميّرة والسلاح والرجال ، ولقطع الطريق على سفن الروم . ولقطع الطريق على سفن الروم. وأحكم العرب الحصار البري والبحري طوال العام، اشتبكت خلاله سفن بيزنطة مع السفن العربية ، كما استمرت المعارك البرية تدور بين الجيشين العربي والبيزنطي . ثم اضطر العرب الى فك الحصار على القسطنطينية عندما حل الشتاء ، وأقام العرب في أرواد انتظارا لحلول الربيع لكي يستأنفوا عملياتهم الحربية ، فلما حل الربيع تابع العرب حصار القسطنطينية ،ولكنها استعصت عليهم ، وتكرر ذلك عدة سنوات حتى سنة ٦٠هـ ، أبدى خلالها العرب كثيراً من ضروب البسالة والاقدام على الرغم من توسل البيزنطيين في الدفاع بوسائل كيميائية لا طاقة للعرب بمكافحتها ودفع خطرها ، فقد استخدم الدفاع البيزنطي النار البحرية ، التي عرفت فيما بعد بالنار اليونانية[٤٠] كوسيلة دفاعية تسببت في حرق عدد كبير من قطع الاسطول العربي ، وفي بث الذعر والهلع في نفوس المحاصرين للمدينة، وأدرك معاوية في آخر أيامه استحالة الاستمرار في محاصرة القسطنطينية بسبب استخدام المدافعين عنها هذا السلاح الفتاك ، وبخاصة وقد أستنزف الحصار قواهم وتحطم العديد من سفنهم ، فعقد مع قسطنطين الرابع امبراطور الدولة البيزنطية معاهدة صلح في سنة ٦٧٩م مدتها ثلاثون عاما[٤١] .

حصار العرب الثاني للقسطنطينية ٩٨ ـ ٩٩ هـ (٧١٧ ـ ٧١٨ م) :

لم يثبط الفشل الذي صاحب محاولة معاوية في فتح القسطنطينية همم خلفاء بني أمية من بعده في معاودة الكرة ، ولم يقض على آمالهم في محاولة فتحها من جديد . والواقع أن الفكرة ظلت تراود الخلفاء المروانيين بعد مروان بن الحكم ، ولكن وضعها موضع التنفيذ كان يحتاج لدراسة وافية وإعدادات مسبقة ، واستعدادات كاملة . وبدأ الاستعداد للحصار الثاني منذ بداية عهد الوليد بن عبد

٤٠ـ الطبري ج٦ ص ١٦٤ ابن الاثير ج٣ ص ٤٩٧ .
٤١ ـ محمد عبد الله عنان ـ مواقف حاسمة في تاريخ الاسلام القاهرة ١٩٣٤ ص ١٠٢ وكانت النار اليونانية تتركب من نفط سريع الالتهاب ومن الكبريت والقار بنسب غير معروفة . وكان هذا التركيب يزداد اشتعالا عند ملامسته الماء ، ولا يخمد الا باستخدام الرمل والخل .

الملك ، الذي تابع سياسة تقوية الاسطول العربي ، وعمل على تنسيق التعاون بين القوتين البرية والبحرية وخلق مناخ طيب للعمليات الحربية ضد الامبراطورية البيزنطية • واتخذ الوليد من منطقة الثغور بآسيا الصغرى مجالاً لتدريبات قواته• وفي سنة ٩٤هـ ، بدأ يعد حملة بحرية برية بقيادة أخيه ملسمة بن عبد الملك ، وما ان ترامت أخبار هذه الاستعدادات الى السلطات البيزنطية حتى بدأت تهتم بتدعيم وسائل الدفاع عن أسوار القسطنطينية كما عنيت بتقوية الدفاع البحري تمهيداً لحصار قد يطول أمده كما حدث في الحصار الأول • لكن وفاة الخليفة الوليد أدت الى إرجاء إنقاذ الحملة الى مقصدها ، فلما اعتلى سليمان عرش الخلافة ، أخذ يجهز الجيوش للسير الى القسطنطينية ، مدفوعاً بنبوءة تواترت على ألسن الفقهاء ، ومهد لذلك بغزوة بحرية بقيادة عمر بن هبيرة الفزاري على بلاد الروم في سنة ٩٧هـ(٤٢) وفي العام الثاني حشد سليمان قوات كثيفة برية وبحرية زوّدها بمقادير هائلة من المؤن والأقوات والسلاح لحرب طويلة الأمد ، بقيادة أخيه مسلمة ، وأمره بأن يتوجه الى القسطنطينية وأن يقيم عليها حتى يفتحها أو يأتيه أمره •

وأقام سليمان في دابق ، وتعهد بأن لا ينصرف حتى يدخل الجيش الذي وجهه الى الروم القسطنطينية (٤٣) ولما توغل مسلمة بن عبد الملك في اسيا الصغرى ،هابه الروم ، فاتصل به قائد أرمني اسمه (ليو) كان يتطلع الى الظفر بالعرش الامبراطوري، ويدبر أمره لانتزاعه من ثيودوسيوس الثالث الذي ولاه الجند في سنة ٧١٦م بعد أن عزلوا أنستاسيوس الثاني ، فاتفق ليو مع مسلمة على خطة تتيح للعرب فتح القسطنطينية ، وما كاد يصل الى القسطنطينية حتى غرر بهم وخدعهم بعد أن تحايل على تجريدهم من كل أقواتهم(٤٤) وتشير المصادر البيزنطية الى أن ليو الارمني ، الذي اعتلى العرش باسم ليو الثالث الأيسوري دخل القسطنطينية حيث توج امبراطوراً في سنة ٩٨هـ / ٧١٧م • أما مسلمة فقد تابع سيره حتى وصل الى مشارف القسطنطينية في أواخر سنة ٩٨هـ بقيادة جيش عدته ثمانون ألف مقاتل

٤٢ــ محمد عبد الله عنان ــ المرجع السابق ص ٣٢ــ٣٦ •
٤٣ ــ الطبري ج٥ ص ١١٣ ابن الاثير ج ٥ ص٢٦ •
٤٤ــ الطبري ج٨ ص ١١٨ •

سوى ما اجتمع للعرب تحت أسوار العاصمة في البر والبحر . وحاصر مسلمة القسطنطينية برا وبحرا ، ونصب عليها المجانيق ، ولكن أسوار المدينة المنيعة وقوة الدفاع البيزنطي وفعاليّة النار اليونانية ردت العرب عن اقتحام العاصمة البيزنطية موجة بعد موجة من الهجوم . ومع ذلك فقد واصل مسلمة بعناد محاصرة المدينة وشدد الضغط عليها ، وحفر حول معسكره حفيراً عميقاً ، وانتسف المزارع القريبة ، ومنع الأقوات من التسرب الى داخلها ، اما الاسطول فقد رابطت قطعه حول المدينة ، وتشير الروايات البيزنطية الى أن قطع الاسطول العربي بلغت نحو ١٨٠٠ سفينة كبيرة كان يتولى قيادتها قائد يقال له سليمان ، لعله سليمان بن معاذ الأنطاكي أحد قادة الحملة ، وتمكن هذا الاسطول الضخم من إغلاق الممرات المؤدية الى البحر الأسود ، ولكن عاصفة عاتية حطمت عدداً من السفن وسببت خللاً في مسيرته ، فانتهز البيزنطيون هذه الفرصة ، وسلّطوا نيرانهم اليونانية على السفن العربية ، وأحرقوا عددا كبيرا منها . واستمر العرب على الرغم من ذلك يحكمون الحصار على المدينة طوال السنة ،الى أن توفي سليمان بن عبد الملك سنة ٩٩هـ ،وقد حلّ الشتاء ببرده وثلجه ، فهلك عدد كبير من المعسكر العربي من شدة البرد ، ونفقت معظم الخيول والدواب ،وقلت الاقوات ، كما توفي قائد الاسطول ، وسببت وفاته اضطراباً في صفوف البحريين ، وحل الضيق والقحط بعسكر العرب ، حتى أكل الجند الدواب والجلود وأصول الشجر والورق وكل شيء غير التراب(٤٥) وبقي الأمر كذلك الى أن كتب الخليفة الجديد عمر بن عبد العزيز الى مسلمة بن عبد الملك وهو بأرض الروم ،يأمره بالقفول عنها بمن معه من العرب ، ووجه اليه عتاقاً وطعاماً كثيراً ، وحث الناس على معونتهم (٤٦) .

ويُعد فشل العرب في السيطرة على القسطنطينية للمرة الثانية حدثاً من أهم الاحداث في العصور الوسطى ، كتب للامبراطورية البيزنطية البقاء بخروجها ظافرة من محنة الحصار ، وبقيت تحتفظ بهيبتها أمام دول الغرب الاوروبي فترة طويلة .

٤٥ــ الطبري ج٨ ص ١١٨ .
٤٦ــ الطبري ــ ج٨ ص ١١٨ .
٤٧ــ الطبري ج٨ ص ١٣٠ .

الفصل الرابع عشر

العلاقات العربية ـ البيزنطية

في العصر الأموي

١ ـ العلاقات العربية ـ البيزنطية قبل الاسلام :

بدأت العلاقات العربية ـ البيزنطية منذ نشوء بيزنطة في أوائل القرن الرابع الميلادي ، عندما نقلت عاصمة الامبراطورية الرومانية من روما الى القسطنطينية في سنة ٣٣٠ ميلادية . وفي القرن السادس الميلادي استعان البيزنطيون بالعرب الغساسنة المقيمين في سورية ، واعتمدوا عليهم في صراعهم مع الفرس الساسانيين ، في حين اعتمد الفرس على العرب المناذرة (المقيمين في العراق) في صراعهم مع الروم البيزنطيين [١] .

٢ ـ العلاقات العربية ـ البيزنطية في عهد الرسول العربي الكريم :

بدأ الصراع المسلح بين العرب المسلمين والروم البيزنطيين على يد الرسول العربي الكريم (محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم) . فبعد أن وضع الرسول أسس الدولة العربية الاسلامية في شبه الجزيرة العربية ، وجّه رسالة الى الامبراطور

---

١ ـ للمزيد من المعلومات راجع : الدكتور نعيم فرح : تاريخ بيزنطة السياسي ، منشورات جامعة دمشق ، ١٩٩١ ـ ١٩٩٢ ، ص ١١٦ـ١١٨ .

البيزنطي هرقل (عظيم الروم) دعـاه فيها الى الاسلام ، فردّ هرقل على الرسـالة رداً حسناً ، لكنه لم يستجب لطلب الرسول ولم يدخل في الاسلام[٢] .

وفي سنة ٦٢٩ ميلادية (٨ هـ) أنفـذ الرسول العربي الكريم حملة عسكرية الى حدود الروم (البيزنطيين) بقيادة زيد بن حارثة ، فاصطدمت مع جيش بيزنطي عند مدينة مؤتـة ، ثم تراجعت بقيادة خالد بن الوليد ، بعد أن قُتل قائدها زيـد مع جعفر بن أبي طالب وغيره من المسلمين . وهكذا كانت وقعة مؤتـة أول معركة يخوضها العرب المسلمون مع الروم البيزنطيين[٣] .

وفي سـنة ٦٣٠ ميلادية (٩ هجرية) قام الرسول العربي الكريم بنفسه الى حدود الروم ، فوصل الى تبوك ، لكنه لم يشتبك مع الروم ، وانما صالح أهـل جرباء وازرع ومقنا وأيلـة ودومة الجندل على جزية يدفعونها في كل عام [٤] .

وفي سنة ٦٣٢ ميلادية (١١ هجرية) أعـدّ الرسول العربي الكريم جيشـاً لمهاجمة الروم وأقر عليه أسامة بن زيد بن حارثة (الذي استشهد والده في معـركة مؤتـة) ، لكن الرسول توفي قبل أن يتحرك ذلك الجيش الى حدود الروم[٥] .

٣ ـ العلاقات العربية ـ البيزنطية في عهد خليفة الرسول أبي بكر الصديق :

على الرغم من انشغال الخليفة أبي بكـر الصديق بإخماد حركات الردة عـن الاسلام، أنفذ بعث أسامة كما أمر به رسول الله ، فغزا أسامة يُبنَة وسَلِم وغنِم وعـاد في أربعين يوماً[٦] .

وبعد انتهاء حروب الردة أعدّ الخليفة أبو بكر الصديق أربعة جيوش وسيّرها الى الشام بقيادة أبي عبيدة بن الجراح وعمرو بن العاص ويزيـد بن أبي سفيان

---

٢ ـ الطبري : تاريخ الامم والملوك ، طبعـة دار سويـدان ، بـيروت ، ج٢ ، ص٦٤٤ ـ ٦٥٧ (أخبار سنة ٦ هـ) .
٣ ـ الطبري : الامم والملوك ، ج٣ ، ص ٣٦ـ٤٢ (أخبار سنة ٨هـ) .
٤ ـ الطبري : الامم والملوك ، ج٣ ، ص ١٠٠ـ١١١ (أخبار سنة ٩ هـ) .
٥ ـ الطبري : الامم الملوك ، ج٣ ، ص ١٨٤ (أخبار سنة ١١هـ) .
٦ ـ الطبري : الامم والملوك ، ج٣ ، ص ٢٢٥ـ٢٢٧ (أخبار سنة ١١ هـ) .

وشرحبيل بن حسنة • وفي جنوب الشام دارت عدة معارك بين المسلمين والروم البيزنطيين كانت أعظمها معركة اجنادين (في سنة ٦٣٤م/١٣هـ) ، التي غُلبت الروم فيها وانتصر المسلمون(٧) •

٤ ـ العلاقات العربية ـ البيزنطية في عهد الخليفة عمر بن الخطاب :

نظم الخليفة عمر الجيوش وعقد لواء قيادتها الى خالد بن الوليد ، الذي انطلق بقواته الى الشام (في سنة ٦٣٥م/١٣ هـ) ، فانتصر على الروم في فحل ومرج الصفر ، وفتحت دمشق وحمص وحماه وشيزر وبعلبك وغيرها من المدن السورية أبوابها لخالد • في تلك الأثناء كان الامبراطور البيزنطي هرقل يجمع الجيوش في انطاكية ، فتجمّع له من الروم والأرمن والعرب خمسون ألفاً ، فأنفذهم بقيادة أخيه تيودوروس لإجلاء الجيش العربي الاسلامي من المدن السورية • ولما علم خالد بن الوليد بذلك انسحب بقواته الى موقع استراتيجي على نهر اليرموك وتربّص لعدوه هناك ومعه من الرجال خمسة وعشرون ألفاً • وفي الثاني والعشرين من آب سنة ٦٣٦ ميلادية (١٥ هـ) خاض العرب المسلمون معركة اليرموك ، فقتل الكثيرون من الروم وفرّ الباقون (٨) •

ومن اليرموك اتجه العرب المسلمون شمالاً ، فاستولوا على مدن سورية الداخلية دون مقاومة ، حيث وقف سكان البلاد من العرب المسيحيين الى جانب إخوتهم المسلمين واستقبلوهم استقبال المنقذين من الظلم المسيحي اليوناني ـ الروماني •

وفي الوقت نفسه كان جيش عربي إسلامي آخر يقاتل الفرس في العراق ، فانتصر على الجيش الفارسي في معركة القادسية (في سنة ٦٣٧م / ١٦ هـ) ، ثم أخذ يتوغل في الأراضي الايرانية(٩) •

٧ ـ البلاذري : فتوح البلدان ، مطبعة السعادة بمصر ، ١٩٥٩ ، ص ١١٥ ـ ١٥٠ (فتوح الشام).

٨ ـ البلاذري : فتوح البلدان ، ص.١٤٠ـ١٤٣ (يوم اليرموك) .

٩ ـ البلاذري : فتوح البلدان ، ص ٢٥٥ـ٢٦٢ (يوم القادسية).

كذلك قـاد عمرو بن العاص جيشاً الى مصر (في سـنة ٦٤٠م / ١٩ هـ) ، فدانت له وغادرها البيزنطيون [١٠] • وهكذا لم يلفظ الامبراطور البيزنطي هرقـل أنفاسه الأخيرة (في سنة ٦٤١) حتى رأى بعينيه جميع الولايات الشرقية العـربية (سورية وفلسطين والعراق ومصر) التي استعادها من الفرس (في سنة ٦٢٨ م) تتساقط تبـاعاً بأيدي العرب المسلمين[١١] •

٥ ـ العلاقات العربية ـ البيزنطية في عهد الخليفة عثمان بن عفان :

في عهد الخليفة عثمان رسخت أقدام العرب المسلمين في مصر وسورية والعراق، مما مكّنهم من توجيه أنظارهم الى فتح أرمينيا وآسيا الصغرى وجزر البحر الأبيض المتوسط • لقد شـنّ العرب المسلمون عدة غارات على أرمينيا ، كما استولوا على مدينة قيسارية في آسيا الصغرى (في سنة ٦٤٧ م) وهاجموا بعض المدن البيزنطية الأخـرى [١٢] • ولكي يستطيع العرب المسلمون دخول البحر الأبيض المتوسـط شرع والي الشام معاوية بن أبي سفيان بإنشاء أسطول بحري ، فتمكن من احتلال قبرص من البيزنطيين (في سنة ٦٤٩م / ٢٨ هـ) ، واحتلال ارواد (في سنة ٦٥٠م)، واحتلال رودوس (في سـنة ٦٥٤م) ، ممهـداً بذلك الطـريق لاحتلال العاصمة البيزنطية (القسطنطينية) • وفي سنة ٦٥٥ ميلادية (٣١ هـ) حقق العرب المسلمون نصراً عـلى الروم البيزنطيين في معـركة بحريـة تعرف باسـم « معـركة ذات الصواري »[١٣]• بعد ذلك أوقف العرب المسلمون أعمالهم الحربية ضدّ البيزنطيين بسبب مقتل الخليفة عثمان ونشوب الصراع على الخلافة بين عليّ ومعاوية •

٦ ـ العلاقات العربية ـ البيزنطية في عهد الخليفة الاموي معاوية بن ابي سفيان :

في سنة ٦٦١ ميلادية قُتل الخليفة عليّ بن أبي طالب ، وتنازل ابنـه الحسن عن الخلافة لمعاوية ، فتوقفت الاضطرابات الداخلية في الدولة العربية الاسـلامية •

١٠ـ البلاذري : فتوح البلدان ، ص٢١٤ـ٢٢٥ (فتوح مصر والمغرب).
١١ـ للمزيد من المعلومات راجع : الدكتور نعيم فرح : تاريخ بيزنطة السياسي، ص١٥١ـ١٥٩ .
١٢ـ البلاذري : فتوح البـلدان ، ص ٢٠٠ ـ ٢١٣ (فتـوح ارمينية) .
١٣ـ الطبري : الأمم والملوك ، ج٤ ، ص ٢٨٨ ـ ٢٩٢ (أخبار سنة ٣١ هـ).

وعندما استتبت الأوضاع لمعاوية بن أبي سفيان استأنف القتال مع الروم وشنّ عليهم الحروب في البر والبحر • وقد نظم معاوية الصوائف والشواتي لغزو بلاد الروم ، وهي حملات عسكرية يقوم بها الجيش العربي الاسلامي في الصيف وفي الشتاء من كل عام ، إذ يغير على أراضي البيزنطيين في آسيا الصغرى لاختبار قوة العدو وإيقاع الأذى به وأخذ ما يمكن أخذه من غنائم • واشتهر من بين قادة الصوائف والشواتي : عبد الرحمن بن خالد بن الوليد ، مالك بن هبيرة ، بسرُ بن أبي أرطأة ، سفيان بن عوف الأزدي ، فضالة بن عبيد الأنصاري وغيرهم • ويحدثنا صاحب كتاب االأغاني عن صائفة أرسلها معاوية بقيادة ابنه يزيد وفضالة بن عبيد الأنصاري • وكان هدف معاوية من ذلك إظهار ابنه يزيد كعبقرية عسكرية تصلح لقيادة المسلمين ، ولنفْي تهمة المجون عنه (١٤) • وقد اشترك في تلك الحملة كبار رجال الصحابة وعلى رأسهم أبو أيوب الأنصاري ، الذي استشهد ودفن بالقرب من أسوار العاصمة البيزنطية •

وكان الجيش العربي الاسلامي قد فتح أرمينيا بقيادة حبيب بن مسلمة عندما كان معاوية والياً على الشام من قبل الخليفة عثمان • ولكن عندما دار الصراع بين عليّ ومعاوية على الخلافة ، اضطر معاوية لسحب قواته من أرمينيا ، مما أتاح الفرصة للبيزنطيين لاستعادة أرمينيا وإخضاعها لسلطتهم • ولكن عندما انتهى الصراع بين عليّ ومعاوية وصار معاوية حاكماً ، أرسل الى أرمينيا جيشاً (في سنة ٦٦٨ م) تمكن من طرد القوات البيزنطية منها وفرض السيادة العربية عليها •

بعد أن حقق الجيش العربي الاسلامي انتصارات عديدة على البيزنطيين في البر والبحر ، قرّر الخليفة الأموي معاوية بن أبي سفيان العمل على احتلال العاصمة البيزنطية (القسطنطينية) • وعلى هذا انطلقت السفن العربية من الموانىء الشامية والمصرية (في سنة ٦٧٣ م) وحاصرت القسطنطينية • وظلّ الأسطول العربي يحاصر

---

١٤ ــ الدكتور نبيه عاقل : خلافة بني أمية ، دمشق ١٩٧٢ ، ص ٨٤ ــ ٨٧ ، كتاب الأغاني لأبي الفرج الاصبهاني ، الجزء ١٧ ، تحقيق علي محمد البجاوي ، القاهرة ١٩٧٠ ، ص ٢١٠ •

العاصمة البيزنطية نحو سبع سنوات ، لكنه لـم يتمكن من احتلالهـا ، إذ كانت تصدّه عنها السفن البيزنطية بالنار اليونانية المحرقة ، التي اخترعها مهندس سوري للبيزنطيين • وأخـيراً في سنة ٦٧٩ ميلادية انسحبت السفن العـربية من ميـاه القسطنطينية • ويذكر المؤرخ البيزنطي تيوفانس أن السفن العربية في أثناء عودتها هبّت عليها عاصفة هوجاء ، فلم تنج من الغرق سوى سفن معدودة[١٥] •

وهكذا ، للأسف ، فشلت محاولة العرب الأولى في احتلال العاصمة البيزنطية• بعد ذلك اضطر معاوية أن يوقع معاهدة سلام مع البيزنطيين مدتها ثلاثون عامـاً ، يدفع العرب بموجبها للبيزنطيين أتاوة سنوية مقدارها خمسون عبـداً وخمسون جواداً وثلاثـة آلاف دينار ذهبي [١٦] •

٧ ـ العلاقات العربيةـ البيزنطيةفي عهد عبد الملك بن مروان (٦٨٥ـ٧٠٥م):

عندما علم الامبراطور البيزنطي جستنيانوس الثاني (٦٨٥ ـ ٦٩٥ ، ٧٠٥ ـ ٧١١ م) باضطراب الأوضاع الداخلية في الدولة العربية الاسلامية بعد وفاة الخليفة يزيد بن معاوية، نقضَ معاهدة السلام مع العرب التي وقّعها معاوية بن أبي سفيان، وأرسل جيوشه لقتالهم في قبرص وأرمينيا • ولما كان الخليفة عبد الملك بن مروان منشغلاً بإخضاع منافسيه على الحكم وتثبيت دعائم سلطته ، فقد اضطر الى شراء الصلح مع البيزنطيين ، فوقّع معاهدة مع الامبراطور جستنيانوس الثاني تعهّد فيها أن يقدّم له أتاوةً سـنوية تفوق ما كان يقدّمه معاوية ، كما وافق أيضاً عـلى أن تتقاسم دمشق والقسطنطينية الضرائب التي تُجمع من قبرص وأرمينيا[١٧] • وقد أتاحت تلك المعاهدة الفرصة لعبد الملك كي ينصرف الى معالجة مشاكله الداخلية ، كما أتاحت الفرصـة لجستنيانوس الثاني أن ينصرف لمحاربة السلاف الذين غمروا البلقان وهددوا العاصمة البيزنطية بالاحتلال •

١٥ـ تيوفانس : خرونوغرافيا ، ص ٥٤٠ ـ ٥٤٢ .

١٦ـ الدكتور ابراهيم أحمد العدوي : الأمويون والبيزنطيون ، الدار القومية للطباعة والنشر ، القاهرة ، الطبعة الثانية ، ص ١٧٥ .

١٧ ـ البلاذري : فتوح البلدان ، ص ١٦٤ (أمر الجراجمة) ، الطبري : الامـم والملوك ، ج٦ ، ص ١٥٠ (أخبار سنة ٧٠ هـ) .

لكن عبد الملك بن مروان حقق مقابل تلك الخسارة المادية كسباً سياسياً كبيراً، إذ تمكن من اقناع الامبراطور جستنيانوس الثاني بنقل المردة (الجراجمة) من جبال اللكّام الى سواحل آسيا الصغرى والبلقان ، فتخلصَ العرب من غاراتهم التخريبية على المدن السورية ، ومن وقوفهم في وجه الجيوش العربية الاسلامية في أثناء عبورها الى آسيا الصغرى . وينتقد المؤرخ البيزنطي تيوفانس في القرن التاسع الميلادي (في حولياته التي تسمى باليونانية خرونوغرافيا) الخطأ الذي ارتكبه جستنيانوس الثاني بنقل الجراجمة من جبل اللكّام ، إذ كسرَ ذلك الستار الحديدي وجعل الحدود البيزنطية الشرقية مفتوحة أمام العرب[18] .

عندما استتبَ الحكمُ لعبد الملك بن مروان نقض معاهدة السلام مع البيزنطيين ، بحجة أن الامبراطور جستنيانوس الثاني نقل بعض البحارة من قبرص الى جزيرة سيزيكوس القريبة من القسطنطينية ، في حين يعدُّ عبد الملك جزيرة قبرص من الممتلكات العربية . وعلى ذلك أرسل عبد الملك جيشاً الى أرمينيا (في سنة ٦٩٢ م/٧٣ هـ) فاصطدم مع الجيش البيزنطي عند مدينة سيباستوبوليس وألحق به الهزيمة[19] .

وفي تلك المعركة انقلبت العناصر السلافية التي كانت تحارب في صفوف البيزنطيين الى جانب العرب المسلمين ، لأن الامبراطور جستنيانوس الثاني كان قد نقلهم بالقوة من البلقان الى آسيا الصغرى . وقد أسكن عبد الملك هؤلاء الجنود السلاف في سورية واستعملهم فيما بعد في حروبه مع البيزنطيين[20] . وتابع العرب المسلمون غاراتهم في آسيا الصغرى ، فحققوا انتصارات على البيزنطيين، وساعدتهم على الانتصار الاضطرابات التي جرت في بيزنطة بنتيجة عزل الامبراطور جستنيانوس الثاني عن العرش في سنة ٦٩٥ ميلادية .

---

١٨ — راجع : الدكتور ابراهيم أحمد العدوي : الامبراطورية البيزنطية والدولة الاسلامية ، لقاهرة ١٩٥١ ، ص ٥٩ .

١٩ — الطبري : الامم والملوك ، ج٦ ، ص١٩٤ (أخبار سنة ٧٣ هـ) .

٢٠ — الدكتور نعيم فرح : تاريخ بيزنطة ، منشورات جامعة دمشق ، ١٩٨٥ ، ص ٢٤١ .

كذلك اهتم عبد الملك بن مروان بمتابعة الفتوح في شمال افريقيا ، فعيّن حسان بن النعمان النعساني والياً عليها (في سنة ٧٣ أو ٧٤ هـ) وسيّره إليها على رأس جيش كبير . وقد تمكن ذلك الجيش من تحرير قرطاجة من سلطة الروم البيزنطيين (كان الرومان قد احتلوا قرطاجة العربية الكنعانية في سنة ١٤٦ قبل الميلاد) ، كما تابع زحفه نحو الغرب ، فهزم الروم البيزنطيين في عدة مواقع .

لكن الامبراطور البيزنطي ليونتيوس (٦٩٥ — ٦٩٨ م) أرسل اسطولاً الى شمال افريقيا ، فتمكنت قواته من طرد العرب المسلمين من قرطاجة في سنة ٦٩٨ ميلادية . غير أن النجدات العربية التي جاءت من الشام الى شمال افريقيا تمكنت من طرد القوات البيزنطية من قرطاجة[٢١] .

كذلك قاتل جيش حسان الأموي قبائل الأمازيغ ، وهي قبائل عربية خليطة من سكان البلاد الأصليين والقبائل العربية التي هاجرت قديماً الى شمال افريقيا ويُطلق عليها خطأً اسم « البربر » . وكانت تتزعم تلك القبائل امرأة من قبيلة جراوة تُعرف باسم « الكاهنة » . وقد خاض الجيش الأموي عدة معارك مع جيش الكاهنة ، انتهت بمقتل الكاهنة وخضوع شعبها للحكم العربي الاسلامي[٢٢] . وظل حسان بن النعمان والياً على شمال افريقيا حتى وفاة عبد الملك بن مروان واعتلاء الوليد عرش الخلافة في دمشق . وقد ولّى الوليد أخاه عبد الله بن عبد الملك ، فعزل عبد الله حسان بن النعمان عن ولاية افريقيا وولّى عليها موسى بن نصير (في سنة ٨٩ هـ) ، لأن ولاية افريقيا كانت تتبع والي مصر[٢٣] .

٨ — العلاقات العربية — البيزنطية في عهد الوليد بن عبد الملك (٧٠٥ — ٧١٥م) :

في عهد الخليفة الوليد بن عبد الملك (٨٦—٩٦ هـ) وأخيه عبد الله والي مصر تابع والي شمال افريقيا موسى بن نصير أعمال الفتوح ، فأخضع قبائل زناته وكتامة

---

٢١ — البلاذري : فتوح البلدان ، ص ٢٢٥ — ٢٣٢ .
٢٢ — ابن الاثير : الكامل في التاريخ ، ج٤ ، ص ٥٣٩ — ٥٤٠ .
٢٣ — البلاذري : فتوح البلدان ، ص ٢٣٢ (فتح الاندلس) ؛ راجع الدكتور نبيه عاقل ، خلافة بني أمية ، ص ٢٠٩ — ٢١٨ ؛ راجع أيضا الدكتور أحمد بدر : دراسات في تاريخ الاندلس وحضارتها ، دمشق ١٩٦٩ .

وصنهاجة وغيرها من قبائل الأمازيغ ، كما أرسل مولاه طارق بن زياد لفتح مدينة طنجة ، فتمكن من فتحها وطرد البيزنطيين منها • وبعد فتح طنجة لم يبق للبيزنطيين قاعدة في شمال افريقيا سوى مدينة سبته ، التي تقع الى الشرق من طنجة ويحكمها والي بيزنطي يدعى جوليان • وفي الغالب أدرك جوليان عدم قدرته على الصمود في وجه القوات العربية التي تتابع الفتوح في شمال افريقيا ، فعرض على طارق بن زياد تسليم مدينة سبته وتقديم مساعدته لفتح اسبانيا (الأندلس) • ونقل طارق هذا العرض الى موسى بن نصير ، الذي نقله بدوره الى الخليفة الوليد ، فوافق الخليفة على القيام بفتح اسبانيا • وعلى هذا عهد موسى بن نصير الى مولاه طارق بن زياد بفتح اسبانيا ، فعبرت القوات العربية المضيق الى البر الاسباني في سنة ٧١١ ميلادية • ولن نخوض هنا في تفاصيل فتح اسبانيا (لأندلس) ، وانما نشير الى أن العرب المسلمين بعد خوض عدة معارك حرروا اسبانيا من حكم القوط الغربيين (البرابرة الجرمان) الذين أسسوا فيها مملكة لهم في سنة ٤١٩ ميلادية دامت حتى الفتح العربي الاسلامي • ونشير أيضا الى أن شمال افريقيا تحررت نهائيا من حكم البيزنطيين في عهد الخليفة الوليد بن عبد الملك وخضعت للحكم العربي[٢٤] •

وفي الشام أخذ الوليد بن عبد الملك يعد العدة في البر والبحر لاحتلال العاصمة البيزنطية (القسطنطينية) • ففي عهد الوليد بلغت الدولة العربية الأموية ذروة قوتها واتساعها ، إذ امتدت جبهات الفتوح من اسبانيا الى حدود الهند والصين • ومع اتساع رقعة الدولة العربية كان لابد من تأمين سلامة الخطوط التجارية بين الولايات الاسلامية ، وفرض السيطرة العربية الكاملة على خطوط البحر الأبيض المتوسط • وعلى هذا كان لابد من القضاء على الدولة البيزنطية التي تنافس العرب المسلمين في هذا المجال • وللقضاء على الدولة البيزنطية كان لابد من احتلال عاصمتها (القسطنطينية) • ومن أجل تحقيق تلك الأهداف الاقتصادية والسياسية أمر الوليد بن عبد الملك بتوسيع الاستعدادات العسكرية البرية والبحرية[٢٥] •

---

٢٤ ــ الدكتور نعيم فرح : تاريخ بيزنطة السياسي ، ص ١٧٣ ــ ١٧٤ •
٢٥ ــ الطبري : الامم والملوك ، ج٦ ، ص ٤٣٤ ، ٤٣٩ (أخبار سنتي ٨٨ ــ ٨٩هـ) •

أدرك الوليد أن احتلال القسطنطينية يتطلب تثبيت أقدام العرب المسلمين في الطرق المؤدية اليها وفرض سيطرتهم على المناطق المجاورة لها . وأوكل الوليد قيادة الحروب مع الروم البيزنطيين الى ابنه العباس وأخيه مسلمة بن عبد الملك . وقد استهل الوليد خطته في الوصول الى القسطنطينية باحتلال حصن طوانة في آسيا الصغرى . فالمؤرخ العربي الطبري يتحدث (في كتابه تاريخ الأمم والملوك) عن الغزوات التي شنها مسلمة بن عبد الملك على طوانة في السنوات : ٨٦ ، ٨٧ ، ٨٨ هجرية حتى تمكن من احتلالها . وبعدها تابع مسلمة تقدمه في آسيا الصغرى ، ففتح حصن سورية وعمورية وهرقلة وغيرها في سنة ٨٩ هجرية[٣٦] .

والمؤرخ العربي البلاذري يذكر (في كتابه فتوح البلدان) ما يلي : عندما تجدد خطر الجراجمة غزاهم مسلمة بن عبد الملك ، فخرب مدينتهم الجرجومة وأسكن أهلها في مناطق متفرقة من بلاد الشام ، ضماناً لعدم قيامهم بنشاط عسكري لصالح الروم البيزنطيين[٣٧] .

ويذكر الطبري (في تاريخ الأمم والملوك) أن غزوات العرب المسلمين في آسيا الصغرى تتالت بقيادة مسلمة بن عبد الملك وغيره من القادة العرب في السنوات : ٩٠ ، ٩١ ، ٩٢ ، ٩٣ ، ٩٤ ، ٩٥ ، ٩٦ هجرية[٣٨] . كذلك تذكر المصادر البيزنطية أن العرب المسلمين توغلوا في آسيا الصغرى ، فوصلوا الى مضيق البوسفور في ٧١٢ ميلادية (٩٤ هجرية)[٣٩] .

الى جانب النشاط العسكري البري في آسيا الصغرى نشطت الاستعدادات البحرية في موانىء مصر والشام . فأوراق البردي المصرية التي تعود الى بداية القرن

---

٣٦ — البلاذري : فتوح البلدان ، ص ١٦٣ — ١٦٧ (أمر الجراجمة) .
٣٧ — الطبري : الامم والملوك ، ص ٤٤٢ ، ٤٥٤ ، ٤٦٨ ، ٤٦٩ ، ٤٨٣ ، ٤٩٢ ، ٤٩٥ .

٣٩ — الدكتور نعيم فرح : تاريخ بيزنطة جامعة دمشق ١٩٨٥ ، ص ٢٧٦— ٢٧٧ .

الثامن الميلادي تشـير الى التوسع في بنـاء لسـفن الحربيـة في الموانىء المصرية (الاسكندرية ، بابليون ، القلزم على البحر الأحمر)[٣٠] .

كذلك نشطت في موانىء بلاد الشام الاستعدادات البحرية للاشتراك في الحملة التي تُعدّ للتوجـه الى حصار العاصمـة البيزنطية . وعلى ما يبـدو وصلت الى القسطنطينية أنباء الاستعدادات البحرية العربيـة في الشام ، فأرسـل الامبراطور البيزنطي انستاسيوس الثاني (في سنة ٧١٣ م) سفارة تجسسية الى دمشق لتتعرّف سراً على استعدادات العرب المسلمين ونواياهم المبيتة ضد البيزنطيين . وعادت تلك السفارة الى القسطنطينية فأخبرت الامبراطور أن العرب يستعدون في البـر والبحر لشن حملة على العاصمة البيزنطية [٣١] .

٩ ـ العلاقات العربية ـ البيزنطية في عهد سليمان بن عبد الملك (٧١٥ـ٧١٧م):

بعد موت الوليد بن عبد الملك (في سنة ٧١٥ م) تابع أخوه سليمان بن عبـد الملك استكمال الاستعدادات العسكرية لمهاجمة العاصمـة البيزنطية . وتكاتفت مصر وشمال افريقيا مع الشام في تزويد الحملة بما تحتـاج من عدّة وعتاد . وفي سنة ٧١٦ تحركت القوات العربية من الشام براً وبحراً باتجاه القسطنطينية وعلـى رأسها أخو الخليفة مسلمة بن عبد الملك .

وفي ١٥ آب من سـنة ٧١٧ ميلادية ضـرب الجيـش العربي الحصـار على القسطنطينية من جهـة البر الأوروبي ، في حـين احتل الأسـطول العربي مدخل البوسفور الجنوبي وقطع الاتصال بين القسطنطينية وبحر مرمرة . وحاولت السفن العربية عبور البوسفور الى البحر الأسود كي تقطع الامدادات العسكرية والتموينية التي تأتي من الشمال الى العاصمة البيزنطية ، لكنها فشلت في تحقيق ذلك ، بسبب مقاومة الرياح والسفن البيزنطية المجهزة بالنار البحرية (اليونانية) المحرقة . كمـا

---

٣٠ ـ Bury (J . B) : A History of the Later Roman Empire , Ed. London , 1931 , P. 371

٣١ ـ الدكتور نعيم فرح : الصراع العربي ـ البيزنطي للسيطرة على البحر الابيض المتوسط في القرن الثامن ، مجلة دراسات تاريخية ، لعدد ١٢ ، ص ٢٨ ـ ٤٣ .

أن تفوق البيزنطيين في الأسلحة والمنشآت الدفاعية لم يترك مجالاً للعرب في اقتحام أسوار القسطنطينية من جهة البر الاوروبي • كذلك استطاع الامبراطور البيزنطي ليون الايسوري أن يستميل الى جانبه ترفل خان البلغار ، فأخذت القوات البلغارية تغير على مؤخرة الجيش العربي الذي يحاصر القسطنطينية من الجانب الاوروبي • وكان ذلك التدخل البلغاري من العوامل التي أسهمت في فشل الحصار العربي للعاصمة البيزنطية[٣٢] •

وعلى الرغم من تلك المصاعب ظلت القوات العربية الاسلامية تحاصر القسطنطينية طوال فصل الشتاء ،مع أن الطقس كان قارساً غير عادي ، وقد أدى الى موت عدد كبير من الجمال والخيول والجنود في المعسكر العربي • ويذكر الطبري في أخبار سنة ٩٩ هجرية أن المصاعب التي عاناها الجنود العرب أمام جدران القسطنطينية لم يتعرضوا لمثلها من قبل ، إذ أنهم « أكلوا الدواب والجلودوأصول الشجر والورق وكلَّ شيء غير التراب »[٣٣] •

وفي ربيع سنة ٧١٨ ميلادية تلقى مسلمة بن عبد الملك إمدادات عسكرية وتموينية من مصر وشمال افريقيا والشام • واستمر الحصار العربي للقسطنطينية حتى منتصف آب ، فكتب الخليفة عمر بن عبد العزيز (الذي خلف سليمان بن عبد الملك) الى مسلمة يطلب منه أن يرفع الحصار ويعود بجيشه واسطوله الى الشام • وفي أثناء انسحاب القوات العربية وتراجعها مُنيت بخسائر كبيرة ، بسبب مطاردة القوات البيزنطية لها في البر والبحر • ويبالغ المؤرخ البيزنطي تيوفانس في حجم الخسائر التي منيَ بها الاسطول العربي إذ يقول : « لم يبق من السفن العربيةسوى خمس وصلت الى سورية لتخبر العرب عن قدرة الرب »[٣٤] •

١٠ـ العلاقات العربية ـ البيزنطية في عهد الخليفة عمر بن عبد العزيز :

توفيَ سليمان بن عبد الملك في صيف سنة ٧١٨ ميدية ، فخلفه عمر بن عبد

٣٢ ـ الطبري : الامم والملوك ، ص ٥٣٠ ـ ٥٣١ (أخبار سنة ٩٨ هـ) .
٣٣ ـ تيوفانس : خرونوغرافيا ، ص ٦١٣ ـ ٦١٤ .
٣٤ ـ الطبري : الامم والملوك ، ص ٥٥٣ (أخبار سنة ٩٩ هـ) .

العزيز ، الــذي دامت خلافته سنتين وخمسة أشــهر (٩٩ ــ ١٠١ هـ) • ورغب الخليفة الجديد بتوجيه الجهــود لتنظيم أمور الدولة الداخلية أكثــر من الاهتمام بمتابعة الفتوح • وعلى هــذا أمــر بانسحاب القوات العربيــة التي كانت تحاصر القسطنطينية[٣٥] •

وهكذا انتهت بالفشــل تلك الحملــة العسكرية الكبيرة التي شنّها العرب المسلمون على العاصمة البيزنطية • وقد اتضح للخلفاء الأمويين اللاحقين أنهم مهما ملكوا من سفن حربية وقوات برية لا يستطيعون احتلال العاصمة البيزنطية الحصينة دون أن يثبّتوا أقدامهم ويوطدوا سيطرتهم في المناطق المجاورة لها، ولذا لم يحاولوا فيما بعد لقيام بمثل هذه العملية •

أمــا البيزنطيون فقــد استفادوا من تحطيم الاسطول العــربي الذي حاصر القسطنطينية ، فأخــذوا ينشّطون عملياتهم الحربيــة في حوض البحــر المتوسط الشرقي • ويذكر المؤرخ العربي البلاذري أن البيزنطيين أغاروا على ساحل الشــام في خلافة عمر بن عبد العزيز سنة مئــة هجرية (٧١٩ م) ، فهدموا مدينة اللاذقية وأسروا الكثيرين من أهلها[٣٦] •

ويذكر المؤرخ العربي الكندي أيضاً أن البيزنطيين أغاروا على تينيس في دلتــا النيل بمصر سنة إحدى ومئة هجرية (٧٢٠ م)[٣٧] •

تلك الغارات البحرية البيزنطية المتكررة على سواحل مصــر والشــام دفعت الخليفة عمر بن عبد العزيز أن يخفض مقدار الفدية السنوية عن أهل قبرص[٣٨] ، لأنه خشي أن ينقلبوا الى جانب البيزنطيين ، وهو لا يملك القوة البحرية الكافيــة للدفاع عن هذه الجزيرة •

---

٣٥ ــ البلاذري : فتوح البلدان ، ص ١٣٩ (أمر حمص) •
٣٦ ــ الكندي : الحكام والقضاة في مصر ، ليدن ١٩١٢ ، ص ٧٠ •
٣٧ ــ البلاذري : فتوح البلدان ، ص ١٥٩ (أمر قبرص) •
٣٨ ــ ابن الاثير ، الكامل في التاريخ ، دار صادر بــيروت ، ١٩٧٩ ، ج٥ ، ص ١٠١ ، ١٠٥ •

١١ــ العلاقات العربية ــ البيزنطية في عهد يزيد بن عبد الملك :

بعد وفاة عمر بن عبد العزيز آلت مقاليد الخلافة الى يزيد بن عبد الملك (يزيد الثاني) • وفي عهد يزيد بن عبد الملك (١٠١ ــ ١٠٥ هـ/٧٢٠ ــ ٧٢٤ م) انهمكت الدولة الأموية في معالجة الفتن الداخلية ، كالقضاء على فتنة يزيد بن المهلب الذي تمرد على سلطة الخليفة في العراق ، وتجدد الصراع بين اليمنية والقيسية • وعلى هذا لم تسمح الأوضاع الداخلية المضطربة ليزيد بن عبد الملك أن يحقق انتصارات خارجية ، وبخاصة على الجبهة البيزنطية •

لقد اقتصر نشاط الجيش الأموي على شنّ بعض الحملات على أرمينيا ، إذ تحالف الامبراطور البيزنطي ليون الايسوري (٧١٧ ــ ٧٤١ م) مع الخزر ودفعهم لمهاجمة أرمينيا وطرد العرب منها • وكانت بعض الأُسر الأرمنية توالي العرب ، في حين كانت بعض الأسر الأخرى توالي البيزنطيين وحلفائهم الخزر • وعمل الخليفة يزيد بن عبد الملك على توطيد السلطة العربية في أرمينيا ، كيلا يفسح المجال للبيزنطيين أن يسيطروا على تلك المنطقة ، ومن ثم ينطلقوا منها لمهاجمة المواقع العربية •

ويورد ابن الأثير في أخبار سنة ١٠٢ هجرية (٧٢٠ م) وسنة ١٠٣ هجرية (٧٢١ م) ذكر غزوتين لأرمينيا الرابعة البيزنطية[٣٩] • كذلك يذكر اليعقوبي فتح حصن أرمني في سنة ١٠٣ هجرية ، كما يتحدث عن صائفة اشترك فيها جند ثغور الجزيرة وجند ثغور الشام في غزو أرمنيا في سنة ١٠٤ هجرية (٧٢٢ م)[٤٠] •

وفي السنة الأخيرة من عهد يزيد بن عبد الملك (١٠٥ هـ/٧٢٤ م) اتجهت حملة من ثغور الجزيرة الى ملطية لمهاجمة كمخ بقيادة مروان والي الجزيرة ، وكان الهدف منها منع البيزنطيين من الاستفادة من الهجوم الخزري على أرمينيا[٤١] • وفي العام نفسه (١٠٥ هـ) يذكر الطبري غزوة يقودها سعيد بن عبد الملك تنطلق من

---

٣٩ ــ راجع فتحي عثمان : الحدود الاسلامية البيزنطية ، ج٢ ، ص٩٩ ــ ١٠٠ .
٤٠ ــ راجع فتحي عثمان : الحدود الاسلامية البيزنطية ، ج٢ ، ص٩٩ ــ ١٠٠ .
٤١ ــ الطبري : الامم والملوك ، ج٧ ، ص ٢١ (أخبار سنة ١٠٥ هـ) .

الثغور الشامية الى أرض الروم « فبعث (مسلمة) سرّية في نحو من ألف مقاتل ، فأُصيبوا ــ فيما ذكر ــ جميعاً »(٤٢) .

١٢ــ العلاقات العربية ــ البيزنطية في عهد هشام بن عبد الملك :

كان يزيد بن عبد الملك قد أوصى بالخلافة من بعده لأخيه هشام بن عبد الملك ، ومن ثم لابنه الوليد بن يزيد بن عبد الملك . وفي عهد الخليفة الأموي هشام بن عبد الملك (١٠٥ ــ ١٢٥ هـ/٧٢٤ ــ ٧٤٣ م) انتقل ميدان العمليات الحربية في الجبهة البيزنطية الى الغرب من أرمينيا بقصد تأمين السيطرة على بعض الحصون البيزنطية وفتح الطريق الى قلب آسيا الصغرى ، ومن ثم الاتجاه نحو القسطنطينية .

ويذكر البلاذري (في كتابه فتوح البلدان) أن الخليفة هشام في مطلع عهده أمر ببناء عدة حصون في منطقة الحدود العربية ــ البيزنطية في آسيا الصغرى ، ومنها حصن المصيصة والمثقب وقطر غاش ومورة وبغراس وبوقا ، كما استخدم أهل انطاكية في بناء تلك الحصون .

كذلك كان هشام يوجه الغزوات في كل صيف الى الأراضي البيزنطية . وكان معظم تلك الغزوات بقيادة أولاده معاوية وسعيد وسليمان ، وقيادة أخويه سعيد ومسلمة ولدي عبد الملك . ففي سنة ١٠٦ هجرية (٧٢٤ م) غزا سعيد بن عبد الملك الصائفة اليمنى (من ثغور الجزيرة) ، في حين غزا معاوية بن هشام الصائفة اليسرى (من ثغور الشام) وأحرق محاصيل العدو . وفي سنة ١٠٨ هجرية (٧٢٥م) غزا مسلمة بن عبد الملك ، فبلغ قيسارية مدينة الروم مما يلي الجزيرة وفتحها . وفي سنة ١٠٩ هجرية (٧٢٧ م) استولى معاوية بن هشام على طيبة ، ثم استولى في العام التالي على صمالة . وفي سنة ١١١ هجرية (٧٢٩ م) عاود العرب غزو مدينة قيسارية البيزنطية (في آسيا الصغرى) بقيادة سعيد بن هشام . وفي سنة ١١٢ هـ (٧٣٠ م) كانت خرشنة هدف الحملة التي قادها مسلمة بن عبد الملك وتمكن من الاستيلاء على تلك المدينة . ومنذ سنة ١١٣ هجرية (٧٣١ م) حتى سنة ١٣١ هـ

تتالت سنوياً الغزوات العربية (الصوائف) المنطلقة من ثغور الجزيرة وثغور الشام الى أرض الروم البيزنطيين[٤٣] .

لكن تلك الغزوات العربية لم يُتح لها أن تتوغل في عمق آسيا الصغرى ، لأن التنظيمات الإدارية العسكرية (نظام الثغور أو الأجناد) التي أُحدثت في بيزنطة في عهد الامبراطور هرقل (٦١٠ ـ ٦٤١) تطورت وأعطت نتائجها الايجابية في عهد الامبراطور ليون الايسوري (٧١٧ ـ ٧٤١ م) . وقامت تلك التنظيمات على سياسة الدفاع المحلي وتحويل الفلاحين البيزنطيين الى جنود يدافعون عن أرضهم في وقت الحرب ، ويستثمرونها في وقت السلم . وعلى هذا لاقت الغزوات العربية مقاومة عسكرية وشعبية في كل إقليم بيزنطي .

وفي سنة ١٢١ هجرية (٧٣٩ م) أعدّ الخليفة الأموي هشام بن عبد الملك جيشاً كبيراً (عدده خمسون ألفاً في المصادر العربية ، وتسعون ألفاً في المصادر البيزنطية) مؤلفاً من أربع فرق يقودها أربعة قادة كبارة . وقد توغل ذلك الجيش العربي في الأراضي البيزنطية ، فتصدى له الامبراطور البيزنطي ليون الايسوري وابنه قسطنطين الخامس على رأس القوات البيزنطية وألحقا به هزيمة شنعاء في معركة جرت بين الطرفين (في سنة ١٢٢ هـ/٧٤٠ م) بمكان يدعى أكرونيون (أفيوم قره حصار) بالقرب من عمورية من أعمال فريجيا . وفي تلك المعركة قتل عبد الله البطال ، الذي قاد غزوات عديدة الى أرض الروم[٤٤] .

---

٤٢ ـ الطبري : الامم والملوك ، ج٧ ، ص ٢٩ (أخبار سنة ١٠٦ هـ) ، ص ٤٠ (أخبار سنة ١٠٧ هـ) ، ص ٤٣ (اخبار سنة ١٠٨) ، ص ٤٦ (أخبار سنة ١٠٩ هـ) ، ص ٥٤ (أخبار سنة ١١٠ هـ) ، ص ٦٧ (أخبار سنة ١١١ هـ) ، ص ٧٠ (أخبار سنة ١٢ هـ) ، ص ٨٨ (أخبار سنة ١١٣) ، ص ٩٠ (اخبار سنة ١١٤ هـ) ص ٩٢ (١١٥ هـ (، ص ٩٣ (١١٦ هـ) ، ص ٩٩ (١١٧ هـ) ، ص ١٠٩ (١١٨) ، ص ٣ (١١٩ هـ) ، ص ١٣٩ (١٢٠ هـ) ، ص ١٦٠ (١٢١) .

٤٣ ـ الطبري ، الامم والملوك ، ج٧ ، ص ١٩١ ، (١٢٢ هـ) ؛ تيوفانس : خرونوغرافيا ، ص ٦٣٣ .

٤٤ ـ راجع فتحي عثمان : الحدود الاسلامية البيزنطية ، ج٢ ، ص ١٠٣ ـ ١٠٤

ويعدّ بعض المؤرخين وقعة أكرونيون معركة حاسمة ، لأنها وضعت حداً للاندفاع العربي الى قلب آسيا الصغرى • ويشبّه المؤرخ الفرنسي شارل ديل هزيمة العرب في معركة أكرونيون بهزيمتهم في معركة بواتيه في الأندلس (معركة بلاط الشهداء التي جرت في سنة ٧٣٢ ميلادية ، وقاد الجيش العربي فيها عبد الرحمن الغافقي ، في حين قاد جيش الفرنجة شارل مارتل الملقب بالمطرقة)[٤٥] •

وفي الواقع حددت معركة أكرونيون ميزان القوة العسكرية لصالح البيزنطيين ، إذ انتقل زمام المبادرة بالهجوم من أيدي العرب الى أيديهم • ففي سنة ١٢٣ هجرية (٧٤١ م) خرج الروم في عشرين ألفاً ، فنزلوا على ملطية مهاجمين الحدود العربية البرية لأول مرة • لكن الخليفة هشام قاد بنفسه في العام التالي (١٢٤ هـ/٧٤٢ م) جيشاً الى ملطية وعسكر فيها حتى بنيت أسوارها[٤٦] •

بعد موت مؤسس الأسرة الايسورية الامبراطور ليون الثالث ، خلفه على العرش البيزنطي ابنه قسطنطين الخامس (٧٤١ ـ ٧٧٥م) • وفي سنة ٧٤٢ ميلادية قاد الامبراطور قسطنطين الخامس جيشاً لمهاجمة الحدود العربية • لكن صهره أرتاباسدودس (قائد ثغر الارمنياك وكونت ثغر الابسيق) ، الذي كان يطمح الى استلاب العرش ، فاجأه بقواته ، فهزمه وتبوأ العرش البيزنطي مدة ستة عشر شهراً • أما الامبراطور قسطنطين الخامس فقد هرب الى عمورية وأخذ يجمع الجيوش حوله لاستعادة عرشه المسلوب • وقد استغل الخليفة هشام بن عبد الملك فرصة الصراع الداخلي في بيزنطة على العرش ، فوجه صائفة من ثغور الشام بقيادة ابنه سليمان الى داخل الأراضي البيزنطية ، فتوغلت حتى بافلاغونيا والتقت بجيش يقوده الامبراطور المعزول قسطنطين الخامس ، لكنها لم تجرؤ على قتاله وعادت الى حصونها • على أن الطبري يقول : « في هذه السنة (١٢٤ هـ/٧٤٢ م) غزا سليمان بن هشام الصائفة ، فلقي أليون ملك الروم فسلم وغنم »[٤٧] • أما والي الجزيرة مروان بن محمد فلم يستغل فرصة الصراع

---

٤٥ ـ البلاذري : فتوح البلدان ، ص ١٩٠ (فتح ملطية) .
٤٦ ـ الطبري : الامم والملوك ، ج٧ ، ص ١٩٩ (أخبار سنة ١٢٤ هـ) .
٤٧ ـ راجع فتحي عثمان : الحدود الاسلامية البيزنطية ، ج٢ ، ص ١٠٤ ـ ١٠٥

الداخلي في بيزنطة ، إذ آثر الحيطة واليقظة فحسب ، دون إرسال حملات عسكرية الى الأراضي البيزنطية .

وهكذا كانت غزوة سنة ١٢٤ هجرية (٧٤٢ م) آخر مرة يتوغل فيها العرب بالأراضي البيزنطية حتى نهاية حكم الدولة الأموية ، وبعدها تحول موقف العرب على الجبهة البيزنطية من الهجوم الى الدفاع[٤٨] .

وتجدر الاشارة الى أن الاضطرابات في الدولة الأموية الناجمة عن الثورات والتمردات الداخلية والصراع القبلي بين القيسيين واليمنيين قد تركت آثاراً سلبية على قوة الجيش العربي الاسلامي ودوره في الصراع العربي ــ البيزنطي .

تحدثنا فيما سبق عن الصراع العربي ــ البيزنطي (في عهد الخليفة هشام ٧٢٤ ــ ٧٤٣ م) في الجبهة البرية من منطقة آسيا الصغرى . وفيما يلي نتحدث عن الصراع العربي ــ البيزنطي البحري في حوضي البحر الأبيض المتوسط الشرقي والغربي .

بعد الضربة القاسية التي تلقتها الأساطيل العربية الثلاثة (أسطول سورية ، أسطول مصر ، أسطول شمال افريقيا) في أثناء حصار القسطنطينية (في سنتي ٧١٧ ــ ٧١٨ م)، لم يستطع العرب المسلمون استعادة قوتهم البحرية السابقة . ففي سورية ومصر تقلصت صناعة السفن الحربية وتوقفت تقريباً الحملات العربية البحرية في حوض البحر المتوسط الشرقي . أما في شمال افريقيا فقد استمرت صناعة السفن الحربية ، كما كثرت غارات العرب المسلمين من شواطئها على صقلية وسردينية ، واستمرت حتى نهاية عهد الدولة الأموية .

ومن العوامل التي أدت الى انحسار نشاط الاسطول العربي في حوض المتوسط الشرقي تخلّي الخلفاء الأمويين المتأخرين عن فكرة احتلال العاصمة البيزنطية ، بعد

---

٤٨ ــ Wiet, G.S., Egypt Arabe, Paris, 1937, P. 56 .

فشلهم في حصارها (في سنتي ٧١٧ ـ ٧١٨ م) من جهة ، وانشغال هؤلاء الخلفاء بإخماد حركات التمرد وتثبيت سلطتهم داخل البلاد من جهة ثانية •

أما البيزنطيون فقد استغلوا ظروف الدولة الأموية المضطربة ، فأخذوا ينشّطون عملياتهم البحرية في حوض المتوسط الشرقي • وذكرنا قبلاً أن البيزنطيين هاجموا اللاذقية في سنة مئة هجرية (٧١٩ م) وهدموها ، كما أغاروا على تينيس في دلتا النيل بمصر في سنة إحدى ومئة هجرية (٧٢٠ م) • وفي عهد الخليفة هشام بن عبد الملك أغار الاسطول البيزنطي على سواحل مصر في سنة ١٠٨ هجرية (٧٢٥ م)(٤٩) •

غير أن الصراع الداخلي على الحكم في بيزنطة واشتراك الاسطول البيزنطي في ذلك الصراع أجبر البيزنطيين على ايقاف الغارات البحرية على السواحل العربية لفترة وجيزة • ففي سنة ٦٢٧ ميلادية أغار اسطول الأدا وكيكلادا على القسطنطينية ، بغية عزل الامبراطور ليون الثالث الاسوري عن العرش البيزنطي وتنصيب قائد الاسطول كوسموس في مكانه • لكن اسطول القسطنطينية تمكن من تحطيم الاسطول المهاجم(٥٠) •

وفي تلك الأثناء استغل الخليفة الأموي هشام الوضع المضطرب في بيزنطة ، فأرسل اسطولاً من سواحل الشام الى قبرص (في سنة ١٠٧ هـ/٧٢٦ م) وفرض على أهلها دفع فدية بمقدار ما كانت عليه قبل أن يخفضها عنهم الخليفة السابق عمر بن عبد العزيز(٥١) •

ولكن عندما وطد الامبراطور ليون الأيسوري حكمه في القسطنطينية ، تجدد نشاط الاسطول البيزنطي في حوض المتوسط الشرقي • ففي سنة ١١٨ هجرية (٧٣٦ م) أغار الاسطول البيزنطي على مصر وأسر الكثيرين من أهلها(٥٢) • وفي

٤٩ ــ تيوفانس : خرونوغرافيا ، ص ٦٢٣ ــ ٦٢٤ •
٥٠ ــ البلاذري : فتوح البلدان ، ص ١٥٩ (أمر قبرص) ؛ الطبري : الامم والملوك ، ص ٤٠ (اخبار سنة ١٠٧ هـ) •
٥١ ــ الكندي : كتاب الولاة والقضاة في مصر ، لندن ١٩١٢ ، ص ٧٩ •

سنة ١٢٠ هجرية (٧٣٨ م) هاجم اسطول بيزنطي ميناءً قرب بيروت ، فنهب الأهالي وأخذ السفن التجارية ، لكن والي بيروت تعقب الأسطول البيزنطي في البحر وأجبره على ترك الأسلاب [٥٣] .

في سنة ١٢١ هجرية (٧٣٩ م) أغار أسطول بيزنطي مؤلف من ٣٦٠ سفينة حربية على دمياط ، فقتل كثيرون من العرب المصريين وأُسر بعضهم [٥٤] . وفي سنة ١٢٣ هجرية (٧٤١ م) أغار اسطول بيزنطي على الموانىء المصرية ، لكنه لم يحقق نجاحاً ملموساً ، كما تتبعه حفص بن الوليد في انسحابه والحق به الخسائر [٥٥] . وكان الهدف من تلك الغارات البحرية البيزنطية المتكررة على الموانىء المصرية والسورية هو عدم إفساح المجال لتطور الاسطولين المصري والسوري .

على أن الاسطولين العربيين المصري والسوري لم يتوقفا كلياً عن نشاطهما في حوض المتوسط الشرقي . ففي سنة ١٣١ هجرية (٧٣٩ م) قام الاسطول المصري بعملية بحرية مجهولة نتائجها . وفي سنة ١٢٢ هجرية (٧٤٠ م) تحرك الاسطول السوري والاسطول المصري معاً من الاسكندرية في مهمة مجهولة . ولكن تلك الحملة البحرية ضلّت الطريق ، فقصدت جزيرة كريت وهاجمتها دون نجاح ، وإن أسرت العديد من الأسرى [٥٦] .

إذا كان الاسطولان المصري والسوري قد فقدا قدرتهما القتالية بعد الضربة القاسية التي تلقياها في أثناء حصارهما العاصمة البيزنطية (في سنتي ٧١٧ — ٧١٨م) ، فإن اسطول شمال افريقيا تابع نشاطه البحري في حوض المتوسط الغربي . ففي سنة ١٠٢ هجرية (٧٢٠ م) أغار اسطول شمال افريقيا من تونس على جزيرة صقلية

---

٥٢ — راجع فتحي عثمان : الحدود الاسلامية البيزنطية ، ج٢ ، ص ١٠٦ — ١٠٧
٥٣ — المقريزي : كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ، بولاق ١٨٥٣ ، ص ٩ .
٥٤ — راجع فتحي عثمان : الحدود الاسلامية البيزنطية ، ج٢ ، ص ١٠٦ — ١٠٧ .
٥٥ — راجع فتحي عثمان : الحدود الاسلامية البيزنطية ، ج٢ ، ص١٠٦—١٠٧ .
٥٦ — راجع فتحي عثمان : الحدود الاسلامية البيزنطية ، ج٢ ، ص ١٠٦ ١٠٧ .

وجلب منها الغنائم . وفي سنة ١٠٣ هجرية (٧٢١ م) وسنة ١٠٦ هجرية (٧٢٤ م) أغار اسطول شمال افريقيا على جزيرة سردانية (سردينية)[٥٧] .

وفي عهد الخليفة هشام بن عبد الملك أغار والي شمال افريقيا بكر بن صفوان بأسطوله على صقلية وعاد منها محملاً بالغنائم في سنة ١٠٩ هجرية (٧٢٧ م)[٥٨] . وفي سنة ١١٠ هجرية (٧٢٩ م) بعث والي شمال افريقيا عبيدة بن عبد الرحمن حملة بحرية الى صقلية بقيادة أمير البحر المستنير بن الحارث ، لكن تلك الحملة طالت اقامتها في صقلية حتى الخريف ، مما عرّضها لعاصفة بحرية في أثناء تراجعها ، فغرقت معظم السفن[٥٩] .

تلك الغارات المتكررة التي شنها الاسطول التونسي على صقلية دفعت البيزنطيين أن يوجهوا أسطولاً مجهزاً بالنار البحرية « اليونانية » المحرقة لحماية تلك الجزيرة التي كانت من ممتلكاتهم . ففي سنة ١١٦ هجرية (٧٣٤ م) اصطدم الاسطول البيزنطي في سواحل صقلية ، فوقع في الأسر بعض المسلمين ومنهم عبد الرحمن بن زياد[٦٠] .

وعين هشام بن عبد الملك عبيد الله بن الحباب والياً على شمال افريقيا ، فاهتم بتوسيع دار صناعة السفن في تونس وتوجيه الحملات البحرية الى صقلية وسردينية . ويذكر ابن الأثير أن اسطول تونس أغار بقيادة حبيب الفهري على جزيرة سردانية (سردينية) (في سنة ١١٧ هـ/٧٣٥ م) ، وعاد منها سالماً محملاً بالغنائم[٦١] . وفي سنة ١٢٢ هجرية (٧٤٠ م) قاد حبيب الفهري اسطولاً الى صقلية ، فانتصر على الاسطول البيزنطي المرابط في مياهها ، كما تقدمت قواته في البر بقيادة ابنه عبد

---

٥٧ ـ ابن الاثير : الكامل في التاريخ (اخبار سنة ١٠٩) ، ج٥ ، ص ١٤٦ .
٥٨ ـ راجع نعيم فرح : تاريخ بيزنطة السياسي ، ص ١٨٤ ـ ١٨٥ .
٥٩ ـ ابن الاثير : الكامل في التاريخ (اخبار سنة ١١٦ هـ) ، ج٥ ، ص ١٨٥ .
٦٠ ـ ابن الاثير : الكامل في التاريخ ، ج٥ ، ص ١٩١ ، (اخبار سنة ١١٧ هـ) . سنة ١١٧ هـ) .
٦١ ـ ابن الاثير : الكامل في التاريخ ، ج٥ ، ص ١٩١ (ذكر هذا الخبر مع اخبار سنة ١١٧ هـ) .

الرحمن ، « فلم يلقه أحد إلا هزمه .. حتى نزل على مدينة سرقوسة ، وهي من أعظم مدن صقلية ، فقاتلوه فهزمهم وحصرهم ، فصالحوه على الجزية ، وعاد الى أبيه . وعزم حبيب على المقام بصقلية الى أن يملكها جميعاً ، فأتاه كتاب ابن الحباب يستدعيه الى افريقية »[٦٢] . فلقد استدعى والي شمال افريقيا عبيد الله بن الحباب حبيب الفهري وقواته من صقلية ليساعده في إخماد ثورة قبائل الامازيغ «البربر» وثورة الخوارج اللتين نشبتا آنئذٍ في شمال افريقيا .

وهكذا أدى انشغال والي شمال افريقيا بإخماد ثورات الأمازيع والخوارج الى توقف نشاط الاسطول التونسي في حوض المتوسط الغربي حتى نهاية الحكم الاموي ، وهذا الامر مكن البيزنطيين من توطيد سلطتهم في صقلية وتقوية وسائل الدفاع عنها .

١٣ ـ العلاقات العربية ـ البيزنطية في عهد الوليد بن يزيد بن عبد الملك ، ويزيد بن الوليد بن عبد الملك ، وابراهيم بن الوليد بن عبد الملك (١٢٥ هـ ـ ١٢٦ هـ ٧٤٣ ـ ٧٤٤ م) :

بعد وفاة هشام بن عبد الملك (في سنة ١٢٥ هجرية / ٧٤٣م) تربع على عرش الخلافة الاموية أشخاص ضعاف الهمة والعزيمة ، فتخلوا عن سياسة الجهاد والتوسع في الأراضي البيزنطية وغيرها . لقد غدا هؤلاء الخلفاء عبيداً للملذات والشهوات ، إذ قضوا معظم أوقاتهم في مجالس الشراب مع الغواني والأصحاب . ومما زاد الطين بلةً استيقاظُ روح العصبية بين قبائل عرب الشمال وعرب الجنوب ، فاستعرت نار الصراع القبلي، وغدت بقاع كثيرة من أرض الخلافة مسرحاً للاصطدام بين القبائل اليمنية والقيسية . وانحطت هيبة الخلفاء الأمويين لمناصرتهم هذا المعسكر القبلي أو ذاك ، إذ أضحوا ممثلين للفروع القبلية المختلفة على حسب أنسابهم ، لا خلفاءَ للدولة العربية الكبرى [٦٣] .

أكلت الفتنُ الداخلية بني أمية وشغلتهم عن أي شيء آخر ، فلا نكاد نسمع

---

٦٢ ـ راجع الدكتور ابراهيم احمد العدوي : الامبراطورية البيزنطية والدولة الاسلامية ، القاهرة ١٩٥١ ، ص ٦٣ ـ ٦٤ .

٦٣ ـ ابن الاثير : الكامل في التاريخ ، ج٥ ، ص ٢٧٤ (اخبار سنة ١٢٥ هـ) .

عن الصوائف والشواتي إلا ما ندر • فبعد وفاة هشام بن عبد الملك بن مروان خلفه ابن أخيه الوليد بن يزيد بن عبد الملك ، الذي لم يحكم سوى أربعة عشر شهراً ، وكان كلفاً بالشعر ومجالس الشراب • ولما كان يحقد على عمه هشام ، فقد أمر بتنحية أولاده (يزيد ، سليمان،سعيد) عن قيادة ثغور الجزيرة والشام ، وإحلال إخوته محلهم ، وهم أقل كفاءة وخبرة بشؤون الحرب •

ففي سنة ١٢٥ هجرية (٧٤٣ ميلادية) قاد الصائفة من ثغور الشام أخو الخليفة الغمر بن يزيد بن عبد الملك، لكن تلك الغزوة لم تسفر عن نتائج هامة • وفي العام نفسه شن الروم البيزنطيون هجوماً على زبطرة ودمروا أسوارها ، دون أن يلقوا مقاومة من قادة الثغور العربية(٦٤) •

وجاء في الطبري (في ذكر الحوادث التي جرت في سنة ١٢٥ هجرية) ما يلي: « وفيها غزى (أغزى عند ابن الاثير) الوليد بن يزيد أخاه الغمر بن يزيد عبدالملك، وأمر على جيش البحر الاسود بن بلال المحاربي ، وأمره أن يسير (يعبر) الى قبرس ، فخيرهم بين المسير الى الشام إن شاءوا ، وان شاءوا الى الروم ، فاختارت طائفة منهم جوار المسلمين ، فنقلهم الاسود الى الشام ، واختار آخرون أرض الروم فانتقلوا إليها »(٦٥) •

ويقول البلاذري : إن نقل بعض أهل قبرص الى الشام كان لامر اتهمهم به الوليد (التعاون مع البيزنطيين ضد العرب المسلمين)، فأنكر الناس ذلك ، فردهم يزيد بن الوليد بن عبد الملك الىبلدهم في العام التالي ، وكان ذلك في سنة ١٢٦ هجرية (٧٤٤م)(٦٦) •

قُتلَ الوليد (الثاني) بن يزيد بن عبد الملك (في سنة ١٢٦ هجرية / ٧٤٤ ميلادية) في حصن البخراء الذي يقع في شرق فلسطين ، وهو قريب من مكان

---

٦٤ — الطبري : الامم والملوك ، ج٧ ، ص ٢٢٧ ؛ ابن الاثير : الكامل في التاريخ ، ج٥ ، ص ٢٧٤ (أخبار سنة ١٢٥ هـ) .
٦٥ — البلاذري : فتوح البلدان ، ص ١٥٩ — ١٦١ (أمر قبرص) .
٦٦ — الدكتور نبيه عاقل : خلافة بني امية ، دمشق ١٩٧٢ ، ص ٣٢٥—٣٨٦ .

إقامته عند ماءٍ يُقال له الأغدق في منطقة الأزرق . وقد اشتركت في الثورة ضد الوليد أطراف كثيرة وشخصيات عديدة من اليمنيين والقيسيين . وخلفه يزيد (الثالث) بن الوليد (الاول) بن عبد الملك ، فلم يحكم طويلا ، إذ توفي بعد ستة أشهر من جلوسه على عرش الخلافة . وبعد موت يزيد الثالث خلفه أخوه ابراهيم بن الوليد بن عبد الملك ، فلم يبايع له إلا أهل جنوب الشام . وبعد بضعة أشهر توصل الى عرش الخلافة مروان بن محمد ، فطلب منه ابراهيم بن الوليد الأمان فأمنه على حياته(٦٧) .

فتح مقتلُ الوليد الثاني بابَ الفتن في منطقة شمال الشام والجزيرة، وهي المنطقة التي كانت تتم فيها الاستعدادات العسكرية وتوجه منها الحملات لقتال الروم البيزنطيين . لقد أضحى الامويون في تلك المنطقة يقتلُ بعضهم بعضاً ، فاضطرب حبل بني مروان وهاجت الفتنة . وهكذا كان مقتل الوليد بن يزيد بن عبد الملك بمثابة العلامة التي آذنت بسقوط الأسرة الاموية ، إذ انتحرت عند ذلك انتحاراً سياسياً(٦٨) .

١٤ ـ العلاقات العربية ـ البيزنطية في عهد مروان بن محمد (١٢٦ ـ ١٣٢ هـ/٧٤٤ ـ ٧٥٠ م) :

توصل مروان بن محمد الى عرش الخلافة الأموية (في سنة ١٢٦ هجرية/٧٤٤ ميلادية) بعد قتال مرير شاركت فيه أطراف قبلية عديدة وشخصيات كثيرة . ومروان هذا هو ابن محمد أخي عبد الملك بن مروان بن الحكم ، وقد تسلّم امارة الجزيرة وأرمينيا في سنة ١١٤ هجرية ، كما كانت أذربيجان أيضاً تابعة له . وتمرس مروان بن محمد خلال ولايته للجزيرة وأرمينيا في شؤون الادارة والحرب حتى صار من القادة الماهرين . وأثبت مروان أنه شخص قوي تحلّيه الشجاعة، إذ استطاع أن يحمي ثغور الجزيرة من غارات الروم البيزنطيين ، كما تمكن من التوغل في بلادهم وتثبيت السلطة العربية في تلك المناطق .

---

٦٧ ـ راجع فلهاوزن : تاريخ الدولة العربية ، تعريب الدكتور أبي ريدة محمد عبد الهادي ، سلسلة الالف كتاب ، ص ٣٠٢ ـ ٣٦٤ ؛ الدكتور عبد المنعم ماجد : التاريخ السياسي للدولة العربية ، عصر الخلفاء الامويين ، الجزء الثاني ، ص ٢٧٢ ـ ٣١٥ .

لكن مروان بن محمد توصل الى عرش الخلافة في ظروف سيئة ، فلم تستطع الدولة العربية أن تستفيد من خبرته العسكرية ، ذلك أن أرض الثغور والعواصم وما تاخمها من شمال الجزيرة والشام لم تعد قاعدة لإنفاذ الشواتي والصوائف ضد الروم البيزنطيين ، وانما غدت مسرحاً للفتن والثورات التي أفضت الى سقوط الدولة الأموية على أيدي العباسيين .

وبالاضافة الى الصراع القبلي ، الذي امتد من ضفاف السند الى صقلية ، نشب التذمر من الحكم الاموي بين المسلمين غير العرب ، لأن الامويين نظروا الى هؤلاء المسلمين على أنهم موالي لا تصح مساواتهم بالمسلمين العرب في النواحي السياسية والاقتصادية والاجتماعية . وأخذ هؤلاء الموالي المتذمرون يعملون في الخفاء وينتظرون الفرصة المناسبة لعزل الامويين عن عرش الخلافة الاسلامية . وقد تهيأت لهم تلك الفرصة عندما أعلن الشيعة والعباسيون الثورة على الامويين (٦٩) .

استغل البيزنطيون ظروف الدولة الاموية التي تعاني سكرات الموت في عهد الخليفة مروان بن محمد ، فأخذوا زمام المبادرة بالهجوم على حدود الدولة العربية المحتضرة . ففي سنة ١٢٧ هجرية (٧٤٥ ميلادية) أغار الامبراطور البيزنطي قسطنطين الخامس (الذي خلف والده ليون الايسوري) ٧٤١ — ٧٧٥م بقواته على الحدود العربية — الاسلامية ، فاستولى على مرعش ودلوك ، وأجلى نصارى الحدود الى تراقية داخل الأراضي البيزنطية (٧٠) .

وفي سنة ٧٤٦ ميلادية (١٢٨ هجرية) أرسل الامبراطور قسطنطين الخامس حملة بحرية الى جزيرة قبرص جُهزت سفنها بالنار البحرية « اليونانية » المحرقة . رداً على ذلك أبحرت بعض السفن من سورية الى الاسكندرية ، ومنها انطلقت مع السفن المصرية الى قبرص لطرد الاسطول البيزنطي من سواحلها . لكن قائد

---

٦٨ — راجع الدكتور نبيه عاقل : خلافة بني أمية ، دمشق ١٩٧٢ ، ص ٣٧٣ — ٣٨٦ .

٦٩ — الدكتور اسد رستم : الروم وصلاتهم بالعرب ، الطبعة الاولى ، بيروت ١٩٥٥ ، ج١ ، ص ٢٩٢ — ٢٩٤ ؛ فتحي عثمان : الحدود الاسلامية البيزنطية ، ج٧ ، ص ١٠٨ .

٧٠ — تيوفانس : خرونوغرافيا ، ص ٦٥٣ .

الاسطول البيزنطي نصب كميناً للسفن العربية ، فطوقها في ميناء كيرامس وأحرق معظمها • ويذكر المؤرخ البيزنطي تيوفانس انه لم يبق من السفن العربية ، التي بلغ عددها ١٠٠٠ سفينة ، سوى ثلاث سفن لاذت بالفرار (٧١) •

إن تحطيم الاسطول العربي في سواحل قبرص في سنة ٧٤٧ ميلادية ، مكن البيزنطيين من فرض سيطرتهم على تلك الجزيرة وعلى الطرق التجارية البحرية في حوض البحر المتوسط الشرقي طوال النصف الثاني من القرن الثامن الميلادي(٧٢) •

استغل العباسيون الصراعات القبلية في الدولة الأموية وتذمر الموالي(المسلمين من غير العرب)، فادعوا لأنفسهم حق الدفاع عنهم وعن إعادة الدين الحق الذي انحرف به الأمويون عن جادة الصواب • واستطاع العباسيون أن يدمجوا دعواهم مع دعوة العلويين الذين يطالبون بحقوق آل البيت الهاشمي وحصر حق الخلافة في سلالة علي بن أبي طالب (رضي الله عنه) • وفيما بعد صار العباسيون زعماء حركة المعارضة للأسرة الاموية والمنظمين لها •

وآذنت شمس الدولة الأموية بالأفول عندما أعلن العباسيون الثورة ضد الامويين (في سنة ١٢٨ هجرية ، ٧٤٧ ميلادية) بقيادة أبي مسلم الخرساني عامل العباسيين في خراسان • وتابعت القوات العباسية سيّرها الى العراق بقيادة عبد الله بن علي عمّ أبي العباس السفاح أول الخلفاء العباسيين • وفي معركة جرت (في سنة ١٣٢ هجرية ، ٧٥٠ ميلادية) قرب نهر الزاب (أحد فروع دجلة) انتصر الجيش العباسي على الجيش الأموي ، فزال حكم الأمويين وحل محله حكم العباسيين •

ويعدّ سقوط حكم الاسرة الأموية حدثاً هاماً في التاريخ العربي الاسلامي ، إذ انحسرت عظمة دمشق واقليم الشام ، الذي كان يشكل مركزا استراتيجياً في توجيه النشاط الحربي ضد البيزنطيين • وعندما استتب الحكم للعباسيين نقلوا

---

٧١ ـ الدكتور نعيم فرح : الصراع العربي ـ البيزنطي للسيطرة على البحر المتوسط في القرن الثامن الميلادي ، مجلة دارسات تاريخية ، دمشق ١٠٨٣ ، العدد ١٢ ، ص ٣٧ ـ ٣٨ •

مركز السلطة والادارة وتوجيه النشاط العسكري من الشام الى العراق. وكان بعدُ المسافة بين بغداد (عاصمة العباسيين) والقسطنطينية (عاصمة البيزنطيين) مدعاة لرسم سياسة حربية جديدة مع البيزنطيين اختلفت عن سياسة دمشق الماضية . على أن تلك السياسة لم تدخل في دور التنفيذ الجدي إلاّ في زمن الخليفة العباسي هارون الرشيد .

ومن جهة ثانية ظلت الامبراطورية البيزنطية حتى عهد هارون الرشيد عاجزة عن القيام برد فعل حربي واسع النطاق ، واستغلال فترة انتقال الحكم من الأمويين الى العباسيين لتستعيد ما ضاع من أراضيها . وسبب العجز البيزنطي يعود الى انشغال الدولة البيزنطية بحركة جدل ديني حول تقديس الايقونات . لقد شنَّ الامبراطور البيزنطي ليون الثالث الايسوري ، ومن بعده ابنهُ قسطنطين الخامس، حملة شعواء على تقديس الايقونات ، فنجمت عن ذلك متاعب داخلية وخارجية كبيرة استنفذت قوى الدولة البيزنطية معظم القرن الثامن الميلادي ، وتفرعت عنها مشاكل لم تكن في الحسبان (٧٣) .

٧٢ ـ الدكتور نعيم فرح : الحضارة البيزنطية ، منشورات جامعة دمشق ١٠٠١ ـ ١٩٩٢ ، ص ١٥١ ـ ١٦٨ ، ١٩٢ ـ ٢١٨ ، ٢٦٠ ـ ٢٧٠ ؛ تاريخ بيزنطة السياسي ، منشورات جامعة دمشق ، ١٩٩١ ـ ١٩٩٢ ، ص ١٦٥ ـ ١٧٠ ، ١٩٠ ـ ١٩٥ ، ٢٠١ ـ ٢٠٦ .

الفصل الخامس عشر

سقوط الدولة الاموية

كان لسقوط الدولة الأموية أسباب متعددة ، بعضها قديم قدم الدولة الأموية نفسها • ولكن لما تجمعت هذه الأسباب وتطورت أصبح سقوط الدولة الأموية محتوماً ، على الرغم من كل ما فعله مروان بن محمد للحيلولة دون سقوطها • وقد اختلف المؤرخون في القديم والحديث على تحديد الأسباب التي أدت الى سقوط هذه الدولة ، فمنهم من قال بالأسباب الاقتصادية ، ومنهم من قال بالأسباب الاجتماعية ، ومنهم من قال بالأسباب القومية ، وآخرون قالوا ، إن وجود خلفاء ضعاف هو الذي أدى الى عملية السقوط الى غير ذلك • لكن الحقيقة القريبة الى التصديق أن جميع هذه الأسبابمتحدة ، هي التي أدت الى سقوط الدولة الأموية[١] ويمكن حصر الأسباب الرئيسة بما يلي :

١ ـ تعاقب خلفاء أقوياء وضعفاء :

كان في الأمويين خلفاء ضعاف للغاية أمثال معاوية بن يزيد ، والوليد بن يزيد ، ويزيد بن الوليد ، وابراهيم بن الوليد ، ولم يختلف أحد على ضعف هؤلاء • ولكن الاختلاف الوحيد بين المؤرخين يتجسّد في عمر بن عبد العزيز • لا شك أن عمر بن عبد العزيز كان من الناحية السياسية ضعيفاً ، وإن كان من ناحية

---

(١) من أجل تفاصيل واسعة حول كل هذه الأسباب يمكن العودة الى : طبيعة الدعوة العباسية لفاروق عمر طبعة أولى بيروت ١٩٧٠ ـ الجذور الاجتماعية والسياسية للثورة العباسية في خراسان طبعة هارفارد ١٩٦٠ لعبد الحي شعبان . كلودكاهن تاريخ العرب والشعوب الاسلامية المجلد الاول .

الإصلاح والدين قوياً . وإن وجـود مثل هؤلاء الخلفاء ، كان يشجع الناقمين والطامعين على التحرك والتمرد والثورة ، وبخاصة إذا سبق هؤلاء الخلفاء الضعاف خلفاء أقوياء سيطروا على الشعب كلـه وملكوه قسراً .

٢ ــ اتساع رقعة الدولة وقلة عدد العنصر العربي :

من المعروف أن الدولة الأموية بلغت أعظم اتساعها ، فتعذر عـلى الأمويين إدارتها إدارة مركزية قوية . ومع أن مصر والمغرب والعراق والمشرق ، كانت عملياً مستقلة ، إدارتها عن دمشق ، فإن الشام نفسها وشبه جزيرة العرب كانتا أحياناً مهد اضطراب شديد ، وبخاصة حينما بدأت العصبيات بالتنازع .

٣ ــ الصراع بين العصبيات القبلية :

نقصد بذلك النزاع الذي جـرى بين عـرب الشام ، وفي المقاطعات الأخرى كالعراق وخراسان والأندلس . وكان الدافع الأول الى هذا النزاع حب السيطرة ، ذلك أن الخلفاء الأمويين أنفسهم ، كانوا يقدمون اليمنية مرة والقيسية مرة أخرى . فإذا جاء اليمنيون شغلوا مراتب ونكلوا بالقيسية وإذا قـدم أحد الخلفاء القيسية عاد القيسية الى الحكم وانتقموا من اليمنية وهكذا الى ما لا نهـاية . ولعـل من أبرز الأمثلة على ذلك ، أن عبد الملك بن مروان ، قدم الحجاج بن يوسف لمقدرته وحزمه ، ثم جاء الوليد بن عبد الملك فأقر الحجاج . ولكن الحجاج كان من ثقيف ، وثقيف من قيس ، وبما أن الحجاج كان قد ملأ مراتب الدولة بأهله ، فلقد امتلأت تلك المراتب بالقيسية .

فلما جاء سليمان بن عبد الملك ، وكان يكـره الحجاج ، لم يستطع أن ينتقم من الحجاج ، لأن الحجاج كان قد مات ، فصب غضبه على الذين قرّبهم الحجـاج فأقصاهم عن الحكم ، وسجن بعضهم وقتل بعضهم . ثم ان سليمان ولى على العراق يزيد بن المهلب وكان يمنياً ، فجعل يزيد يضطهد القيسية ، وبما أن تنازع العصبيات هذا كان من أعظم الأسباب ، التي أدت الى إضعاف الدولة الأمويـة ، فيحسن أن نستعرض خصائص القيسية واليمنية .

٤ ـ الخـوارج :

بدأت حركة الخوارج سياسية ، واستمرت سياسية مدة طويلة جداً • وقـد كان الخوارج يقاتلون الولاة الأمويين ، فضعفت الدولة الأموية بذلك ضعفاً شديداً ، وبخاصة في أواخـر أيامها حينما سيطر الضحاك بن قيس الشيباني على العـراق وجنوبي فارس ، وكان يقطعها من الدولة الأموية مرة واحدة •

٥ ـ تنازع البيت الأموي على ولايـة العهد :

كما هو معروف أو كما مرمعنـا ، أن الخلافة انقلبت بمجيء الأمويين الى وراثية • ولقد انتقلت في الفرع السفياني من معاوية الى ابنه يزيـد فإلى حفيـده معاوية بن يزيد . فلما انتقلت الخلافة الى مروان بن الحكم أوصى مروان بولايـة العهد لابنه عبد الملك ثم لابنه الآخر عبد العزيز • ولكن عبد الملك ما كاد يصبح خليفة حتى نقـل ولاية العهد من أخيه عبد العزيز الى ابنه هو ، الوليد بن عبـد الملك ، ثم الى ابنه الآخر سليمان بن عبد الملك • إن هـذا الاختلاف على ولايـة العهد ، كان في أول الأمـر خصاماً عادياً ونزاعاً يُحل بتفاهم الأمويين أو بإكـراه بعضهم بعضاً ، ولكن فيما بينهم ، ثم تطور هـذا النزاع فأصبح منذ أيام الوليد الثاني اغتيالاً أو اقتتالاً •

٦ ـ ثورة الشيعة في خراسان :

ويقصد بهـذه الثورة الدعوة العباسية ، التي نشطت خلال الربع الأول من القرن الثاني الهجري ، والتي توجت بسقوط الدولة الأموية ، كما تحدثنا في مكان سابق ، لذلك فلا نرى لزامـاً لتكرارها مرة أخرى •

٧ ـ التيارات الفكرية المتعددة :

نشأت في العصر الأموي تيارات فكرية مختلفة ، كالتشيع والمذهب الخـارجي والاعتزال والإرجاء . وكان بعض هذه التيارات مخالفاً لبعضها الآخر أو مناقضاً له ،

الأمر الذي ساعد على زيادة الاضطراب على الأمويين ، وبخاصة حين جعل نفراً من الأمويين يتزعمون بعض هذه الحركات ، كما فعل مروان الثاني ، الذي كان قدرياً (معتزلياً) ، وموقفه هذا قد أثار عليه نقمة العامة •

٨ ـ عزوف العرب عن الأعمال اليدوية وعن التجارة والصناعة :

كان العرب دوماً يخصون أنفسهم بالإمارة والقيادة والشعر ، وتركوا كل شيء آخر • لذلك انصرف الموالي وأهل الذمة الى احتراف الصناعات المختلفة ، والى الاشتغال بالتجارة • وهكذا تكون الطبقة الحاكمة العربية ، قد تركت القوة الحقيقية في المجتمع لخصومها •

هذه الأسباب على اختلافها ، تجمعت في جبهة قوية ، لم يتمكن مروان بن محمد أن يتغلب عليها ، على الرغم من أنه كان من كبار الخلفاء الأمويين ، فهو من حيث المقدرة والدهاء ، يعد في مصاف معاوية وعبد الملك بن مروان وهشام بن عبد الملك• وذلك لأنه تولى الخلافة والفوضى تعصف في بلاد الدولة العربية . وقد واجه مصاعب جمة كان في مقدمتها المصاعب التالية :

١ ـ غضب عليه اليمنية بعد أن اتخذ من حران مقراً له ، بالاضافة الى اعتماده على القيسية ، وقد كلفه إخضاعهم في مناطق شتى من الدولة جهداً ووقتاً كبيرين، حيث لم يتمكن أن يصبح سيّد البلاد بصورة فعلية ، ولا سيما سيّد بلاد الشام إلا في أواخر سنة ١٢٨ هـ / ٧٤٦ م •

٢ ـ ثار الخوارج في الكوفة بقيادة الضحاك بن قيس سنة ١٢٧ هـ / ٧٤٥ م ولكنهم انهزموا ، غير أنهم عادوا فيما بعد الى العراق في السنة التالية ، بقيادة الضحاك نفسه بعد أن انضم إليه عدد كبير من اليمانية ، واستطاع مروان هزيمتهم سنة ١٢٩هـ / ٧٤٨م ، فانسحب ما تبقى من الخوارج الى منطقة الجبال في غربي فارس ، وتخلص العراق من خطرهم •

٣ ـ التسويد (إعلان الدعوة العباسية) •

يقصد بالتسويد نشر العلم الأسود ولبس الثياب السود ، وهو الشعار الذي اتخذه دعـاة بني العباس تمييزاً لأنفسهم وأتباعهم من بني أمية وأتباعهم ، الـذين كانوا قد اتخذوا البياض شعاراً لهـم •

وقد بقيت الدعوة العباسية سرية غير معلنة حتى سنة ١٢٩ هـ / ٧٤٧ م عندما أمـر أبو مسلم الخراساني أتباعه بلبس السواد جهراً ، فمنذ ذلك الوقت بدأ القتال المنظم بين الأمويين وأتباع بني العباس • وحتى ذلك الوقت كانت الدعـوة ما زالت باسم (الرضا من آل محمد) ولكن الأمـر الذي كان واضحاً أن أمـر الخلافة سيؤول الى أحـد أبنـاء علي بن أبي طالب ، وكان العباسيون أنفسهم يوهمون الطالبيين بذلك •

ولما وقعت الحرب بين المسودة وبين بني أمية ، فوض أبو مسلم أمر الحـرب الى قحطبة بن شبيب الطائي • ثم أن المسودة أخذوا يستولون على خراسان بـلداً بلـداً ، بينما كان الأمويون يتراجعو نشيئاً فشيئاً نحو الغرب • ولقـد استنجد نصر بن سـيار والي خراسـان بمروان الثـاني ، فـلم يتمكن مروان إنجاده • ولمـا بلـغ نصر بن سـيار مرو عاصمة خراسـان ، مرض هناك وتوفي سـنة ١٣١ هـ / ٧٤٩ م •

ثم تابع قحطبة تقدمه حتى بلـغ العراق ، فحاربه والي العراق يزيـد بن عمر ابن هبيرة ، ولكنه انهزم سنة ١٣٢ هـ / ٧٤٩ م ، وكذلك قتل قحطبة في تلك المعركة. فقام بالأمر بعده ابنه الحسن بن قحطبة ، سيطر على الكوفة وهنا أعلـن أبو مسلم أن الخلافة لآل العباس، وأن الخليفة عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس، الذي عرف فيما بعد (بالسفاح) فبويع له بالخلافـة •

معـركة الـزاب :

أرسل قحطبة بن شبيب قبل موته أحد قواده ، فلقي عبد الله بن مروان بـن محمد على الزاب الأصغر أحد روافد دجـلة ، فهزمه سنة ١٣١ هـ / ٧٤٩ م فخفف

مروان الثاني نفسه على رأس جيش عدده مئة وعشرون ألفاً ، وبالوقت نفسه وصلت قوات إضافية الى جيش العباسيين ، ونشبت بين الطرفين معركة قاسية سنة ١٣٢ هـ / ٧٥٠ م ، هزم بنتيجتها الأمويون وهرب مروان بن محمد الى مصر ، ولكن جنود العباسيين أدركوه في قرية (بوصير) بصعيد مصر فقتلوه ، وبذلك سقطت الدولة الأموية في المشرق ، لتحيا في الأندلس بعد ثمانية أعوام من هذا الحادث .

وهكذا تضافرت عدة أسباب قوية ، وأدت في النهاية الى تداعي الدولة الأموية وسقوطها ، وقيام دولة بني العباس ، التي لم تتمكن من المحافظة على بقاء أراضي الدولة ، التي ورثتها من الدولة الأموية .

ملاحـق الكتـاب

أولا ـ أوليات الطب في الاسلام :

لقد احتل علم الطب المرتبـة الأولى بين العلوم الأخرى كالكيمياء والهندسة التي ظهرت بداياتها تترسخ في العصر الأموي ، سواء كان ذلك من حيث اهتمـام الحكّام بمؤسساته وتطويرها ، أو الاهتمام بأصحاب المهن الطبية الذين يعتبرون المحور الفعال لقيام مثل هذه المؤسسات .

ان هذا الاهتمام لم يكن مجرد صدفة عابرة اقتصر على خليفـة دون الآخر ، أو أنه ظهر في فترة زمنية معينة واختفى في فترة أخرى . بل يمكن القول أن الأمر كان أبعد من ذلك بكثير ، بحيث قـام على أسس ودعائم ثابتة ومؤثرة ، كان لابد لها أن تنهض وتستمر ، لما لها من تأثير كبير على استمرار حيـاة المجتمع الانساني بشـكل عـام .

لقد تجلت هذه الدعائم والأسس بالمحافظة على الصحة العامة وعدم انتشـار الأمراض والأوبئة المؤدية بالنهاية الى هلاك الانسان . يضاف الى ذلك كله أمر في غاية الأهمية والتقدير ، كونه يأتي من واقـع الدعوة الاسلامية التي تهـدف أول ما تهدف الى تحقيق الحياة السعيدة لبني الانسان[1] .

فقد حضّ الرسول (ص) هذه الدعوة في كثير من المناسبات على الاقبال على التداوي ومعالجة الأمراض اذا أمكن ، وعدم ترك الأمور تسير على طبيعتها كمـا كان سائداً في المجتمعات العربية قبل الاسـلام وغيرها من الأمم السابقة التي كانت

---

١ ـ نشأت حمارنة : تاريخ الطـب، طباعة الاتحـاد الوطني لطلبـة سورية ، مؤسسـة الامالي الجامعية ، دمشق ، ١٩٧٨ ـ ١٩٧٩ م ،ص٨٦و٨٧.

تعتقد أن سبب أمراض الانسان أرواح شريرة لا يتمكن من شفائها الا الكهّان ، ومن المنجمين الذين يعتقدون بوجود صلة بين الانسان والكواكب في حياته ، ومن السحرة والمشعوذين(٢) .

فاذا ما نظرنا الى هذه المفاهيم ، وقارناها بما دعا اليه الاسلام ، على لسان رسوله (ص) لادركنا بوضوح الروح الانسانية الرفيعة ، والنظرة الواقعية ، اللتين اتصف بهما الرسول (ص) وأرادهما للمسلمين بأن يتمثلوها في حياتهم العامة والخاصة على حدّ سواء . وأيا كانت هذه التوجيهات محدودة في عددها ، عامة في مراميها وأهدافها ، لا تتناول جزئيات الأمراض التي كان المسلمون يتعرضون لها ، وماهية الدواء الشافي وأسراره الذي كان الرسول (ص) يصفه لأصحابه ، الا أن هذه التوجيهات والارشادات شكلت فيما بعد القواعد الاولى التي ارتكز عليها علم الطب بكل تفاصيله وجزئياته وثبت أنها كانت ذات دلالات علمية صحيحة ، وتشكل في اطارها العام فلسفة وجود علم الطب الحديث ، كغرض من أغراض المحافظة على صحة الانسان وسلامة جسده وعقله ، وتجنيبه ويلات الآلام والمتاعب الجسدية التي يمكن أن يعانيها المريض . لقد دعا الرسول (ص) بصراحة ووضوح الى تقصي أسباب المرض والقضاء عليها ، وذلك عندما سئل مرة : أفي الطب خير يا رسول الله؟ قال (ص) : « نعم ، أنزل الدواء من أنزل الداء »(٣) .

ودعا الى النظافة لأن فيها وقاية من انتشار الأمراض والأوبئة فقال (ص) : « إن الله طيّب يحب الطيب ، نظيف يحب النظافة ، كريم يحب الكرم ، جواد يحب الجود ، فنظفوا أفناءكم وساحاتكم ، لا تشبهوا باليهود ، يجمعون الأكبّ في دورهم »(٤) .

---

٢ ـ حكمت نجيب عبد الرحمن : دراسات في تاريخ العلوم عند العرب ، ص٣٧ .
٣ ـ ابن جلجل : طبقات الاطباء والحكماء ، تحقيق فؤاد السيد ، طبعة القاهرة ، أرناؤوط ، الطبعة الاولى ، ١٩٨٠ م ، ص ١٣٢ .
ـ ابن قيم الجوزية : الطب النبوي ، تحقيق شعيب أرناؤوط وعبد القادر ١٩٥٥ م ، ٥٤ .
٤ ـ ابن قيم الجوزية : الطب النبوي ، ص ٢٧٩ .

ودعـا الى الاعتدال في الأكل والشـرب ، لأن الكثـير فيهما تسبب التخمة واربالك الجسم وتعرضه للأمراض ، قال (ص) : « ما ملأ آدمي وعاء شرا من بطن، بحسب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه ، فان كان لابد فاعـلا ، فثلث لطعامه وثلث لشرابه ، وثلث لنفسه »(٥) .

ودعا الى ما يعرف اليوم بالحجر الصحي عنـد انتشار وباء من الأوبئة المعدية وذلك خشية تفشي ذلك الوباء وانتقاله الى أجسام الأصحاء . فيرى أنه قال (ص) في مرض الطاعون : « اذا سمعتم به بأرض فلا تقدموا عليه ، واذا وقع بأرض وأنتم بها ، فلا تخرجوا فرارا منه »(٦) .

وفي العدوى وانتقال جرثوم المرض من الجسـم العليل الى الجسم الصحيح قال (ص) : «لا توردوا الممرض على المصح »(٧) .

ودعاء الى مكافحة الحمّى بالماء البارد ، قال (ص) : « ان الحمى من فيح جهنم فأبردوها بالماء »(٨) .

ودعا الى المعالجة النفسية بتطبيب النفوس وتقوية القلوب ، قال (ص) : « اذا دخلتم على المريض ، فنفّسوا له من الأجل ، فان ذلك لا يرد شـيئا ، وهو يطيب نفس المريض »(٩) .

ودعا الى المعالجة بشرب العسل والحجامة والكي ، قال (ص) : « الشـفاء في ثـلاث ، شربة عسـل وشرطة محجم ، وكيّـة نار ، وأنا أنهى أمتي عـن الكي »(١٠) .

---

٥ ـ ابن قيم الجوزية : الطب النبوي ، ص ١٧ و ١٨ .
٦ ـ صحيح البخاري : الجزء الرابع ، ص ١٤و١٥ .
٧ ـ صحيح البخاري : الجزء الرابع ، ص ٢٢ .
٨ ـ ابن قيم الجوزية : الطب النبوي ، ص ٢٨ و ٢٩ .
ـ نشأت حمارنة : المرجع السابق ، ص ٨٧.
٩ ـ ابن قيم الجوزية : الطب النبوي ، ص ١١٦ .
ـ نشأت حمارنة : المرجع السابق ، ص ٨٧ .
١٠ـ صحيح البخاري : الجزء الرابع ، ص ٩ .
ـ ابن قيم الجوزية : الطب النبوي، ص ٥٠ .
ـ نشأت حمارنة : المرجع السابق ، ص ٨٧ .

وهكذا وضع الرسول (ص) الأسس الصحيحة العامة ، ودعا الناس الى الاستعانة بالأطباء الذين كان عدد منهم في عصره في الجزيرة العربية ، وعلى رأس هؤلاء الحارث بن كلدة الثقفي : الذي اشتهر أمره كأول طبيب عربي في الاسلام ، مثال ذلك ما ينقله لنا ابن جلجل في كتابه (طبقات الأطباء والحكماء)، وهي رواية عن سعد بن أبي وقاص ، يقول فيها : « مرضت مرضاً ، فعادني رسول الله ، فقال لي : « ايتِ الحارثَ بن كلدة فانه رجل يتطبب »(١١) .

وهكذا فانه يستنتج مما ذُكر ، أن المسوّغ الشرعي للاقبال على تعلم الطب كان موجودا منذ اللحظات الأولى للدعوة الاسلامية .

يذكر لنا المستشرق الدكتور ادوارد جي براون في كتابه (الطب العربي) انه قبل أن يبدأ في التحضير لالقاء محاضراته التي احتواها كتابه المذكور ، سأل السير كليفورد ألبرت ، أستاذ الطب الباطني في جامعة كمبردج ، عن أحسن المراجع في تاريخ علم الطب ، فأجابه بأنه العلم الذي وضعه النبي محمد ، لأنه هو وعلم الدين على مستوى واحد ، اذ قال :

« العلم ، علمان ، علم الأديان وعلم الأبدان »(١٢) .

ولتوضيح المستوى الذي كان عليه الطب في عصر الرسول والخلفاء الراشدين، يجدر بنا أن نأتي على سيرة أشهر طبيب عربي عُرف في صدر الاسلام، وأهم معارفه الطبية التي اكتسبها هذا الطبيب العربي ونادى بها ، لكي نستطيع أن نتلمس أوجه الشبه والخلاف في المعارف الطبية ومدى تأثيرها في تطوير علم الطب في العصور اللاحقة ، وعلى الأخص عند دراستنا لهذا العلم في العصر الأموي .

وطبيبنا العربي هذا هو الحارث بن كلدة الثقفي الذي سافر كثيرا في طلب هذا العلم ، بالاضافة الى ما أخذه واكتسبه من الرسول (ص) . فقد زار فارس

١١ــ ابن جلجل : المصدر السابق ، ص ٥٤ .
١٢ــ السيوطي : الاتقان في علوم القرآن ، الجزء الرابع ، ص ١٢٧ .
ــ ادوارد جي براون : الطب العربي ، نقله الى العربية وعلق عليه داود سليمان علي ، مطبعة العاني ، بغداد ، ١٩٦٤ م ، ص ٧و٨ .

ونزل في مدرسة جنديسابور وتعلّم الكثير في مجال معرفة الأمراض وطريقةمداواتها ومعالجتها • كما أنه زار اليمن أيضا ، ولعله استفاد شيئا جديدا هناك[١٣] •

عاش أيام الرسول (ص) والخلفاء الراشدين الأربعة ، ومعاوية بن أبي سفيان ويروى أن معاوية قال له : « ما الطب يا حارث ؟ فقال : الأزَم[١٤] ، يعني الجوع »[١٥] •

أما أهم المعارف الطبية التي نادى بها الحارث بن كلدة ، فهي[١٦] :

آ ــ عن الطعام والشراب ، نهى عن ادخال الطعام على الطعام لئلا يصاب الانسان بالتخمة التي تؤثر على صحته العامة •

ب ــ وعن الفواكه ، فقد حض على أكلها في اقبالها وأوانها ، وتركها اذا أدبرت ولت وانقضى زمانها • وأن أفضل الفواكه في رأيه : الرمان والأترج[١٧] •

ج ــ حض على الزواج من المرأة الفتية ، وعدم اتيان المرأة المسنة ، وأكد أن الفرق بين المرأة والرجل في السن ، يجب أن يؤخذ بعين الاعتبار •

١٣ــ ابن ابي اصيبعة : عيون الانباء في طبقات الاطباء ، شرح وتحقيق نزار رضا ، منشورات دار مكتبة الحياة ، بيروت ، ص ١٦١ •
ــ ابن جلجل : المصدر السابق ، ص ٥٤ •

١٤ ــ الازم : في اللغة « الحمية والمسك » .. يقال ازم الرجل عن الشيء امسك عنه (نقلا عن ابن جلجل في طبقات الاطباء والحكماء ، ص ٢٥٥) •

١٥ــ ابن ابي اصيبعة : المصدر السابق ، ص ١٦١ •
ــ ابن حلجل : المصدر السابق ، ص ٥٤ •

١٦ــ ابن جلجل : المصدر السابق ، ص ٥٤ وما بعدها •
ــ ابن ابي اصيبعة : المصدر السابق ، ص ١٦٢ وما بعدها •
ــ مؤلف مجهول : طبقات الاطباء ، مخطوط الظاهرية رقم ٦١٧٦ ، ص ١٤/١٠١ •
ــ القفطي : تاريخ الحكماء ، ص ١٦١ و ١٦٢ ، طبعة ليبزيغ ، سنة ١٩٣٠م •
ــ نشأت حمارنة : المرجع السابق ، ص ٥٨ ••

١٧ــ الاترج : ثمر من جنس الليمون ، تسميه العامة الكباد (نقلا عن ابن أبي اصيبعة في عيون الانباء ، ص ١٦٣) •

د ــ وفي مجال التشريح ، فقد قسّم العين الى ثلاثة أقسام .

هـ ــ نهى عن التعرض الى حرارة الشمس كثير ، لأن ضررها عندئذ يصبح أكثر من نفعها .

و ــ نهى عن تناول الدواء ، الا عند الضرورة . فانه لا يصلح شيئا الا أفسد مثله .

ز ــ وعن الماء وشربه ، فقد أكد بأن الماء حياة البدن وبه قوامه ، وأن أنفعه ما شرب منه بقدر .

ثانيا ــ الطب والاطباء في العصر الاموي :

إن المنطقة التي قامت فيها عاصمة الخلافة الأموية ، كانت من المناطق المتحضرة والمتقدمة نسبيا في الفترة السابقة للفتح الاسلامي لها ، بمعنى أنه ليس من الغريب القول بأنها كانت متقدمة على صعيد الطب والأطباء والحياة الصحية ، وبالتالي لابد أن يكون قد وجد فيها عدد من الأطباء كانوا عونا لخلفاء بني أمية في تحقيق تطلعاتهم نحو حياة صحية أفضل تتناسب مع الازدهار الاقتصادي والاجتماعي والسياسي والديني الذي توصلت اليه الدولة العربية الاسلامية في هذا العصر ، سيما وأن هذا الأمر لا يتعارض مع تعاليم الدين الاسلامي التي كانت مصدر كل شيء في ذلك الوقت ، وهي لا تتعارض مع هذه التعاليم بقدر ما تطبق روحها ومضمونها وخاصة منها التي جاءت في القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف .

والشيء الذي يقف أمامنا هنا كمانع قاهر في سبيل دراسة الحالة الطبية والصحية في هذا العصر دراسة تفصيلية واضحة ، إن جميع المصادر التي اختصت بالحديث عن الأمويين وحكمهم خلال فترة قرن من الزمان تقريبا ، لم تولِ هذا الشأن كبير اهتمام بالقدر الذي أولته للأحداث السياسية على سبيل المثال . ونعتقد أنه لولا أن بعض الأطباء الذين كانوا قد عملوا لدى بلاط بعض الخلفاء والأمراء ، لما كانت ذكرتهم كما هو واقع .

لكن بالرغم من كل ذلك ، فان الأمويين كحكام ، كان لهم باع طويل الى حد ما بالتركيز على الناحية الطبية واستمرارها ، كظاهرة تساعد على دفع حركة المجتمع باتجاه التطور ، كما وجدوا أنه من الضروري لاستمرار الحياة وسعادة الرعية ، الاهتمام بشؤون الصحة العامة لما فيها من فائدة في ازدهار المجتمع بشكل ايجابي ونسهم في تقدمه على جميع المستويات ، وهذا الاهتمام نلحظه منذ مطلع العصر الأمويين حتى ولاية الخليفة عمر بن عبد العزيز الذي أمر باخراجه الى المسلمين اسمه « ابن أثال » والآخر اسمه « الحكم بن أبي الحكم الدمشقي »[١٨] . وفي ولاية مروان بن الحكم ، قام الطبيب السرياني « ماسرجويه »[١٩] بترجمة كتاب « أهرن القس »[٢٠] . من اللغة السريانية الى اللغة العربية ، وحفظ في خزائن كتب الأمويين حتى ولاية الخليفة عمر بن عبد العزيز الذي أمر باخراجه الى المسلمين للاطلاع عليه والانتفاع به[٢١] .

ومن مظاهر اهتمام الخليفة الأموي ، الوليد بن عبد الملك ، بالطب والأطباء وأمور المحافظة على الصحة العامة للأمة أنه أمر ببناء بيمارستان في دمشق سنة ٨٨ هـ/٧٠٦ م وجعل فيه الأطباء ، وأمر بحجر المجذومين وأجرى عليهم الأرزاق . وكان الوليد أول من أنشأ البيمارستان للمرضى وأول من أجرى على العميان والمساكين الأرزاق[٢٢] .

ولم يقتصر بناء البيمارستانات (المستشفيات) على مدينة دمشق فحسب ، بل أقيمت في أنحاء مختلفة من الدولة العربية الاسلامية في العصر الأموي ، كبيمارستان الفسطاط في مصر ، واستمر بيمارستان جنديسابور على شدته في تقديم

١٨ـ حكمت نجيب عبد الرحمن : المرجع السابق ، ص ٤١ .
١٩ـ وتذكره بعض المصادر باسم « ماسرجيس » ، انظر ابن النديم في الفهرست ص ٤١٣ .
٢٠ـ أهرن بن أعين القس ، طبيب من اهل الاسكندرية ، وكتابه في الطب يقع في ثلاثين مقالة ، زاد عليها ماسرجويه مقالتين (انظر ابن جلجل في طبقات الاطباء والحكماء ، ص ٦١و٦٢) .
٢١ـ ابن جلجل : المصدر السابق ، ص ٦١.
٢٢ ـ اليعقوبي : المصدر السابق ، الجزء الثاني ، ص ٢٩٠ .

الخدمات الطبية والصحية ، والتأهيل الطبي في العصر الأموي[٢٣] • وتشبه هـذه البيمارستانات الى حد كبير المشافي الحكومية في عصرنا الحاضـر من حيث مداواة المرضى والاعتناء بهم حتى يتماثلوا الى الشفاء • وبالنسبة الى الأمراض التي كانت شائعة في ذلك العصر ، فلم تتحدث لنـا المصادر عن وجود أوبئة مستوطنة في أي اقليم من أقاليـم الدولة على سبيل الحصـر يمكن الاشارة اليهـا وايضاح أسباب وجودها وطرق معالجتها ، باستثناء تلك اللمحة الخاطفة التي أشـار اليها كرزويل

وهو يتحدث عن تاريخ بناء قصر الحير الشرقي والموقع الذي أقيـم فيه هذا القصـر ، فيقول : « لكن وباء الطاعون جعل هشام (أي هشـام بن عبد الملك) يبتعد عن مكان اقامتـه السابق ، وبناء مكان اقامـة جديد له ، هو قصر الحير الشرقي »[٢٤] • نستنتج من هـذا القول ، أن هناك وباء قد انتشـر في تلك الفترة ، وهو مرض « الطاعون » • أما ما عدا ذلك فيمكن وصف الحالة الصحية وطرق معالجتها في العصـر الأموي استمرارا لما كانت في الفتـرة السابقة من حيث معرفة الداء والدواء الشافي لذلك الداء ، ولوقاية من الأمراض ، والمحافظة عـلى الصحة العامة • ولكي تتوضح حقيقة ما كانت عليه الحالة الصحية والطبية في هذا العصر فليس أجدر من دراسـة حياة الأطباء في العصـر الأموي ، نشأتهم وثقافتهم الطبية ، وكيفية ممارستهم لمهنتهم الطبية وبالتالي ذكر أهم المشافي التي أنشئت •

على أن أشهر الأطباء الذين عرفوا في العصر الأموي ، والذين تحدثت عنهـم المصادر التاريخية هم :

ـ ابن أثال[٢٥]: الذي يمكن اعتباره نموذجا للطبيب الصيدلي ، لأن ما اشتهر عنه بالاضافة الى معرفته الطبية ، أنه كـان عارفاً بمسائل تحضير الأدوية والعقاقير الطبية[٢٦] • فقد اختص الخليفة الأموي الأول ، معاوية بن أبي سـفيان ، بتعيين

٢٣ـ أحمد عيسى بك : تاريخ البيمارستانات في الدولة الاسلامية ، مخطوط الظاهرية رقم ٧٣١٧ ، ص ٣٤ـ٣٦ •

٢٤ـ

٢٥ـ ابن ابي أصيبعة : عيون الانباء في طبقات الاطباء ، ص ١٧١ •

ـ مؤلف مجهول : طبقات الاطباء ، مخطوط الظاهرية رقم ٦١٧٦ ، ص١٥ •

٢٦ـ ابن ابي أصيبعة : المصدر السابق ، ص ١٧١ •

ابن أثال كطبيب خاص له يرافقه في الحلّ والترحال أينما ذهب وحيثما أقام وذلك لشدة ما كان يثق به ويعتمد عليه ، ويعتقد فيه ، لدرجة أنه كان كثيرا ما يبقيه معه في الليل • ويذكر بعض المؤرخين أن هذا الاهتمام الكبير بابن أثال من قبل معاوية ، كان اضافة الى ثقتـه به وبعمله ، وليكون معـه اذا داهمه المرض فجـأة ، كان لاستخدامه في تحضير بعض السموم التي كان معاوية يستخدمها أحيانا في القضـاء على خصومه ومعارضيه[٢٧] • وهذا الأمر يحتاج الى دراسـة أعمق • ولقد عرف عن هذا الطبيب خبرته الواسعة في تحضير السموم،ومما يدل على ذلك تلك الاشارة التي ذكرها ابن أبي أصيبعة حيث قـال : « ومات في أيام معاوية جماعة كثيرة من أكابر الناس والأمراء من المسلمين بالسـم »[٢٨] • ومن ضحايا معاوية الذين ماتوا بانسم عبد الرحمن بن خالد بن الوليد ، حيث يروى أن معاوية لمـا أراد أن يظهر العقد ليزيد ، قال لأهل الشام : « إن أمير المؤمنين قد كبرت سنه ، ورق جلده ، ودق عظمه ، واقترب أجلـه ، يريد أن يستخلف عليكم فمن ترون » فقالوا : عبد الرحمن بن خالد بن الوليد • فسكت معاوية ، وأضمرها • ودسّ ابن أثال اليه ، فسقاه سما ، فمات[٢٩] •

وقد ظل ابن أثال يعمل في خدمة معاوية فترة لابأس بها من الزمن حتى انتهت حياته بالقتل في مدينة دمشق من قبل خالد بن المهاجر بن خالد بن الوليد[٣٠] •

ـ أبو الحكم[٣١] : وقد عرف بأبي الحكم الدمشقي النصراني ، ولم ترد في المصادر أي تسمّية له أبعد من ذلك• أما معارفه الطبية فلم تكن لتختلف عن معارف سلفه في شيء ، من حيث معرفته الواسعة في تحضير السموم ، فقد جمع أبو الحكم

٢٧ـ مؤلف مجهول : طبقات الاطباء ، ص ١و١٦ •
ـ لوسيان لوكليرك : تاريخ الطب العربي ، ص٨٦ •
٢٨ـ عيون الانباء في طبقات الاطباء ، ص ١٧١ •
ـ مؤلف مجهول : طبقات الاطباء ، ص ١٥و١٦ •
٢٩و٣٠ ـ ابن ابي اصيبعة : المصدر السابق ، ص ١٧٢ •
٣١ـ ابن ابي اصيبعة : المصدر السابق ، ص ١٧٢ •
ـ مؤلف مجهول : طبقات الاطباء ، ص ١٦ •
ـ حكمت نجيب عبد الرحمن : لمرجع السابق ، ص ٤٢ •

بين معرفة الطب والأدوية المفردة وكيفية تحضيرها ، وبقي الطبيب الخاص بمعاوية، يحركه كيفما يشاء ، ويستخدمه كما يريد وذلك حتى وفاته[٣٢] .

لا تتحدث المصادر شيئا عن أبي الحكم في الفترة التي أعقبت وفاة معاوية الخليفة الأموي الأول ، وكيف أصبح مركزه وما هي مهمته ، ما عدا بعض الاشارات البسيطة ، التي يستفاد منها أنه بقي في خدمة الحكام الأمويين ورجال الدولة ، كتلك التي ذكرها ابن أبي أصيبعة ، ومفادها أن أبا الحكم هو الذي أشرف على علاج عبد الملك بن مروان في وعكته الأخيرة ، التي أدت الى وفاته ، فكان أن حذّره من شرب الماء حتى أربعة أيام ، لكن عبد الملك لم يسمع نصيحة أبي الحكم ، فأقدم على تناول الماء بعد ثلاثة أيام ، الأمر الذي أدى الى وفاته[٣٣].

لم يشتهر أبو الحكم بشيء مميز يستحق الوقوف عنده ، غير ما ذكر ، بالرغم من أنه عمّر حتى المائة عام تقريبا[٣٤] .

ومن أسرة أبي الحكم اشتهر ابنه المعروف بـ :

ـ الحكم الدمشقي[٣٥] : وكان طبيبا مرافقا لوالده أبي الحكم ، لأنه كان عارفا بأمور المداواة وبعض المسائل الطبية الأخرى التي كان قد استقاها وعرفها على يد والده ، وبالرغم من أن جميع المصادر لا توليه تلك الأهمية التي أولتها لوالده، فانه امتاز عن أطباء عصره ومن جاء قبله ، بناحية كانت لها أهميّتها الكبيرة في علم الطب في العصر الأموي ، تلك الميّزة هي معرفته في علم الجراحة الطبية آنذاك ، ولكنها لا تعدو أن تكون مظهرا من مظاهر مهارته في مهنته ومعرفته لعلم الطب في عصرنا الحاضر ، ذلك أنه ساهم في انقاذ أحد المرضى من مدينة دمشق ، أجريت له عملية فصد ، ووقف الفاصد عاجزا عن اتيان أية حيلة تؤدي الى وقف النزف ،

٣٢ـ ابن أبي أصيبعة : المصدر السابق ، ص ١٧٥ .
٣٣ـ ابن أبي أصيبعة : المصدر السابق ، ص ١٧٦ .
ـ مؤلف مجهول : طبقات الاطباء ، ص ١٧ .
٣٤ـ ابن أبي أصيبعة : المصدر المطابق ، ص ١٧٥ .
ـ لوسيان لوكليرك : المرجع السابق ، ص ٨٣ .
٣٥ـ لوسيان لوكليرك : المرجع السابق ، ص ٨٣ و ٨٤ .

وانهاء العملية بنجاح ، حتى حضر الحكم الدمشقي هذا وساعد على نجاح العملية بمهارة فائقة ، بعد أن استعان بقشر الفستق في وقف النزف الدموي من مكان الفصد للمصاب ، وانقاذ حياته من موت كان محققا ، هذا بالاضافة الى بعض الاجراءات الطبية الأخرى[٣٦] .

ويأتي في سلسلة الأطباء الذين اشتهروا في العصر الأموي ، طبيب اختص بتطبيب الحجاج بن يوسف الثقفي ، أحد الولاة البارزين في خلافة بني أمية ، هذا الطبيب هو :

ـ تياذوق : الذي عرف بمهارته الطبية الواسعة ، الأمر الذي حدا بالحجاج بن يوسف الثقفي لأن يقربه ويغدق عليه الأعطيّات المجزية [٣٧] .

لم تعرف نشأة الطبيب تياذوق ، ولا من أين استقى علومه الطبية وعلوم صنعة الأدوية . لكن ما ورد في بعض المصادر ، في سياق الترجمة لحياته ، يدل بوضوح على أن هذا الطبيب كان ماهرا في صنعته ومتمكنا منها . ويمكن اعتباره من الأطباء العامين في الصحة[٣٨] . وعلى الرغم من مهارته في مهنة الطب ، وصدقه في عمله ، فاننا لا نرى شيئا جديدا مميزا من الاكتشافات الطبية ، تختلف عن معارف سلفه من الأطباء الا ما ندر . ويبدو أنه في تطبيبه كان متأثرا بطب الرسول ونصائحه الطبية ومن ذلك أنه نهى عن الزواج من المرأة المسنة ، وحض على الزواج من المرأة الشابة . وحض على عدم شرب الدواء الا عند المرض . ونهى عن أكل الفاكهة الا وهي ناضجة ، لأن أكل الفاكهة غير الناضجة تسبب تكون الغازات في جوف الانسان . وحض على النوم خلال النهار وخاصة بعد تناول الطعام ، والمشي في

٣٦ــ ابن ابي أصيبعة : المصدر السابق ، ص ١٧٦ و ١٧٧ .
ــ مؤلف مجهول : طبقات الاطباء ، ص ١٧ و ١٨ .
ــ لوسيان لوكليرك : المرجع السابق ، ص ٨٣ و ٨٣ .
٣٧ــ ابن عبد ربه : العقد الفريد ، الجزء الرابع ، ص ٣١٤ .
ــ ابن أبي أصيبعة : المصدر السابق ، ص ١٧٩ .
ــ ابن القفطي : تاريخ الحكماء ، ص ١٠٥ .
ــ لوسيان لوكليرك : المرجع السابق ، ص ٨٢ .
٣٨ــ ابن أبي أصيبعة : المصدر السابق ، ص ١٧٩ــ١٨١ .

المساء ، وعدم احقان البـول ، والاستحمام كل يومين ، وعـدم أكل الأشياء التي لا يمكن مضغها جيدا ، وعدم ادخال الطعام على الطعام تجنبا للتخمة ، الى غـير ذلك من المعلومات الطبية[٣٩] .

أما مميزاته الطبية ، فمنها اشارته الى أن قشـر الفستق اذا ما لاكه الانسان ومضغه بشـكل جيد ، فانّه يؤدي الى ايقـاف الاسهالات مهمـا كانت قويـة وشديدة[٤٠] . وشـيء آخر تميّز به الطبيب تياذوق ، هـو اقدامه على التأليف في ميدان علم الصيدلة حيث وضع كتابا خاصا بابنه أسماه كتاب ابدال الأدوية، ويدور مضمون هذا الكتاب حول كيفية تحضير الأدوية ومزجها ، وبالتالي تسمية الأمراض التي يمكن معالجتها بواسطتها[٤١] .

والذي يبدو أيضـا أن الطبيب تياذوق لم يكن يعمـل كطبيب خاص للحجاج فحسب ، بل كان يشتغل في ميـدان التدريس ، واعداد التلاميذ والمهتمين بصناعة الطب أيضا . ودليـل ذلك يأتي من أحـد تلامذته ، فرات بن شحناثا اليهودي ، الذي برز بشكل مميّز ، فوصفه البعض بالفضل والاتقان والدقـة في اختصاصه ، الأمر الذي جعل أستاذه تياذوق يرفعـه ويفضله على كل تلاميذه ، ويعتمد عليه في كثير من أمور الصنعة[٤٢] .

أما أين كان يدرس ، في منزله أم في البيمارستان ؟ وفي أي اقليـم من أقاليم الدولة العربية الاسلامية ؟ فان ذلك الأمر لم يرد صراحـة في المصادر التي تحدثت عن الطبيب تياذوق . لكننا نستنتج من ملازمة تياذوق للحجاج حتى وفاته ، أنوفاة تياذوق هـذا كانت بمدينة واسط في العراق سـنة ٩٠ هـ/٧٠٨م [٤٣] ، وأن هذه

٣٩ ــ ابن عبد ربه : المصدر السابق ، الجزء الرابع ، ص ٣١٤ .
ــ ابن أبي أصيبعة : المصدر السابق ، ص ١٧٩ وما بعدها .
ــ لوسيان لوكلير ك: المرجع السابق ، ص ٨٢و٨٣ .
٤٠ــ ابن أبي أصيبعة : المصدر السابق ، ص ١٧٩ .
٤١ــ ابن أبي أصيبعة : المصدر السابق ، ص ١٨١ .
٤٢ــ القفطي : المصدر السابق ، ص ٣٥٥ .
ــ لوسيان لوكليرك : المرجع السابق ، ص ٨٣ .
٤٣ــ ابن أبي أصيبعة : المصدر السابق ، ص ١٨١ .
ــ لوسيان لوكليرك : المرجع السابق ، ص ٨٣ .

المدينة كانت مقر الحجاج طيلة فترة ولايته على العراق ، بالاضافة الى أن المصادر لم تشر على وجود بيمارستان في مدينة واسط ، لذلك فاننا نميل الى التأكيد بأن تياذوق كان يقوم بمهنة التدريس في منزله بمدينة واسط في العراق .

أما مؤلفات تياذوق الطبية فهي : كناش كبير ألفه لابنه ، وكتاب في تحضير الأدوية وبدائلها(٤٤) .

ــ عبد الملك بن أبجر الكناني : يسترعي انتباهنا ونحن نحاول دراسة حياة هذا الطبيب ، ذلك الخلاف والتناقضات من حيث تحديد اسمه وكنيته ومهنته والزمان والمكان اللذين عاش فيهما في تلك المصادر التي تحدثت عن ابن أبجر الكناني ، بحيث يستدعي الأمر التوقف قليلا أمام هذه الروايات ومناقشتها منطقيا وعلميا لنخلص الى حقيقة مقنعة .

فقد ذكره ابن أبي أصيبعة باسم « عبد الملك بن أبجر الكناني » وإن هذا الطبيب كان يتولى التدريس في مدرسة الاسكندرية الطبية ، وبعد الفتح الاسلامي، تحول ابن أبجر عن دينه ، النصرانية ، واعتنق الاسلام ، ثم انتقل الى الشام بعد أن آلت الخلافة الى عمر بن عبد العزيز سنة ٩٩ هـ/٧٦٨ م ، ونقل التدريس من الاسكندرية الى أنطاكية وحرّان في بلاد الشام ، وكان عمر بن عبد العزيز يستطب ابن أبجر ويعتمد عليه في صناعة الطب(٤٥) .

ــ وذكره ابن جلجل في طبقات الأطباء والحكماء باسم « ابن أبجر ... وكان طبيباً عالماً ، وعان في أيام بني مروان ، وروى أن عمر بن عبد العزيز كان يبعث اليه بمائه »(٤٦) .

ــ وذكر في طبقات الأطباء ، لمؤلف مجهول ، تحت اسم « عبد الملك بن أبجر الكناني » بأنه تولى التدريس بالاسكندرية بعد الاسكندرانيين ، ولما فتح المسلمون

٤٤ــ ابن أبي أصيبعة : المصدر السابق ، ص ١٨١ .
٤٥ــ ابن أبي أصيبعة : المصدر السابق ، ص ١٧١ .
٤٦ ــ المصدر السابق ، ص ٥٩ .

انبلاد ، أسلم على يد عمر بن عبد العزيز وهو أمير قبل أن تفضي الخلافة اليـه ، وصحبه ، فكان يستطبه ويعتمد عليه[٤٧] .

ــ وذكره محقق طبقات الأطباء والحكماء ، لابن جلجل ، باسم « عبد الملك بن سعيد بن حيان بن أبجر الكناني ، ويقال الكناني الكوفي » ، وانه توفي بعد سفيان الثوري المتوفى سـنة ١٦١ هـ/٧٧٧ م . وان ابن أبجر كان على علم بالطب والمرض ولم يذكر أنه كان نصرانيا وأسلم . وان ابن أبجر لم يرد له ذكر بين أسماء المشتغلين بالتدريس في كل من أنطاكية وحران في بلاد الشام ، كمـا ذكر أيضا عن « بني أبجـر » بأنهم ينتسبون الى بني فـراس من كنانة وانهم كانوا أطبـاء في الكوفـة[٤٨] .

من هذه الروايات المتعددة التي تحدثت عن ابن أبجر نستنتج ما يلي :

ــ انه من غير الممكن أن يكون ابن أبجر قد اشتغل بالتدريس في الاسكندرية قبل الفتح العربي الاسلامي لمصر سنة ١٩ هـ/٦٤٠ م ، وعاش بعد هذا التاريخ حتى أنه عاصر كامل فترة الخلافة الأموية وأنه توفي سنة ١٦١ هـ/٧٧٧ م ، أي عـاش قرابة القرن ونصف من الزمان ، هذا بالاضافة الى أن القبيلة التي ينتسب اليهـا وهي « الكناني » قد كانت تقيم في الكوفة في العراق وليس بمصر .

ــ ويذكر ابن حجر العسقلاني أن ابن أبجر كان نصرانيا وأسلم .

ذلك كله يعطينا الدليل القاطع على أنه ربما كانت هناك شخصيتان تحت اسم واحد متشابه اشتغلتا بالطب احداهما في فتـرة متقدمة في الاسكندرية ، والأخرى في خلافة عمر بن عبد العزيز ، وربما حصل التباس بين الشخصيتين في كتب التراجم التي تحدثت عن هذا الطبيب .

٤٧ــ المصدر السابق ، ص ١٥ .

٤٨ــ ابن جلجل : المصدر السابق، الحاشية ، ص ٥٧و٥٨ (نقلا عن ابن حجر العسقلاني في تهذيب التهذيب ، الجزء السادس ، ص ٣٩٤ و ٣٩٥)

ومما يؤكد وجود شخصيتين تحت اسم متشابه ، ما ذكره لوسيان لوكليرك في كتابه « تاريخ الطب اعربي » ، من أنه قد عاش في الاسكندرية فيلسوف مسيحي اسمه « أدفر » كان شغوفاً بعلم الكيمياء ، وتتلمذ عليه شاب روماني اسمه مريانوس وتعلم منه صناعة الكيمياء . وعن مريانوس هذا أخذ الصنعة خالد بن يزيد بن معاوية بن أبي سفيان المتوفى سنة ٨٥ هـ/٧٠٤ م . ويظن أن « أدفر » هذا هو ابن أبجر الذي ذكره ابن أبي أصيبعة ، انه تولى التدريس في مدرسة الاسكندرية قبل الفتح الاسلامي ، ولعل ابن أبي أصيبعة خلط بينهما[٤٩] .

ــ ماسروجيه : يختلف هذا الطبيب عن كل الأطباء الذين ظهروا في فترة حكم الخلفاء الأمويين ، في ناحية هامة ، هي اقدامه على الاشتغال بالترجمة ونقل الكتب من بعض اللغات الاجنبية الى اللغة العربية ، بالاضافة الى اشتغاله بأمور الطبابة والمداواة[٥٠] .

لقد قام ماسرجويه بترجمة كتاب أهرن بن أعين القس في الطب ، والذي وصف بأنه أفضل الكتب التي أُلّفت في ميدان الطب في العصور القديمة . ومما يؤكد صحة ذلك ، أن عمر بن عبد العزيز أمر باخراج هذا الكتاب الى الناس ليقرأوه ويستفيدوا منه[٥١] .

ونستطيع أن نميّز ماسرجويه عن غيره من الأطباء الذين سبقوه بناحية أخرى هامة جداً ، اذ برَع في ميدان التأليف ، فقد صنّف كتابين : الأول دعاه « قوى الأطعمة ومنافعها ومضارها » ، والثاني كتاب « قوى العقاقير ومنافعها ومضارها »[٥٢] .

وعلى الرغم من المستوى الرفيع الذي بلغه ماسرجويه في معرفته الطبية ، فقد وقف حائرا أمام بعض الحالات المرضية التي كانت تعرض عليه من قبل المصابين

٤٩ـ المصدر السابق ، ص ٦٢ .
٥٠ـ القفطي : المصدر السابق ، ٣٣٤/٣٣٦ .
ــ لوسيان لوكليرك : المرجع السابق ، ص ٧٧و٧٨ .
٥١ـ القفطي : المصدر السابق ، ص ٣٣٤ .
٥٢ـ ان جلجل : المصدر السابق ، ص٦١.

مباشرة • الأمر الذي يجعلنا نميل الى الظن بأن معظم الأطباء الذين عرفوا في هذه الفترة كانوا متقاربين في مستوى الأهلية والخبرة الطبية • مثال ذلك ، أن رجلا جاءه يشكو من ألم في معدته ، والألم كما وصفه المريض يبدو وكأن أحياء حية تتحرك في معدته ، ولا تختفي هذه الحركات في بطنه الا اذا أكل ، فاذا ما أكل سكن كل ما كان يشعر به من ألم ، ثم لا تلبث أن تعاوده الحالة نفسها عندما يجوع ثانية[٥٣] • لم يفعل ماسرجويه شيئا أما هذه الحالة المرضية التي ذكرناها ، سوى أنه وقف حائرا أمام المريض وأخبره بأنه هو نفسه يعاني منها بشكل أعنف وأشد ، وما كان من ماسرجويه ، هذا الطبيب الكبير ، الا أن بادر المريض بوصفة اتكالية محضة ، وهي أن يقدم على الدعاء الى الله أن يشفيه منها ، وينقلها الى من هو أحق منه بها[٥٤] •

إن هذه الحالة تقودنا بدون شك الى أن معلومات الأطباء في فترتنا هذه كانت بمجملها معلومات محدودة نقلوها عن سابقيهم بطريقة الحفظ ،وربما أدخلوا عليها بعض التحسينات ، فكانوا يعرفون فقط تطبيب الحالات التي حفظوا عنها ، ولم يكلفوا أنفسهم مشقة التفكير في تقصي أسباب الظواهر المرضية التي تستجد، كتلك الحادثة التي ذكرناها •

ثالثا ــ البيمارستانات في العصر الأموي :

لقد رافق وجود الأطباء والمهتمين بالحكمة في العصر الأموي ، وجود المشافي الحكومية التي كان يعودها المرضى ، ويتلقون فيها المعالجة المجانية • وهذا النوع من الخدمة العامة للاهتمام بالصحة العامة للمريض ، وتقديم العلاج الملائم له ، والمناخ المناسب لحالته الصحية ، يشبه المستشفيات في أيامنا هذه • وخاصة في الدول التي توصلت الى تأميم الطب ، ومجانية توفير التطبب الى جميع المواطنين المرضى ، فوفرت في تشريعاتها وأنظمتها في ميدان الخدمات العامة للمواطنين مسألة الضمان الصحي كحقيقة واقعة ملموسة •

٥٣ــ القفطي : المصدر السابق ، ص ٣٣٥ و ٣٣٦ •
٥٤ــ القفطي : المصدر السابق ،ص٣٣٦ •

وكان من أقدم هذه البيمارستانات في فترة بحثنا ، البيمارستان الـذي بني تحت المأذنة الغربية من الجامع الاموي الكبير في مدينة دمشق ، وينسب بنـاء هذا البيمارستان الى معاوية بن ابي سفيان أو الى ابنه يزيد[٥٥] .

وهنالك أيضاً في مدينة دمشق البيمارستان الذي أمر ببنائه الوليـد بن عبـد الملك ، الخليفة الاموي السادس ، بعد أن تولى الخلافة سنة ٨٦هـ / ٧٠٥م .وقد خصص الوليد هذا المشفى للمرضى من الزمني والمجذومين والعميـان والمساكين ، وخصص لهؤلاء المرضى الخدم والأطباء والادويـة والارزاق ، وغـير ذلـك من المستلزمات التي تتطلبها حالتهم الصحية[٥٦] .

وعرفت مصر مثل هذه البيمارستانات في العصر الاموي ، فقد بُني بيمارستان الفسطاط في حي القناديل ، وقد سمي حي القناديل بهذا الاسم لانه كان يرسم قنديل كان على باب جامع عمرو بن العاص[٥٧] .

ووجد في جند يسابور[٥٨] بيمارستان ، اشتهر منذ فترة طويلة قبل ظهـور الاسم . وقد ظل هذا البيمارستان محافظاً على شهرته في العصر الاموي ، وبشكل خاص كمؤسسة تعليمية للطب وتخريج الكوادر الطبية حيث يمكننا القول ، حسب المعلومات التي وفرتها لنا المصادر بأن جميع الاطباء الذين عرفوا في العصر الاموي، تخرجوا منه[٥٩] .

ان وجود مثل هذه البيمارستانات في العصر الاموي ، يدل على أن الاطبـاء الذين ذكـروا في هـذا البحث لم يكونوا وحدهم الذين مثلوا القواعـد الكاملة

٥٥ـ ابن العماد الحنبلي : المصدر السابق ، الجزء الثالث ، ص ٤ .
٥٦ـ أنظر ص ٢٦٥ من هذا البحث ومابعدها .
٥٧ـ احمد عيسى بك : تاريخ البيمارستانات في الدولة الاسلامية ، مخطوطة الظاهرية بدمشق ، رقم ٧٣١٧ ، ص ٣٤ وما بعدها .
٥٨ـ جنديسابور : مدينة باقليم خوزستان ، فتحها المسلمون سـنة ١٩هـ / ٦٤١ م (ياقوت الحموي ، الجزء الخامس ، ص ١٧٠) .
٥٩ـ احمد عيسى بك : المرجع السابق ، ص ٣٤ـ٣٦ .

للكادر الطبي عند الامويين ، لانه لم تذكر لنا المصادر التي توفرت لنا ، أن أحدا من الذين ذكرناهم وأبرزنا أهم معارفهم الطبية ، عمل في هذه البيمارستانات الا القليل النادر ، حيث كانوا مختصين بمعالجة الحكام فقط ، الامر الذي يساعد على القول بأن هنالك عددا كبيرا من الاطباء الذين لم تهتم المصادر بذكرهم ، لانه لم يكن لهم اتصال بالخلفاء ، هم الذين قاموا بمهمة معالجة المرض في هذه البيمارستانات التي ذكرت .

وهذا الامر يبدو طبيعيا جدا ، لانه لا يعقل أن ستة أطباء أو أكثر بقليل ، لا يمكن لهم أن يتوزعوا حيث توجد هذه المستشفيات ، خاصة وانهم لم يوجدوا في فترة زمنية واحدة . ومهما يكن من أمر هؤلاء الاطباء المغمورين ، فانهم لم يشتهروا بشيء جديد كما كان حال الذين خصتهم المصادر بالترجمة ، اذ لو كان ذلك قد حصل ، لما كانت المصادر قد ضنت بذكره .

لكن يقتضي الامر بالاعتراف أن قولا كهذا لا يبقى هو الاصح والاكمل، كون الذين كتبوا عن فترة الحضارة العربية في العصر الاموي ، انما عاشوا في العصر العباسي ، وتحت ظل حكام لم ينظروا أبدا للامويين ، الا من منظار الكراهية والتحامل ومحاولة طمس كل ما هو ايجابي يعزى اليهم .

رابعا ــ مميزات الطب في العصر الاموي :

آ ــ ان الاطباء الذين وجدوا في العصر الاموي لم يكونوا متساوين على صعيد المعرفة العلمية ، أو على صعيد المواقع التي احتلوها في ميادين العمل . اذ أن المعرفة العلمية والتضلع بها ، كانت تلعب دوراً رئيسياً وفعالا لأن يقرب خلفاء بني أميّة هذا الطبيب أو ذاك ، ويعتمدونه كطبيب خاص بهم . يضاف الى ذلك أن المعرفة العلمية والخبرة في العمل الطبي ، اقترنتا الى حد كبير بالثقة التي كان بعض خلفاء بني أمية يرجونها في أطبائهم من أجل الاعتماد عليهم في عمليات التداوي دون خوف أو شك وبالتالي استخدامهم كأطباء في تحضير السموم للتخلص من بعض المعارضين السياسيين الذين كانوا مصدر قلق وخوفهم .

ب ـ ان المكتشفات العلمية في ميدان الطب خلال هذه الفترة كلها ، لم تكن ذات قيمة كبرى ، يمكن وضعها في قائمة المكتشفات العلمية العربية في العصور الوسطى وذلك كما كان الحال عليه في الفترات اللاحقة . واقتصر الامر بأن الاطباء الذين عرفوا في هذا العصر ، كانوا يقرأون كتب غيرهم ويطبقون مضمونها ، دون أن يركزوا على تطويرها أو اغنائها باضافات علمية جديدة ومبتكرة .

جـ ـ ان ماعرف في العصر الاموي في مجال الطب وممارسته ، كان كبيرا بالقياس الى الفترة التي سبقته ، بالاضافة الى أهميته الكبرى من حيث اعتباره الركيزة الاساسية الاولى ، والقاعدة الثابتة العريضة ، للانطلاق نحو افاق جديدة في ميدان علم الطب ، وتبلورت المعرفة الطبية بشكل أوسع وأفضل كماً ونوعاً في الفترات الزمنية التالية ، وذلك كما كان الحال عليه في فترة حكم بني العباس على سبيل المثال .

ب ـ علم هندسة البناء في العصر الاموي

تمهيـــد :

يقول العلامة العربي ابن خلدون : « ان العلوم تكثر حيـث تكثـر وتعظم الحضارة »[1] لقد ربط ابن خلدون بين العلوم وازدهار الحضارة من جهة ، وبـين كثرة العمران البشرى من جهة أخرى • يستفاد من هذا القول أن الرابطـة تـزداد موثوقاً كلما تزايدت أطراف هذه المعادلة ، وذلك اذا ما اعتبرنـا العلوم وازدهار الحضارة طرفاً ، وكثرة العمران طرفاً آخر • كما يعلل ابن خلدون بقوله هذا ، بأن الصنائع (ويعني بالصنائع هنا تعليم العلوم)، انما تكثر في الأمصـار ، وتتناسـب كثرتها طردياً مع ازدياد العمران ، والحضارة والترف ، لأن ازدياد الحضارة والترف أمـر زائد في حياة الانسان الضرورية ، الأمر الذي يدفع بالانسان بعد بلوغه هذه المرحلة في معاشه ، للاتجاه الى ما وراء المعاش من التصرف في خاصية الانسـان ، وهي العلوم والصنائع •

ونحن اذ نتفق مع فيلسوفنا العربي الى حد ما على هذا التعليل ، فاننا ننتقـل الى صلب الموضوع الذي نحن بصدده ،لنرى مدى صحة تطبيقه على الصعيد العملي في فترة بحثنا •

إنه أصبح من الوضوح بمكان ، أن هندسة البناء ، كتطبيق عملي ، انما ظهرت نتائجها بسرعة مذهلة في العصر الاموي[2] ، وبصورة مميزة عن ذلك الذي لاحظناه

---

١ ـ مقدمة ابن خلدون : ص ٤٣٤ •
٢ ـ ارنست كوتل : الفن الاسلامي ، ترجمة احمد موسى ، طبعة دار صادر بيروت ، ص ١٦ •

لدى حديثنا عن علمي الطب والكيمياء لنفس الفترة ـ العصر الأموي ـ في الفصول السابقة •

ولا أظن أننا نبتعد عن قلب الحقيقة عندما نقول أن السبب في تلك الميزة يعود بالدرجة الاولى الى الاهتمام الكبير الذي أعطاه الخلفاء والولاة الامويون للمسائل الهندسية على مختلف أنواعها • لقد غدت الحاجة الاجتماعية ، والتي بدت جماعية في هذا الميدان ، ضرورة يتطلب الامر تنفيذها بعد أن عم الاستقرار السياسي والازدهار الاقتصادي جميع مناطق الدولة العربية الاسلامية[٣] ، بشكل أفضل بكثير ، اذا ما قارنا هذه الفترة بالفترة السابقة ، ونعني بها تلك الفترة التي حكم فيها الخلفاء الراشدون ، التي اتسمت الى حد ما بسمة التأسيس والتوطيد لمقومات الدولة الجديدة ، حيث كانت أمور الفتح والانشغال بمتطلبات الدولة العسكرية والادارية ، هي الظاهرة الغالبة على تلك الفترة • ان هذه الامور لم تسمح أو بالاحرى لم تساعد اقتصاديا ، على التركيز على قيام المنشآت العمرانية والتفكير بها ، وان كان الامر لم يصل الى درجة الفقر التام ، حيث أقيمت بعض المدن الجديدة كالبصرة والكوفة في زمن عمر بن الخطاب[٣] •

لذلك فان عامل الاستقرار والهدوء ، بالاضافة الى الازدهار الاقتصادي أديا الى التركيز على التوسع في بناء المنشآت العمرانية الهامة • ويمكن القول ان هذه المنشآت اقتصرت في البداية على تشييد المدن الجديدة ، والقصور الفخمة التي أعدت لتكون مستقراً يقيم فيها الخلفاء والأمراء • ومن ثم المساجد الكبيرة والفخمة لاستيعاب جماهير المصلين من المسلمين الذين كانوا يزدادون يوما بعد يوم، يضاف الى ذلك منشآت الحمامات والخدمات العامة التي تتطلبها احتياجات تلك المنشآت العمرانية [٤] •

---

٣ ـ غوستاف لوبون : حضارة العرب ، نقله الى العربية عادل زعيتر ، الطبعة الثانية ، ص ٢٢ •

٣ ـ الطبري : المصدر السابق ، الجزء الثالث ، ص ٥٩٠ ومابعدها ، والجزء الرابع ، ص ٤٠ وما بعدها ،

٤ ـ ارنست كونل : المرجع السابق ، ص ١٦ •

فما أن استولى الامويون على الخلافة ، وانتقلت عاصمة الدولة الاسلامية من المدينة والكوفة الى دمشق سنة ٤١هـ/ ٦٦١م ، حتى ظهر الاتجاه الى تشييد المساجد الفخمة ، والقصور الشماخة لحكام المسلمين ، لا تقل في فخامتها وروعتها عن تلك المعابد والكنائس المسيحية وقصور بيزنطة التي كانت قائمة في بلاد الشام . وعلى ذلك قامت في الدولة الاسلامية الجديدة حركة بناء نشطة ، حيث كان من السهل استيراد المواد واستقدام العمال والفنيين من مختلف أنحاء الدولة الاسلامية[٥] . كما ساعد المهندسون السوريون ومن رعايا الدولة الاسلامية في تطبيق أصول البناء وفقاً للاحتياجات الاجتماعية والدينية وفي نطاق المظهر الشرقي[٦] ، ونشأ على يد هؤلاء جميعاً من مسلمين ومسيحيين الطراز الاموي في هندسة البناء ، وأصبحت له خصائصه المميزة في تاريخ العمارة الاسلامية ، وانتشر في بلدان حوض البحر الابيض المتوسط كما في شمال افريقيا والاندلس على يد الحكام والقادة العسكريين وأتباعهم حيث ظهرت دولة أموية في الاندلس احتفظت بأغلب الاساليب المعمارية على الطراز الأموي الشرقي (الشامي) كما في مسجد قرطبة بالاندلس وكثير من المنشآت العمرانية هناك[٧] .

ان ما شيد في العصر الاموي من مدن ومساجد وقصور ، يعطينا فكرة واضحة عن مستوى علم هندسة البناء لذلك العصر ، لكننا نرى أنه من الانسب ، وقبل الخوض في تفاصيل هذه الامور ، أن نشير هنا الى المميزات العامة لهندسة البناء في العصر الأموي ، والتي يمكن اجمالها بالآتي :

١ ــ ان مخططات القصور كانت أشبه ما يكون بالحصون الصغيرة ، حيث كان يحيط بالقصر سور مرتفع مزود بالابراج ، وغالبا ما تكون هذه الابراج ذات

---

٥ ــ ديمتري برامكي : تطور الهندسة المعمارية والفن في عهد الامويين ، المؤتمر الثاني للآثار في البلاد العربية ، بغداد ١٨ــ٢٨ تشرين الثاني ١٩٥٧م . نشر بمعرفة الادارة الثقافية بجامعة الدول العربية سنة ١٩٥٨ بالقاهرة ، ص ١٣١ ــ ١٣٣ .

٦ ــ كمال الدين سامح : العمارة في صدر الاسلام، نشر وزارة الثقافة والارشاد القومي ، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر ، ص ١١ .

مساقط دائرية أو نصف دائرية • ويتوسط القصر باحة سماوية محاطة بأروقة ، تليها أجنحة سكنية مستقلة • وتذكر لنا المصادر أن هذه الهندسة مستوحاة أو متأثرة بهذه العمارة الشرقية القديمة الرافدية المتطورة في العهود اللاحقة الرومانية والساسانية[٨] •

٢ ـ ان المادة التي استخدمت في البناء ، كانت غالبا من الحجر الكلسي الجيد النحت ، وأحياناً من الحجر الغشيم والآجر ، مع طلاء بالجص [٩] •

٣ ـ أما هندسة بناء المساجد في العصر الاموي، فقد تميزت بالفخامة والاتساع بحيث تستوعب جمهور المصلين في المدينة بالاضافة الى احداث المحراب في وسط الجدار المواجه للكعبة (وهذا المحراب عبارة عن تجويف في صدر الجدار) للدلالة على جهة الكعبة • كما استحدث انشاء منارة المسجد لاقامة الاذان • وتذكر لنا المصادر ان المحراب ربما كان مأخوذا عن حنية الهيكل في صدر الكنيسة وان منارة المسجد مأخوذة عن الفنارات وأبراج الاشارة المعروفة في العصور السابقة • وقد راعى الامويون اقامة رباطات للجنود الفاتحين بجانب المساجد التي شيدت في البلاد الحديثة الفتح[١٠] •

اولا ـ بناء المدن :

لقد اشتهر في العصر الأموي نوع من الهندسة ، يمكن تسميتها بهندسة المدن وتخطيطها والتي يمكن اعتبارها استمرارا لما حدث زمن الخليفة الراشدي عمر بن الخطاب ، حيث ظهرت الى الوجود مدن جديدة كالبصرة والكوفة ، اللتين شيدتا لتكون مستقرا للجند وقيادة الجيوش[١١] •

---

٧ ـ كمال الدين سامح : المرجع السابق ، ص ١١ •
ـ ارنست كونل : المرجع السابق ، ص ١٥و١٦ •
ـ زكي محمد حسن : فنون الاسلام ، طبعة دار الرائد العربي ، ١٤٠١هـ/١٩٨١م ، ص ٣٢ و ٣٣ •
٨ ـ عبد القادر ريحاوي : العمارة العربية الاسلامية، منشورات وزارة الثقافة والارشاد القومي ، دمشق ، ١٩٧٩ م، ص ٤٣ •
٩ ـ عبد القادر ريحاوي : المرجع السابق ، ص٤٣ •
١٠ـ ارنست كونل : المرجع السابق ، ص ١٧ •
١١ـ — IRA M. LAPIDUS : Middle Eastern Cities, University of California Press, Berkeley and Los Angeles, (1969 A.C.) PP. 21 - 70.
— A. H. HOURANI & S. M. STERN : The Islamic City, Published under the auspices of the Near Eastern History Group and the Near East Center, University of Pennsylvania, PP. 9 - 25.

وان كانت المدن التي بنيت في العصر الاموي قليلة جدا ، فانها تختلف عن تلك المدن التي بنيت زمن العصر الراشدي ، بأنها جمعت بين أن تكون مستقرا للجند وغير الجند في وقد واحد ، كما سنرى عند حديثنا عن مدينتي الرملة والقيروان ، بحيث أصبحت هذه الأخيرة مركزاً حضارياً ، لعب دوراً بارزاً في الشمال الافريقي من الدولة العربية الاسلامية ، ولفترة طويلة من الزمن(١٢) .

أما تخطيط المدن بشكل عام، فيفترة بحثنا ،فلم يكن ليعتمد على الخبرة الاجنبية كما هو الحال في كثيرمن الاحيان ، عندماشيدت المساجد والقصور . لذلك فانه يلاحظ أن جميع المدن التي بنيت في العصر الاموي، كانت تتسم بصفات مميزة مشتركة تنحصر في أن هذه المدن لم تكن تحتوي على مرافق بلدية عامة لترفيه المواطنين، كوجود الساحات العامة أو المسارح أو الملاعب ، وربما يعود السبب في ذلك الى أن رقعة الارض التي كانت تقام عليها المدينة ضيقة الى درجة لا تسمح باقامة مثل هذه المرافق ، وان كان من المحتمل أنها كانت من الامور غير المستحبة لدى المسلمين في تلك الفترة من الزمن ، وهو الارجح ، بحيث استعيض عنها ببناء المساجد وقصور الحكام والحمامات .

ويلاحظ أن المساكن في المدن العربية الاسلامية ، كانت تتشابك مع بعضها ، وكانت تبنى من الخشب والطين والتبن . وهذا التشابك ونوعية مواد البناء كانت تشكل خطرا كبيرا على سلامة البناء بحيث لو قذفت أي مدينة بشرارة نار واحدة ، كان ذلك كافياً لحرق المدينة بأكملها .

ان ما يجب الاعتراف فيه ، كنتيجة عامة لما قمنا به من بحث ودراسة في الابواب والفصول السابقة ، أن الاسلام دين رفاه وسعادة للبشر كافة ، نشأ وترعرع وكون حضارة راقية ، انطلقت سهامها من جميع المدن التي قطنها المسلمون . لذلك فانه من الاهمية بمكان ، أن تتعرض بالدراسة والبحث عن

١٢ـ محمد علي ديوز : تاريخ المغرب العربي ، الجزء الثاني ، الطبعة الاولى ، ١٣٨٢هـ / ١٩٦٣م ص ٢٧ـ٢٩ .

ثلاث مدن قدّر لها أن تشاد في العصر الاموي ، لنتلمس الاهداف الاولى التي أقيمت من أجلها هذه المدن ، ومستوى الفكر الهندسي الذي تجلى في بنائها .

أ ـ مدينة القيروان :

تعتبر مدينة القيروان أول مدينة عربية اسلامية شيدت بعد أن تسلم الامويون شؤون الخلافة والحكم[١٣] . ولعل السبب الذي حدا بالقائد العربي عقبة بن نافع ، ممثل طموحات الخلافة ، لبناء مدينة القيروان هو الرغبة في تحقيق الاهداف التي قدم من أجلها الى المغرب العربي . هذه الاهداف تمثلت بفتح جميع اقطار بلاد المغرب ، وترسيخ العقيدة الاسلامية فيها ، وجعلها احدى مناطق الدولة العربية الاسلامية . لذلك وأمام هذا الواقع ، كان لا بد من ايجاد قاعدة رئيسية تكون بمثابة مركز تتجمع فيه ، وتنطلق منه الجيوش العربية الفاتحة المتجهة الى الغرب ، وبالتالي تكون هذه المدينة مقراً لادارة هذه الجيوش في شمال افريقية[١٤] . وقد آثر عقبة بن نافع أن تكون قاعدته هذه برية ، اذ كان يخشى أن يهاجمها الروم بالاساطيل فجأة فتتعرض للغزو وبسهولة ، بينما يستطيع المسلمون التأهب لمدافعة الغزاة لو كانت قاعدتهم داخلية . وبالاضافة الى هذا الموقع الداخلي الذي تتميز به القيروان ، فقد كانت أيضا قريبة من السبخة لتتمكن الابل والدواب من الرعي بسهولة وتكون في مأمن من العدوان الخارجي[١٥] . وكان موقع القيروان الذي اختاره القائد العربي ، واديا كثير الشجر تأوي اليه الوحوش والسباع والهوام ، فأمر عقبة الناس بتنقيته ، وما أن أتم المسلمون تنقيته من الاشجار حتى شرع عقبة بتخطيط دار الامارة والمسجد الجامع ولكنه لم يقم به أي بناء ، وكان يصلي في أرضه دون أن يكون قد أقيمت فيه جدران . ويبدو ان الناس اختلفوا معه في تحديد الاتجاه الصحيح للقبلة ، باعتباره اول

١٣ـ البلاذري : المصدر السابق ، ص ٢٣٠ .

١٤ـ السيد عبد العزيز سالم : تاريخ المغرب العربي ، العصر الاسلامي ، الجزء الثاني ، طبع الدار القومية للطباعة والنشر ، ١٩٦٦م ، ص١٩٩/٢٠٠ .

١٥ـ ياقوت الحموي : معجم البلدان ، طبعة دار صادر بيروت ، الجزء الرابع ، ص ٤٥٠ .

المساجد الجامعة في هـذا القطر المفتوح ، وباعتبار قبلته سوف تكون الانموذج الذي ستحتذيه سائر المحاريب في المساجد الجامعة في بلاد افريقية[16] •

وما ان تم تركيز القبلة في المسجد ، حتى شرع المسلمون في بناء الجامع وفي تشييد دورهم ومساكنهم وجميع المنشآت العمرانية اللازمة لاقامتهم من اسواق ومرافق ، وبنى لهـا سور من اللبن والطين حيث بلغت دائرة هذا السور آنذاك (١٣٦٠٠) ذراع ، أي ما يعادل تسعة آلاف وخمسمائة متر ،• والجدير بالذكـر أن حركة بناء مدينة القيروان دامت نحو خمس سنوات ، حيث اكتمل بناؤها سنة ٥٥ هـ/٦٧٥ م[17] •

وكنا نود أن نعطي تفاصيل لمعلومات هندسية اكثر من ذلك ، لكن معظـم المصادر التي توفرت لدينا والتي تحدثت عن بناء مدينة القيروان ، لم تعطنا بيانات هندسية عن تخطيط هذه المدينة ولا عن مساحة الارض التي بنيت عليها وان كان ذلك لا يختلف عن الطراز الذي كان سائداً آنذاك في بناء المدن الاسلامية •

ب ـ مدينة واسط :

وهي المدينة الثانية التي شيدت في العصر الاموي • وموقعها وسط ما بـين الكوفة والبصرة • قام ببناء هذه المدينة والي العراق الى عبد الملك بن مروان ، الحجاج بن يوسف الثقفي • أما تاريخ بنائها فمختلف فيه ما بين سنة ٧٥ و ٧٨ هـ/ ٦٩٥ و ٦٩٨ م ، كما يذكر لنا بحشل في كتابه ـ تاريخ واسط[18] • أما الطبري في تاريخه فيتفق مع ما ذكره البلاذري في كتابه ـ فتـوح البلدان[19] ـ على أن

١٦ـ السيد عبد العزيز سالم : المرجع السابق ، الجزء الثاني ، ص١٩٩/٢٠٠ •
١٧ـ اليعقوبي : المصدر السابق ، الجزء الثاني ، ص ٢٢٩ •
ـ البلاذري : المصدر السابق ، ص ٢٣١ •
ـ ياقوت الحموي : معجم البلدان ، الجزء الرابع ، ص ٤٢١ •
ـ ف. بارتولد : تاريخ الحضارة الاسلامية ، ترجمة حمزة طاهر ، مطبعة دار المعارف ببغداد ، ص ٢١ •
١٨ـ بحشل (أسامة بن سهل الرزاز): واسط ، تحقيق كوركيس عواد ، مطبعة المعارف ببغداد ١٣٨٧هـ / ١٩٦٧م ، ص ٢١ •
١٩ـ البلاذري : المصدر السابق ، ص ٢٨٨ •

بناء مدينة واسط كان عام ٨٣ أو ٨٤ هـ/ ٧٠٣ أو ٧٠٤ م ، لكن اليعقوبي في تاريخه يقول : « وبنى الحجاج مدينة واسط في السنة التي هرب فيها ابن الاشعث ونزلها وقال : أنزل بين الكوفة والبصرة[٢٠] • ولما كانت هزيمة ابن الاشعث وأصحابه في وقعة مسكن سنة ٨٣ هـ/٧٠٣ م ، فالأغلب أن مدينة واسط بنيت سنة ٨٣ هـ/٧٠٣ م[٢١] •

والسؤال الذي يتبادر الى الذهن ، هو لماذا بنى الحجاج مدينة جديدة يتوسط موقعها بين مدينتين عريقتين في تاريخ الدعوة الاسلامية والفتح الاسلامي في منطقة الجناح الشرقي من الدولة العربية الاسلامية ، مدينتي البصرة والكوفة ؟

تجمع المصادر التاريخية على أن العراق برمته كان مصدر قلق سياسي مستمر للخلفاء الامويين ، وان الثقل السياسي والديني والثقافي كان متمركزا في مدينتي البصرة والكوفة ، المدينتين الرئيسيتين في العراق • كما اشتهر أن تكون احدى هاتين المدينتين هي المركز العسكري والاداري للجناح الشرقي من الدولة • ولعل شعور الحجاج بأن اقامته في احدى هاتين المدينتين ، ستكون مبعث قلق سياسي له من أهل المدينة الثانية التي تشكل المعارضة ضده • لذلك فكر جديا ببناء مدينة ستكون وسطاً في موقعها بين بين البصرة والكوفة • فقرر بناء مدينة واسط التي أصبحت مقرا للحجاج والجند الشامي المرافق له ، وبقيت طيلة فترة حكم الامويين المدينة الرئيسية في العراق[٢٢] •

لقد بنيت مدينة واسط على ضفتي نهر دجلة الذي كان يشطر المدينة الى شطرين شرقي وغربي • ويروي أن الشطر الشرقي قد بني على أنقاض بلدة يسكنها

٢٠ــ الطبري : المصدر السابق ، الجزء السادس ، ص ٣٨٣ و ٣٨٤ •
ــ ياقوت الحموي : معجم البلدان ، الجزء الثاني ، ص ٣٤٨ •
ــ اليعقوبي : المصدر السابق • الجزء الثاني ، ص ٣٧٩ •
٢١ــ ابن قتيبة الدينوري : المعارف ، محمد محمد اسماعيل عبد الله الصاوي ، الطبعة الثانية ، بيروت دار احياء التراث العربي ، ١٣٩٠هـ/١٩٧٠ م ، ص ١٥٦ •
٢٢ــ بحشل : المصدر السابق ، ص ٢٢ و ٢٣ •
ــ ياقوت الحموي : المصدر السابق ، الجزء الخامس ، ص ٣٤٧ •

الساسانيون والفرس والنبط وتدعى بلدة كسكر • أما الشطر الغربي فقد استحدث بناءه الحجاج وخص سكناه بالعرب فقط ولم يسمح لغيرهم من الاقوام بسكناه الا بعد وفاته حيث اختلط العرب والعجم على مر الزمن واتحد الشطران ليكونا مدينة واحدة دون تمييز بين السكان[٢٣] •

وما دام الحجاج قد خصص الجانب الغربي لسكنى العرب فمن الطبيعي أن يكون قد اختط قصره ومباني ادارة ولايته والجامع الكبير في الشطر الغربي منها • ولقد بلغت تكاليف بناء مدينة واسط الشيء الكثير ، اذ يروى أنها بلغت مجموع قيمة خراج العراق لمدة خمس سنين متتالية[٢٤] •

أما شكل المدينة ، فمن المحتمل ان يكون مستطيلا بخلاف ما كانت عليه المدن الاسلامية آنذاك من اتباع الشكل الدائري في بناء مدنهم ، وهذا الاستنتاج وان غفلت المصادر التاريخية عن ذكره ، لكننا نقدره من تقسيمات المدينة وموقعها على نهر دجلة الذي كان يشطرها الى شطرين •

وبالنسبة لمخطط المدينة بشكل عام ، فقد اشتمل على قصره الشامخ ذي القبة الخضراء التي كانت ترى عن بعد ثلاثين ميلا ، والمسجد الجامع للمدينة ، وسوقا تجارية كبيرة كانت تزدحم بالبضائع والتجار • وهذا الامر امتازت به هذه المدينة عن غيرها ، فكانت السوق من السعة بحيث امتدت من القصر حتى شاطيء دجلة شرقاً • وكان شطرا المدينة محاطين بسور يليه خندق على امتداد هذا السور الذي تكاملت استحكاماته بشاطيء دجلة ، جعلت من الصعب دخول الناس الى المدينة الا من الابواب الرئيسية لها[٢٥] •

ويروى أن الحجاج نقل الى مدينة واسط وجوه أهل الكوفة وامرهم ان يصلوا عن يمين مقصورته ، ونقل وجوه أهل البصرة وامرهم ان يصلوا عن يسار

٢٣ـ بحشل : المصدر السابق ، ص ٢٢ـ٢٥ •
٢٤ـ بحشل : المصدر السابق ، ص ٢١ •
٢٥ـ بحشل : المصدر السابق ، ص ٤٤•

المقصورة • وأمر من كان من أهل الشام ان يصلوا بحياله مما يلي المقصورة • وأنزل أصحاب الطعام والبزازين والصارفة والعطارين عن يمين السوق • وأنزل البقالين واصحاب الفاكهة في قبلة السوق ، وانزل العمال والصناع عن يسار السوق الى دجلة[٣٦] •

أما قصره ذو القبة الخضراء ، فقد جعل له أربعة ابواب ، عرض كل طريق من الطرق المؤدية الى ابوابه ثمانون ذراعا[٢٧] •

ج ــ مدينة الرملة :

وهي المدينة الثالثة التي شيدت في العصر الاموي ، أنشأها الخليفة الاموي سليمان بن عبد الملك عندما كان واليا على فلسطين لاخيه الوليد بن عبد الملك • كما انها اول مدينة جديدة أنشأها العرب المسلمون في بلاد الشام[٢٨] •

وتختلف مدينة الرملة ــ من حيث اسباب انشائها ــ عن المدينتين السابقتين القيروان وواسط في ناحية هامة ، وهي انها لم تنشأ لاسباب عسكرية بالقدر الذي شيدت فيه لاسباب شخصية محضة • اما موقعها السابق ، قبل تشييدها فكان عبارة عن منطقة رملية ، تبتعد بعض الشيء الى الغرب من مدينة القدس ، وعلى الطريق المؤدية من القدس الى مدينة يافا غربا على ساحل البحر الابيض المتوسط[٢٩] • وأول شيء بني في المدينة القصر الذي أقامه سليمان بن عبد الملك لنفسه ثم خطط المسجد ، وبدأ ببنائه ، لكنه اصبح خليفة قبل اتمامه ، واستكمل بناء المسجد في عهد الخليفة عمر بن عبد العزيز[٣٠] •

٢٦ــ بحشل : المصدر السابق ، ص ٤٤/٤٥ •
٢٧ــ البلاذري : المصدر السابق ، ص ٢٨٨ •
٢٨ــ البلاذري : المصدر السابق ، ص ١٤٩ •
٢٩ــ CRESWELL : Op. Cit. ,Vol. 1 , P. 482 . —
ــ دائرة المعارف الاسلامية ، المجلد العاشر ، ص ١٩٣ و ١٩٤ •
ــ البلاذري : المصدر السابق ، ص ١٤٩ •
٣١ــ CRESWELL : Op. Cit. ,Vol. 1 , P. 482 . —

ولا ندري ما الاسباب التي دفعت سليمان بن عبد الملك الى بناء مدينة الرملة بالرغم من وجود مدينة بيت المقدس ، التي تحتل مكانة مرموقة عند جميع المسلمين فهي على سبيل المثال لم تشيد لتكون قاعدة لتحقيق أهداف عسكرية حيوية ملحة كما كان الامر بالنسبة لمدينتي القيروان وواسط • كما أنه لا يمكن لها أن تحتل مكانة دينية كمكانة بيت المقدس ، الامر الذي برهنت عليه مجريات الاحداث في الفترات الزمنية التالية ، حيث بقيت مدينة بيت المقدس محور اهتمام المسلمين على مختلف الصعد وشتى المجالات ، على الرغم من ان سليمان امر بنقل الحياة المدنية الى مدينة الرملة ، وظلت قرونا مدينة فلسطين الرئيسية ، الا ان مكانتها بقيت محلية لدى جميع العرب المسلمين(٣١) •

ولعل بناء مدينة الرملة كان لاسباب شخصية محضة لدى سليمان بن عبد الملك بغية الشهرة وتخليد الذكرى بانجاز حضاري معين ، كما دأب بعض الخلفاء الامويين ، هذا من جهة ، ومظهرا من مظاهر الرخاء الاقتصادي الذي بلغته الدولة العربية الاسلامية في هذا العصر من جهة أخرى •

وقبل أن نختم حديثنا عن بناء المدن في العصر الاموي ، فانه لجدير بالذكر أن جميع المدن التي ذكرناها ، لم تتميز عن بعضها في امور المخطط الهندسي العام ، انما تشابهت في ذلك تماما ، اذ كان يحيط بكل مدينة سور من جميع الجهات ، وفي كل سور أربعة أبواب تشكل مداخل المدينة الرئيسية • ويتوسط المدينة قصر الخليفة أو الامير او الوالي ، ثم يليه بناء المسجد ، فأبنية ذوي المنزلة الاجتماعية العالية ، ثم منازل عامة الناس من المواطنين(٣٢) •

ثانيا ـ بناء المساجد :

ان الناحية العمرانية الهامة التي ركز عليها الامويون هي بناء المساجد التي كتب لها البقاء والخلود ، لحسن اعتنائهم بها وشدة التركيز على بنائها

---

٣١ ـ ف. بارتولد : المرجع السابق ، ص ٣٢ •
ـ ياقوت الحموي : المصدر السابق ، مجلد ٣ ، ص ٦٩ وما بعدها •

٣٢ ـ Guy LE STRANGE With a New International b Walid KHALDI : Palestine under the Moslems, PP. 303-341 .
A.H. HOURANI ; & S.M.STERN : Op. Cit. , PP. 9-25 .

وإتقانها • واذا كانت مخططات المـدن العربية اسلامية صرفة ، وان الاستعانـة بالخبرة الاجنبية فيهـا كانت معدومة ، فان الخبرة من الذين اشتهروا في مجـال البناء استعين بها في هندسة البناء في المساجد •

ان فكرة اقامة المساجد الاولى في الاسلام ، انما كانت لوقاية جماعة المصلين من تقلبات الجو ، ومراعاة نظام الصفوف في الصلاة ، والاتجاه فيها الى جهـة الكعبة في مكة • وعلى ذلك كان النموذج القديم للمسجد ، بصحنـه وحرمـه المنخفض المسطح المسقوف ، ذي الاروقة الممتدة متوازية مع جدار القبلة • وعلى الاغلب فان الشكل الكلي للمسجد مأخوذ من صحـن البيت ، وعـن المكان المكشوف الذي كان يخصص للصلاة قبل الاسلام ، وكانوا يطلقون عليه اسم المصلى(٣٣) •

وقد كان بناء المسجد في البداية بسيطا جدا ، فالجدران كانت تبنى مـن الطين وجذوع النخل ، والسقف من الجريد ، ثم اقتضت الضرورة أن يكون بناء المسجد أقوى ، فاستخدمت لتقويته حجارة الدور القديمة المخربة(٣٤) •

ولما بدأت الفتوح الاسلامية ، أسس العرب في العراق ومصر مدنا جديدة وشيدوا فيها مساجد بسيطة كما فعلوا في البصرة والكوفة والفسطاط • أما في الشام فكانوا يحولون في بعض المدن الكبيرة الكنيسة او جزء من الكنيسة الى مسجد يتخذونه للصلاة ، بعد نقل اتجاهها من الشرق الى الجنوب بحيث تصبح الساحة الطويلة المحاطة بالاعمدة صحنا عريضا • كما اقيم المحراب في المسـجد للدلالة على جهة الكعبة(٣٥) • وربما كان شكل المحراب قد أخذ عن حنية الهيكل

٣٣ـ ارنست كونل : المرجع السابق ، ص١٦ •
ـ زكي محمد حسن : فنون الاسلام ، طبعة دار الرائـد العربي ، بيروت ، بيروت ، ١٤٠١ هـ / ١٩٨١م ، ص ٣٣•
٣٤ـ ارنست كونل : المرجع ، ص ١٧ •
٣٥ـ البلاذري : المصدر السابق ، ص ١٣٧ •
ـ نعمت اسماعيل علام : فنون الشرق الاوسط في العصور الاسلامية ، طبعة دار المعارف ، سنة ١٩٧٤ ، ص ١٨ •
ـ نجدة خماش : دراسات في الاثار الاسلامية ، طبعة دمشق ، ١٤٠١هـ ــ ١٤٠٢/١٩٨١ ــ ١٩٨٢ م ، ص ١٦ •

في صدر الكنيسة ، كما أقيمت المنارات للمساجد لاغراض الاذان ، حيث لم تكن مثل هذه المنارات في السابق ، وربما تأثر المسلمون باقامة المنارات (المآذن) من الفنارات وأبراج الاشارة المعروفة في العصور السابقة وخاصة أبراج القبور التدمرية . وعلى هذا النمط كانت أكثر المساجد التي أقامها الامويون في المشرق والمغرب(٣٦) .

وهكذا بدأت المساجد تخرج من بساطتها شيئا فشيئا الى أن وصلت الى المستوى الهندسي الرفيع في مسجد الصخرة في القدس ، وجامع دمشق ، ومسجد الرسول (ص) في المدينة بعد ان اعيد بناؤه ، حيث تعتبر هذه المساجد مفخرة للعصر الاموي بشكل خاص وللحضارة الاسلامية بشكل عام .

والملاحظ أن التركيز على بناء المساجد الفخمة ، التي مازالت عظمتها تتألق حتى يومنا هذا ، قد جاء في وقت متأخر الى حد ما من عمر الدولة الاموية . أما عدد هذه المساجد التي اقيمت في هذا العهد ، فهو كبير بحيث كان يصاحب أي تجمع سكاني للمسلمين ، سواء كان ذلك عند فتوحهم لاي مصر أو مدينة قائمة ، او انشاء مدن جديدة ، فكان اول عمل انشائي يقومون به هو بناء المساجد الى جانب القصر او مكان الجيش أو سكنى عامة للمسلمين(٣٧) .

لذلك فلن يتسع بحثنا للحديث عن جميع المساجد التي شيدت في العصر الاموي ، ولكننا سنكتفي بالكلام عن أشهر هذه المساجد والتي مازالت قائمة حتى يومنا هذا تنطق بمدى التقدم والعظمة اللذين توصل اليهما بناة هذه المساجد في هندسة البناء ، بالاضافة الى أنها تعكس لنا مدى اهتمام حكام ذلك العصر وسخائهم في اقامة المساجد وما أنفقوه من أموال طائلة في سبيل بنائها .

٣٦ـ ارنست كوتل : المرجع السابق ، ص ١٧ .
ـ زكي محمد حسن : المرجع السابق ، ص ٣٤ .
ـ نجدة خماش : المرجع السابق ، ص١٦و١٧ .
٣٧ـ زكي محمد حسن : المرجع السابق ، ص ٣٤و٣٥ .
ـ نجدة خماش : دراسات في الاثار الاسلامية ، طبعة دمشق ، ١٤٠١ ـ ١٤٠٢هـ / ١٩٨١ ـ ١٩٨٢م ص ١٦ وما بعدها .

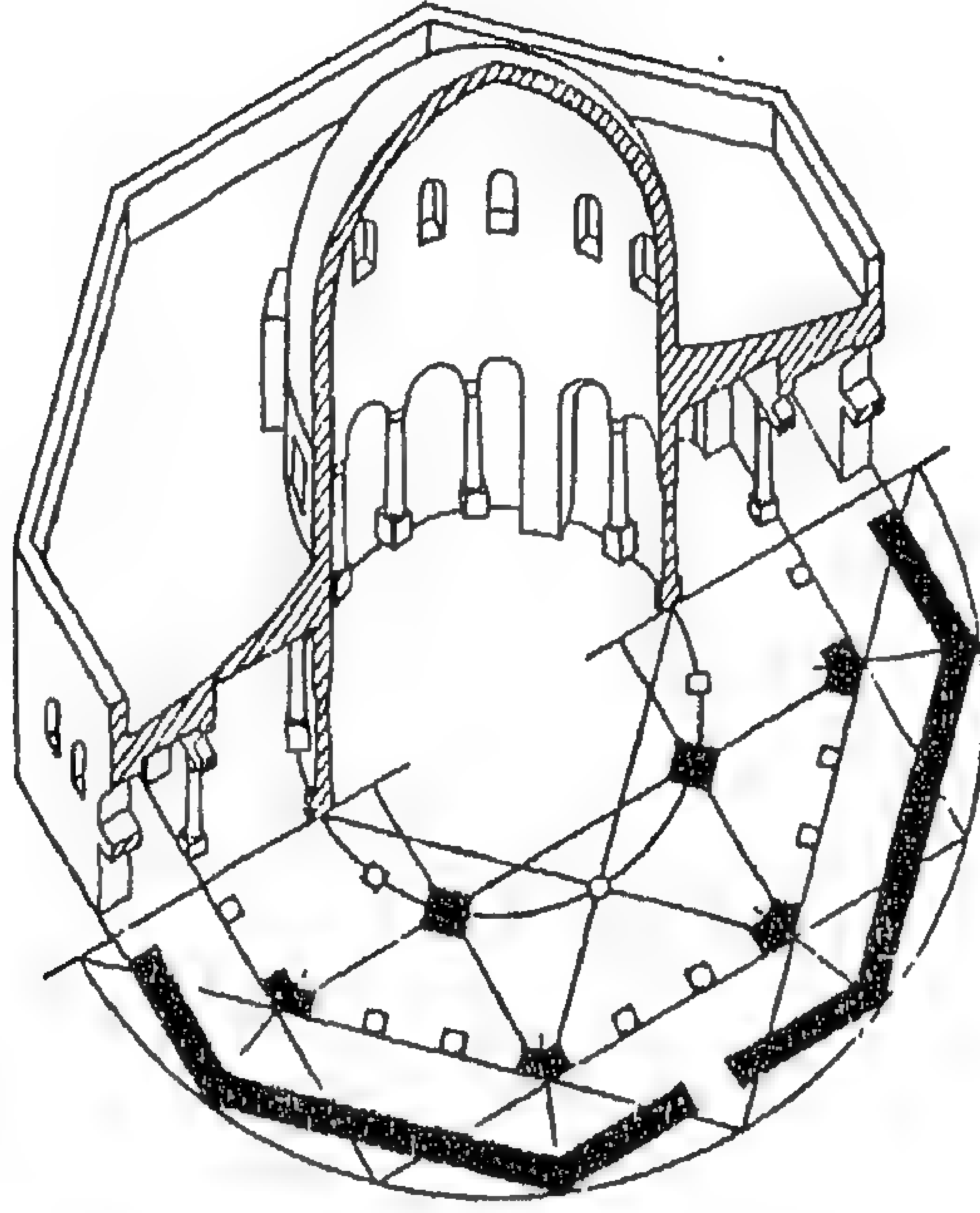
ان اشهر وابرز هذه المساجد من حيث مكانتها الروحية لدى المسلمين من جهة وعظمة بنائها وفخامته من جهة ثانية هي :

آ ـ قبة الصخرة ، بيت المقدس :

تعتبر قبة الصخرة من أهم وأبدع آثار الامويين ، كما انها اقدم أثر اسلامي في تاريخ العمارة الاسلامية . وقد شيدها عبد الملك بن مروان سنة ٧٢ هـ/ ٦٩١ م[٣٨] . وقد اقيمت فوق صخرة مسطحة لها ذكرى مقدسة مرتبطة بالرسول (ص) وقصة الاسراء والمعراج الواردة بالقرآن الكريم . وتقع الصخرة هذه في الحرم الشريف في بيت المقدس . ويروي كثير من المؤرخين ان السبب الذي دفع عبد الملك بن مروان لبناء قبة الصخرة هو سياسي بحت ، وذلك بقصد صرف أنظار المسلمين في بلاد الشام من الحج الى الكعبة في مكة المكرمة التي كان يسيطر عليها منافسه في الخلافة عبد الله بن الزبير والذي كان يأخذ البيعة عنوة من حجاج بيت الله الحرام . فبنى عبد الملك بن مروان قبة على الصخرة التي وضع الرسول (ص) عليها قدمه عندما صعدالى السماء ، لتقوى للمسلمين مقام الكعبة . لكن هذه الرواية أسبحت محل تساؤل وشك لدى الكثير من الباحثين الذين يميلون بأنها من وضع خصوم بني أمية ، لان عبد الملك بن مروان كان من التابعين[٣٩] ، ومن غير المحتمل أن يقدم مثله على تغيير شعائر الدين الاسلامي بتحويل الحج عن الكعبة . فقد كان استخدام القباب في هندسة البناء ، معروفا عند المسيحيين قبل بناء قبة الصخرة ، كما كان في الشام كنائس ذات قباب فوق أبنية مثمنة الشكل . فليس غريبا ان يفكر عبد الملك بن مروان بأن يكون للمسلمين منشآت عمرانية تضارعها في العظمة والبهاء وهندسة البناء[٤٠] .

٣٨ـ كمال الدين سامح : المرجع السابق ، ص ١٨ .
٣٩ـ أنظر ص ١٤٤ من هذا البحث .
٤٠ـ — Guy le STRANCE : Op. Cit . pp. 114-119 .
ـ كمال الدين سامح : المرجع السابق ، ص ١٨و١٩ .
ـ زكي محمد حسن : المرجع السابق ،ص ٣٦و٣٧ .
ـ نجدة خماش : المرجع السابق ، ص ٢١و٢٢ .
ـ نعمت اسماعيل علام : المرجع السابق ، ص ٢٠و٢١ .

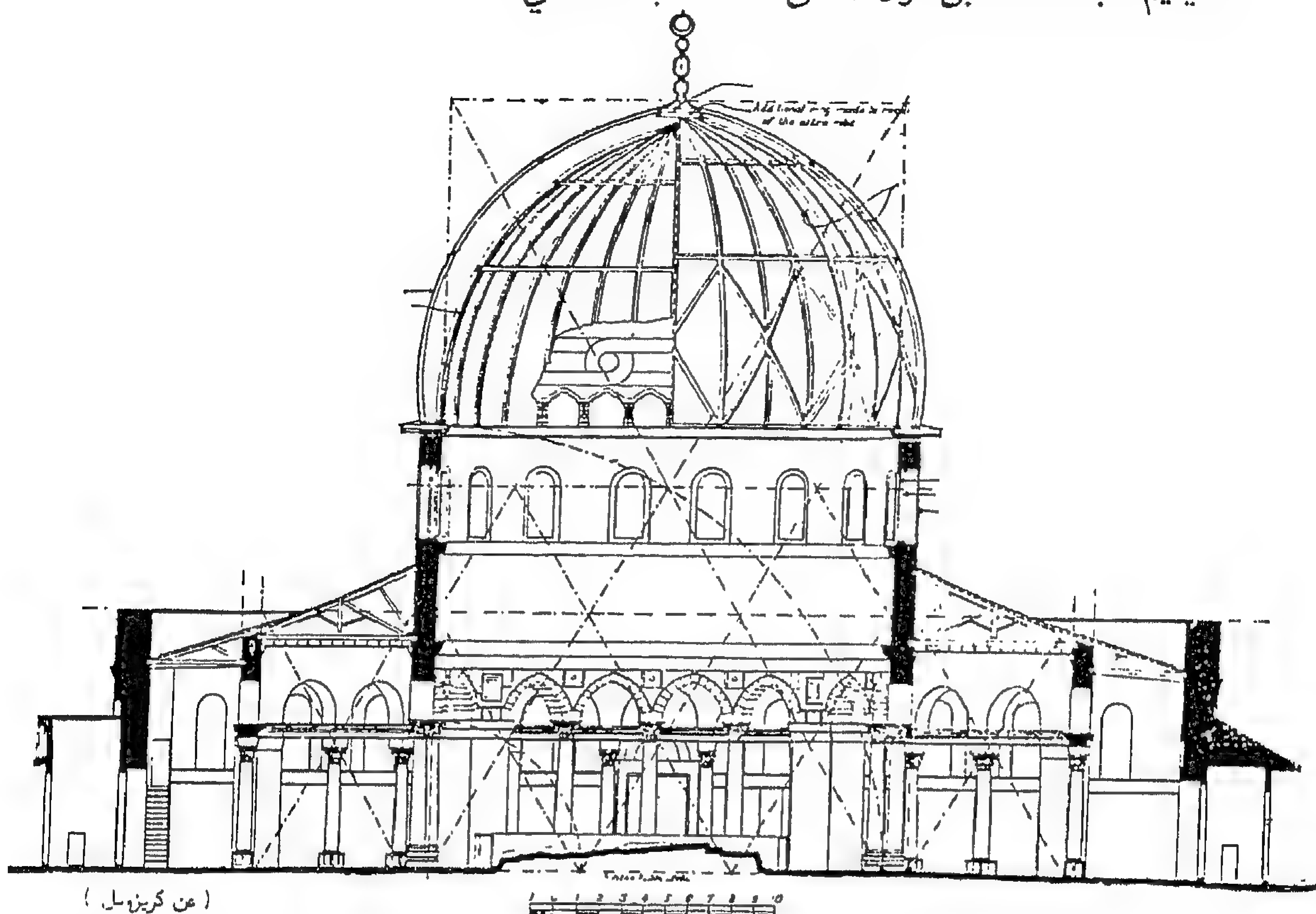
وقبة الصخرة بناء حجري مثمن الشكل ، قوامه تثمينة خارجية من الجدران تليها من الداخل تثمينة اخرى من الاعمدة والاكتاف والاساطين ، وداخل هذه التثمينة دائرة من الاعمدة والاكتاف أيضا ، وفوق الدائرة قبة مرفوعة علـى رقبة اسطوانية فيها ست عشرة نافذة • والقبة من الخشب تغطيها من الخـارج طبقة من الرصاص ومن الداخل طبقة من الجص • وضلع المثمن الخارجي طولـه



تصميم مسجد قبة الصخرة بالقدس

نحو عشرين مترا ونصف متر ، وارتفاعه نحو تسعة أمتار ونصف متر • وفـي الجزء العلوي من كل ضلع في هذا المثمن نوافذ ليصل منها النـور الى داخـل البناء • وفي الجوانب المقابلة للجهات الاربع الاصلية من المثمن أربعة ابواب ، وفي وسط هـذا البناء الصخرة المقدسة التي يروى أن الرسول (ص) وضع قدمـه عليها ليلة المعراج ، ولذا يسمى البناء قبة الصخرة ، وان كان يعرف أحيانا باسم

جامع عمر ، لان عمر بن الخطاب كان قد أقام في موقعه مصلى من الخشب قبل أن يقيم عبد الملك بن مروان على أنقاضه البناء الحالي[٤١] .



(عن كريزويل)

(مقطع رأسي لقبة الصخرة)

وتوجد داخل هذا الاثر كتابة تاريخية قوامها آيات قرآنية ، كما تضم أيضا عبارة تشير الى تاريخ هذا البناء ، ونصها :

«بنى هذه القبة عبد الله الامام المأمون أمير المؤمنين في سنة اثنتين وسبعين» .

لكن اسم الخليفة المأمون والقابه مكتوبة بخط ضيق يخالف الخط المستعمل في سائر أجزاء الكتابة ، فضلا عن ان سنة ٧٢ هـ/ ٦٩١ م لا تقع في حكم المأمون ، بل في سني حكم عبد الملك بن مروان ،وهو الذي ينسب اليه تشييد

٤١ـ كمال محمد حسن :المرجع السابق ، ص ٣٧.
ـ كمال الدين سامح : المرجع السابق ، ص١٨ .
ـ محمد عباس بدر : المؤتمر الثاني للاثار في البلاد العربية ، ص٣١٣ـ٣١٥.

هذا الاثر • ويتضح من ذلك ان تغييرا حدث في هذه الكتابة في عهد المأمون ، لكن الصانع فاته أن يغيّر التاريخ بعد أن غيّر الاسم[٤٢] •

إن أهم ما تميّزت به هندسة بناء قبة الصخرة ، هو المخطط العام للبناء الذي جاء على شكل مثمن ليحيط بالصخرة المقدسة ، في حين كانت الجوامع المربعة أو المستطيلة ، ذات الصحن المفتوح هي السائدة في بناء المساجد لأنها أوفق لشعائر العبادة الاسلامية ، وهذا ما درجت عليه تصاميم أبنية المساجد في العصور لاسلامية الأولى لقرون طويلة[٤٣] •

ب ـ المسجد الاقصى ، بيت المقدس :

بني هذا المسجد في مكان مقدس ومبارك لدى جميع الديانات السماوية • قال تعالى :« سبحان الذي أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام الى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله لِنُرِيَه من آياتنا أنه هو السميع البصير »[٤٤] • وقال الرسول (ص) : « لا تُشَدّ الرحالُ إلاّ الى ثلاثة مساجد : المسجد الحرام ، والمسجد الأقصى ومسجدي هذا »[٤٥] •

ويروي لنا القزويني في كتابه ، آثار البلاد وأخبار العباد ، عن ابن عباس أنه قال : « البيت المقدس ، بنته الأنبياء وسكنته الأنبياء ، وما فيه موضع شبر الا وصلى فيه نبي أو قام فيه ملك »[٤٦] •

مماذكر يبدو لنا أن السبب الديني من أقوى الأسباب التي دفعت بالخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك ، لبناء هذا الصرح الديني العظيم تكريما للمكان الذي كان أولى القبلتين ومسرى رسول الله (ص) ، أضف الى ذلك الشهرة السياسية والحضارية التي ستخلد ذكراه فيما بعد •

---

(٤٢) ـ كمال الدين سامح : المرجع السابق ، ص ١٩ •
(٤٣) ـ زكي محمد حسن : المرجع السابق ، ص ٤٠ •
(٤٤) ـ سورة الاسراء : الاية ١ •
(٤٥) ـ صحيح البخاري : الجزء الاول ، ص ٢٠٧ •
(٤٦) ـ القزويني : المصدر السابق ، ص ١٦١ •

على أن هناك خلاف في الرأي بـين المؤرخين ، حول من الذي بنى المسـجد الأقصى هل هو عبد الملك بن مروان أو ابنه الوليد• لكن كرزويل (CRESWELL) في مؤلفه القيّم عن العمارة المبكرة في الاسلام ـ عصر الأمويين وباللغة الانكليزية يقطع في هذه الاختلافات ويقـول : « نحن الآن نملك سـلطة أفضل من أقـوال المؤرخين الذين كتبوا بعد قرنين من قيام هذا البناء » ويعني بذلك ما عثر من أوراق البردى رقم ١٤٠٣ ، ١٤١٤ و ١٤٣٥ التي احتوت نصوص الرسائل المتبادلة مـع حاكم مصر العربي في الفترة ما بين سنة ٩٠ و ٩٦ هـ/٧٠٨ و ٧١٤ م ، حول ارسال العمال والفنيين وأثمان بعض المواد الغذائية للعمال القبط الذين اشتركوا في بنـاء المسجد ، وهذا التاريخ الذي يحدد اسم وفترة حكم الوالي العربي على مصر ، هو معاصر لفترة خلافة الوليد بن عبد الملك(٤٧) • وفي رأينا أنه سواء أكان عبد الملك بن مروان أو ابنه الوليد ، هو الذي أمر ببناء هذا المسجد فان هذا الخلاف لايؤثر على حقيقة البحث الى درجة تدعونا للتوقف كثـيرا ، وذلك لأن ما يعنينا بالدرجة الأولى هو ابراز الحقائق التاريخية المتعلقة بمستوى هندسـة البناء لفترة العصـر الأموي ككل ومدى ازدهارها والاهتمام بها وهذا ما توصلنا اليه من سياق البحث•

وبالنسبة للناحية الهندسية ، فان موقع المسجد الأقصى قائم في الزاويةالجنوبية الشرقية من المدينة المقدسة ، ويشـكل جدار الحرم القدسي الذي بنـاه النبي داود والذي يبلغ ارتفاعه عشرة أذرع تقريبا ، أحد جدران المسجد الأقصى ، حيث أضاف الخليفة الأموي هـذا الجدار بناء المسجد من حجـارة أصغر حجمـا وهذا البناء الأحدث يشـكل شرفات المسجد ، ولقد بلغ هذا المسجد من الجمال والفخامة بحيث يضاهي بناء القبر المقدس التابع للمسيحيين في مدينة القدس • وكنا نود أن تتطرق الى تفاصيل هندسية أوسع لهذا المسجد ، لكن المصادر التاريخية لـم تتحدث أكثر من ذلك بسبب تهدم معظم بنـاء المسجد نتيجة لهزة أرضية حدثت سـنة ١٣٠ هـ/ ٧٤٦ م ، باستثناء القسم المحيط بالمحراب(٤٨) •

ولقد دلت الأبحاث التي أجريت مؤخرا على أن الرواق الموجود الى الشـرق

٤٧ــ Guy le STRANCE : Op. Cit. , pp. 92, 98 .

٤٨ــ CRESWELL : Op. Cit. , Vol. 1 , P. 353 .

من القبة الحالية والذي يشكل زاوية قائمة مع جدار القبلة للمسـجد بدلا من أن يكون موازياً له كما هو الحال في تصميم أبنية المساجد . فاذا كان الأمر كذلك ، فان المسجد الأقصى يعتبر أقدم مسجد في الاسلام ، تشكل أروقته زاوية قائمة مع جدار القبلة . ولعل الغاية من ذلك في مخطط بناء المسجد الأقصى بشكل خاص ، هو توجيه رواق المحراب نحو المدخل الجنوبي لقبة الصخرة ، كمـا هو الحال في المسجد الحالي(٤٩) .

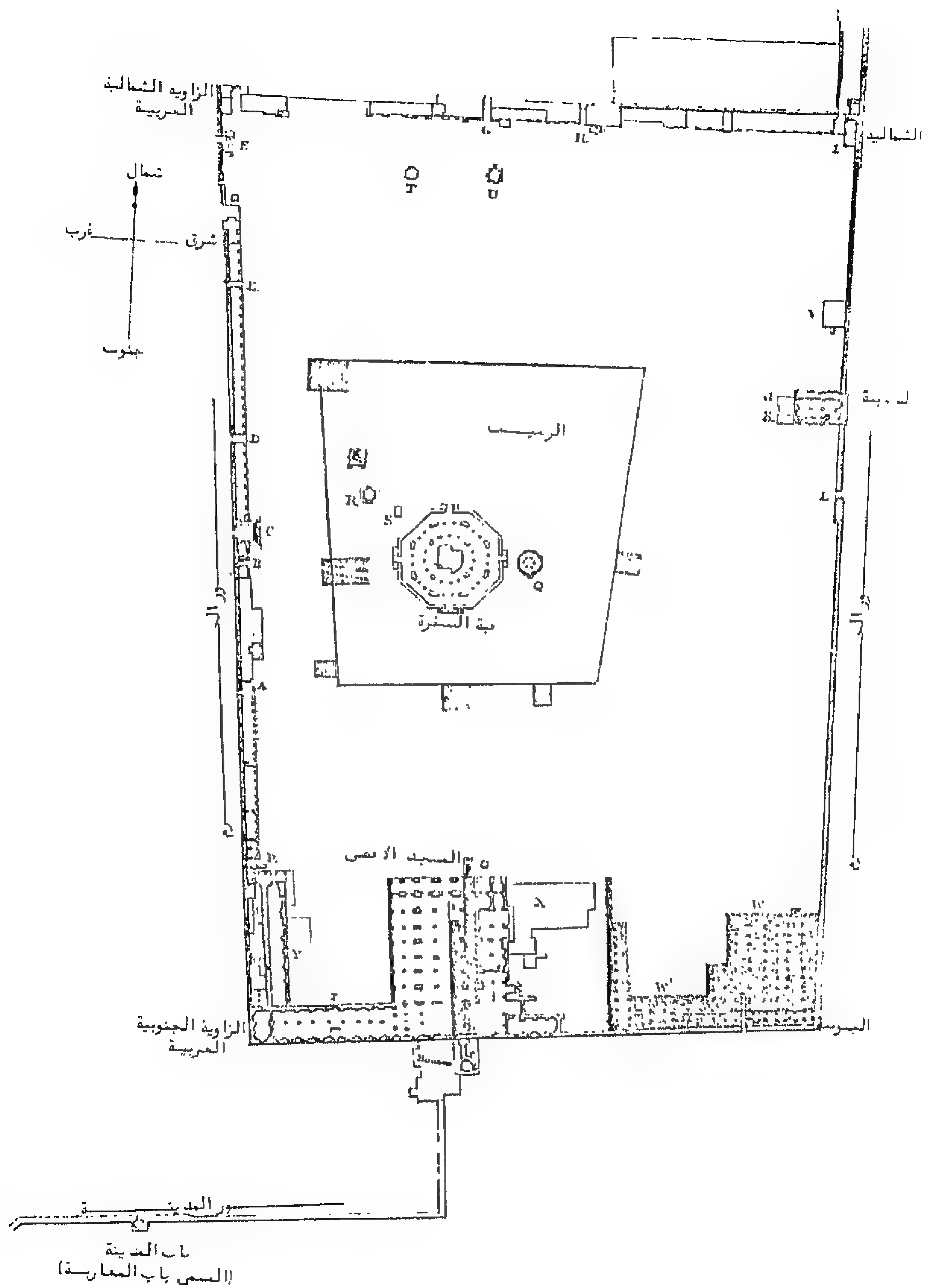
ولقد تمت في عهد الخليفة العباسي المهدي اعادة بناء المسجد الأقصى مع بعض الاضافات الجديدة وتوسيعه من الجانب الشـمالي ما يقارب تسـعا وخمسين الى خمس وستين قدما ،وكان المسجد الذي تم اعادة بنائه يشمل سبعة أروقة الى شرقي جناح المحراب وسبعة الى غربيه وكلها عمودية على الجـدار القبلي كما أن جنـاح المحراب كان أوسع بكثير من الأجنحة الأخرى(٥٠) .

ج ـ مسجد دمشق الكبيـر :

عندما أصبحت مدينة دمشق عاصمة للخلفاء الأمويين وازداد عدد سكانها من المسلمين ، صمم الخليفة الأموي ، الوليد بن عبد الملك ، على بناء مسجد كبـير يتسع لجميع المصلين في المدينة ، ومن جهة أخـرى ليضاهي أكبر وأجمل الكنائس التي كانت موجودة في سورية آنذاك(٥١) .

ويقوم هذا المسجد في منطقـة مقدسة لمعبد وثني قديم ، كان يحتل مسـاحة واسعة من الأرض ، يحيط بها سور خارجي تبلـغ أبعاده (٣٨٠ × ٣٠٠ مترا) . وكان المعبد الحقيقي مشيدا داخل السور تبلغ أبعاده ١٥٦ × ٩٧ مترا ، حيث أقيم

٤٩ـ المقدسي : أحسن التقاسيم في معرفة الاقاليم ، نصـوص مختـارة لغازي طليمات ، منشورات وزارة الثقافة والارشاد القومي ، دمشق ، ١٤٠٠هـ ـ١٩٨٠ م، ص ١٥٦ وما بعدها .
ـ غوستاف لوبون : حضارة العرب ، ص١٩٥ وما بعدها .
ـ نجدة خماش : المرجع السابق ، ص ٢٤ .
٥٠ـ نجدة خماش : المرجع السابق ، ص ٢٤و٢٥ .
٥١ـ CRESWELL : Op. Cit, Vol. 1 , P. 151 .

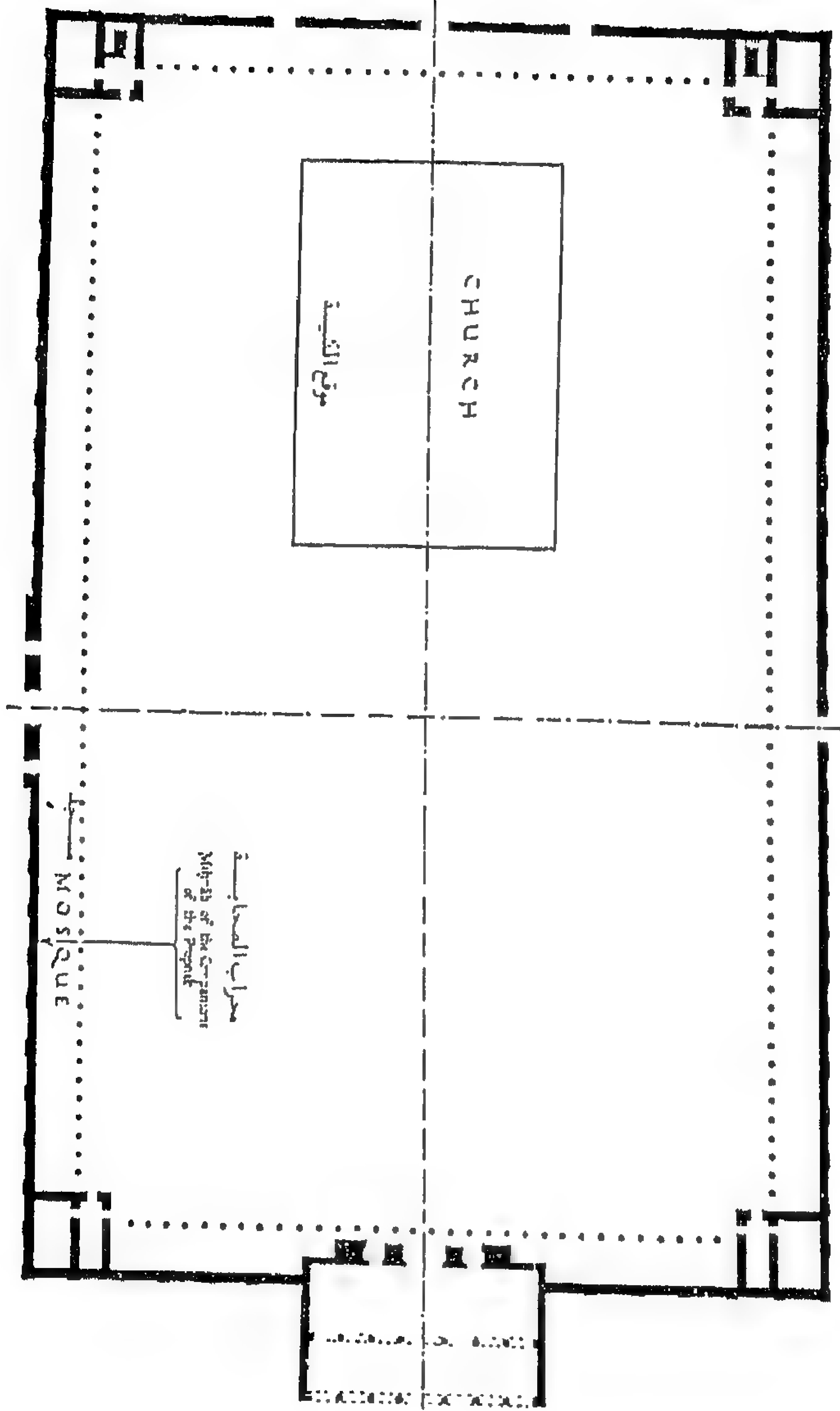

الزاويه الشمالية الغربية
شمال
غرب
شرق
جنوب
الرصيف
قبة الصخرة
المسجد الاقصى
الزاوية الجنوبية الغربية
سور المدينة
باب المدينة
(المسمى باب المغاربة)

الجامع الأموي فيما بعد . وبعد انتصار المسيحية على الوثنية في أواخر القرن الرابع الميلادي أنشأ الامبراطور «تيودوسيوس» كنيسة على اسم القديس يوحنا المعمدان، كانت تحتل الجانب الغربي من المعبد (وقد بقيت هذه الكنيسة قائمة حتى أيام الوليد بن عبد الملك) وبعد الفتح الاسلامي سنة ١٤ هـ/٦٣٥ م ، اقتسم المسلمون هذا المعبد مع المسيحيين ليقيموا الصلوات فيه ، وأقام المسلمون مسجدهم مستقلا عن بناء الكنيسة يجمعهما سور المعبد ، وهكذا اقتسم العرب المسلمون المعبد مع المسيحيين وليس الكنيسة كما تشير بعض المصادر ، وأقيم المسجد الأول ، مسجد الصحابة ، في الجانب الشرقي من المعبد، وبقيت الكنيسة في الجانب الغربي منه(٥٢) .

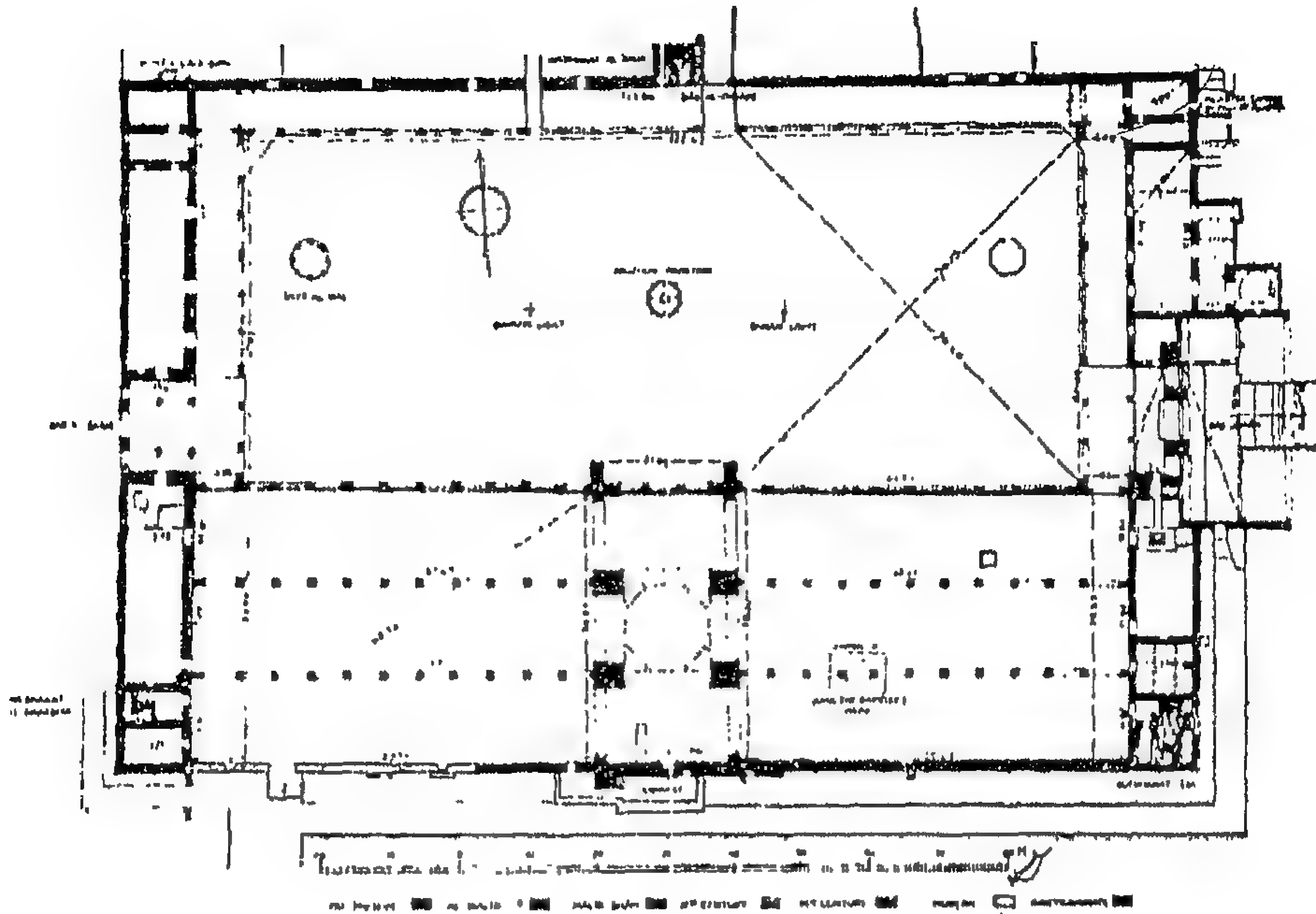
ومع تقادم الزمن للفتح العربي الاسلامي لمدينة دمشق ، غدا القسم المخصص للعرب والمسلمين من المعبد لايتسع للمصلين بالاضافة الى أن الحاجة أصبحت ملحة لاقامة جامع كبير يليق بعظمة الدولة ويلائم حالة التطور الذي بلغه المجتمع العربي الاسلامي ، حيث أصبحت دمشق في عهد الوليد بن عبد الملك عاصمة لأعظم دولة عربية في التاريخ وازداد عدد نفوسها ، وضاق بهم المسجد الأول ، ولم يعد يتسع للاعداد الكبيرة من المسلمين(٥٣) .

عندها قرر الوليد تنفيذ مشروعه المعماري الهام ، ودخل في مفاوضات مع الرعايا المسيحيين لكي يتخلوا عن نصف المعبد ـ الذي أقاموا عليه كنيستهم ـ بالطريق المشروعة ، وتم له ما أراد . عندئذ قام بهدم بناء الكنيسة وكل ماكان داخل جدران المعبد من منشآت رومانية وبيزنطية ، ثم شيد الجامع وفق مخطط جديد مبتكر يتجاوب مع شعائر الدين الاسلامي وأغراض الحياة العامة ، فجاء فريدا في هندسته ، لم يبن على نسقه في العهود السابقة أي بناء آخر .

٥٢ـ عبد القادر ريحاوي : المرجع السابق ، ص٤٥ و ٤٦ .
ـ زكي محمد حسن : المرجع السابق ، ص ٤٠ .
ـ نجدة خماش : المرجع السابق ، ص ٢٦/٢٨ .
٥٣ـ عبد القادر ريحاوي ، المرجع السابق ، ص ٤٦ .
ـ زكي محمد حسن : المرجع السابق ، ص ٤٠ .



مخطط المعبد الوثني سابقاً (عن كريزويل)



مخطط الجامع الأموي في دمشق (عن كريزويل)

ووضعت باشادته مبادىء هندسة الجوامع الكبرى التي شيدت بعده في العالم الاسلامي[٥٤] . وقد أنفق الوليد الأموال الطائلة أجور للعمال والمهندسين ونقل مواد البناء التي جلبت من خارج سورية ، كالذهب والفسيفساء ، وخاصة من مدينة القسطنطينية ، لاستخدامها في أعمال تزيين المسجد . وتروي المصادر التي تتحدث عن مسجد دمشق ، أن رؤوس الأعمدة التي في المسجد رغم كثرتها ، طليت بالذهب،

٥٤ـ ابن عساكر : المصدر السابق ، مجلد ٢ ، تحقيق صلاح الدين المنجد ، ص ٢١ وما بعدها .
ـ كمال الدين سامح: المرجع السابق ، ص١٤ وما بعدها .
ـ عبد القادر ريحاوي : المرجع السابق ، ص ٤٦ .
ـ زكي محمد حسن : المرجع السابق ، ص ٤٠ وما بعدها .
ـ نجدة خماش : المرجع السابق ، ص ٢٨ .

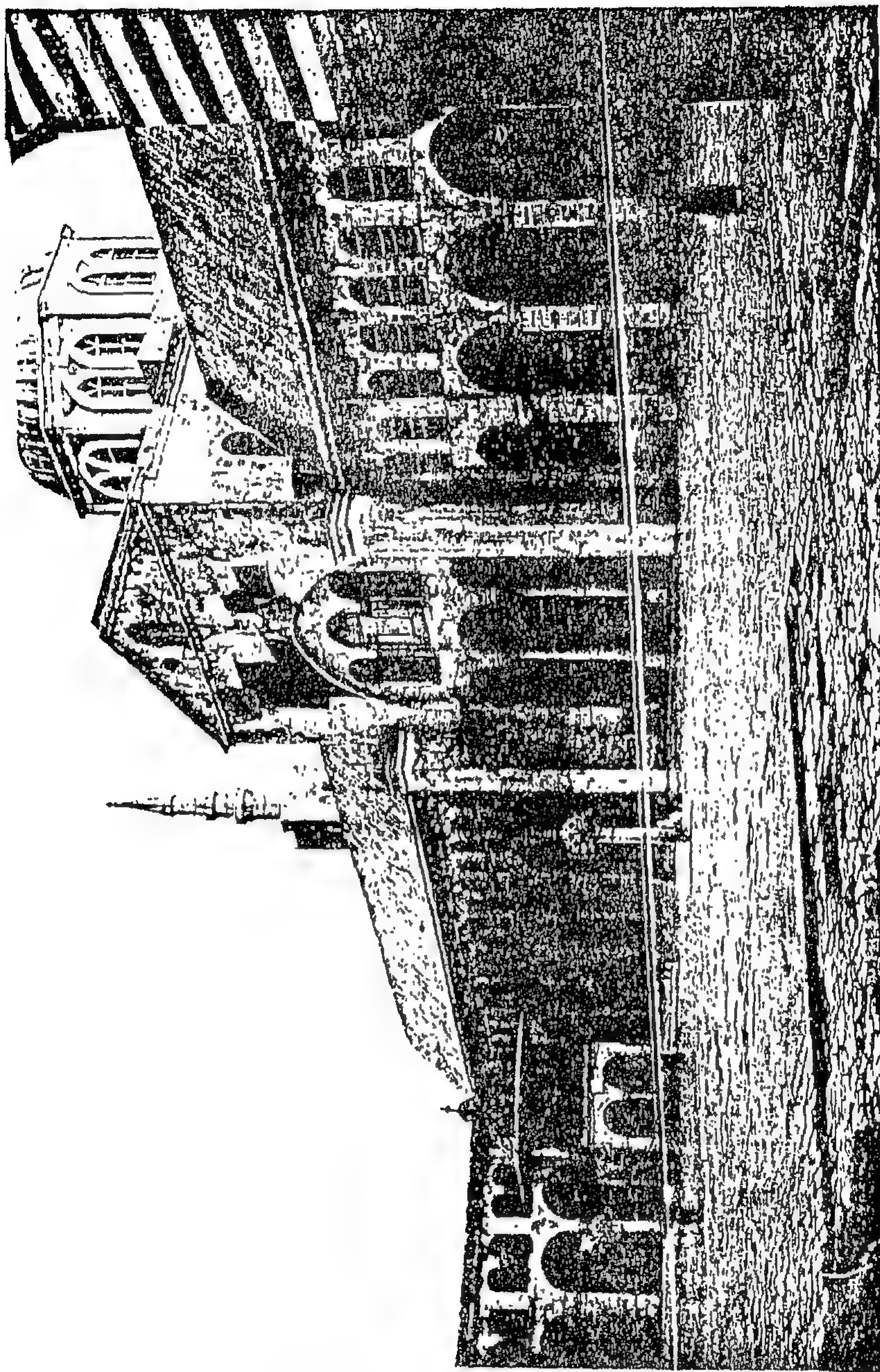
ورصعت القناطر بالفسيفساء ، كما استخدمت الفصوص العقيقية والفيروزجية في تزيين المحراب(٥٥) .

إن ما أنفق في مؤونة مسجد دمشق ، أصبح محل قلق السكان المسلمين على أعطياتهم ، بحيث اضطر الوليد الى جمعهم في الصلاة وابلاغهم بأن مخاوفهم من كثرة الانفاق على المسجد ــ مهما بلغت ــ لن تؤثر على الاعطيات لكثرة موارد الدولة ومدخراتها(٥٦) .

لقد استخدم الوليد في بناء مسجد دمشق الفنيين من الفرس والهند والمغرب والروم بالاضافة الى المهارات والقدرات المحلية في هندسة البناء ، حتى يخرج المسجد في مظهره من الفخامة والجمال ، ما يليق بمكانة عاصمة الامبراطورية العربية الاسلامية آنذاك ، وتخليدا لانجاز حضاري هام يعكس مدى اهتمامات الوليد العمرانية(٥٧) .

أما مخطط المسجد ، فهو مستطيل الشكل ، أبعاده ٩٧ × ١٥٦ مترا ، يحتل جانبه الشمالي صحن مكشوف تحيط به أروقة مسقوفة ، ويحتل قسمه الجنوبي الحرم أو المصلّى . وللجامع ثلاثة أبواب رئيسية تؤدي الى الصحن ، تصله بجهات المدينة الثلاث الشرقية والغربية والشمالية . وهناك باب رابع في الحرم في الجانب الغربي من الجدار الجنوبي يصل الجامع بالجهة الجنوبية من المدينة (٥٨) . ويتألف الحرم أو المصلى من ثلاثة أروقة موازية للقبلة محمولة على صفين من الأعمدة الحجرية مؤلفة من طابقين ، السفلي مؤلف من قناطر كبيرة نصف دائرية ، والثاني يتألف من عدد مضاعف من القناطر . ويقطع الأروقة الثلاثة المذكورة في وسطهارواق أوسع منها وأكثر ارتفاعاً يسمى المجاز القاطع يتعامد مع جدار القبلة ويتصدره المنبر

٥٥ــ ابن عساكر : المصدر السابق ، الجزء الثاني ، ص٣٤ .
ــ القزويني : آثار البلاد وأخبار العباد ، ص ١٨٩ وما بعدها .
ــ ابن جبير : رحلة ، طبعة دار صادر بيروت ، ١٣٧٩ هـ/١٩٥٩ م ، ص٢٣٥ .
٥٦ــ ابن عساكر : المصدر السابق ، الجزء الثاني، ص ٣٤ .
٥٧ــ ابن عساكر : المصدر السابق ، الجزء الثاني ، ص ٢٦ وما بعدها .
٥٨ــ عبد القادر ريحاوي: المرجع السابق ، ص ٤٧و٤٩ .



مسجد دمشق الكبير : واجهة المحراب

والمحراب . ويتوسط المجاز قبة عالية ترتفع قرابة ٣٦ متراً محمولة على أربعة عضائد ضخمة ، فوقها قبة مثمنة مزودة بالنوافذ وتعرف هذه القبة بقبة النسر . أما واجهة المجاز الذي يتوسط الحرم فتتألف من ثلاثة أبواب ذات قناطر نصف دائرية ، الوسطى كبيرة والجانبيتان أصغر منها . وهذه القناطر محمولة على عضادتين بينهما عمودان ، ويعلو الأبواب الثلاثة قوس كبير يضم ثلاثة نوافذ . وتنتهي الواجهة في أعلاها بجبهة مثلثة ، ويحف بواجهة المجاز برجان صغيران بارزان[٥٩] .

وقد استغرق بناء المسجد تسع سنوات ، حيث بدأ العمل فيه سنة ٨٨ هـ / ٧٠٧ م ، وانتهى عام ٩٦ هـ / ٧١٤ م [٦٠] .

د ـ مسجد الرسول (ص) بالمدينة :

في نفس العام الذي بدىء فيه بناء مسجد دمشق الكبير ، كتب الوليد بن عبد الملك الى عامله على المدينة ، وكان آنذاك عمر بن عبد العزيز ، بأن يعيد بناء مسجد الرسول (ص) ، وأن يضيف اليه المنازل التي كانت حوله ويدخل فيه أيضا حجرات أزواج الرسول (ص)[٦١] . وفي الوقت نفسه أرسل اليه المال والفسيفساء والرخام وثمانين فنيا من اليونان والقبط من سكان سورية ومصر[٦٢] . وحول جنسيات الفنيين الذين اشتركوا في بناء مسجد الرسول (ص) روايات متضاربة ، هل هم من سكان الدولة العربية الاسلامية أم من خارجها ؟ وفي هذا الصدد فاننا نميل الى الرأي الذي أبداه المستشرق غوستاف لوبون ، وخلاصته أن جنسيات هؤلاء الفنيين ليس لها أهمية كبيرة في جوهر الموضوع وغاياته ، ما دامت مهمتهم الأولى التنفيذ طبقا لما تمليه عليهم ارادة السلطة القائمة على البناء ، ومن جهة أخرى احتياجات وأغراض البناء نفسه ، وإن كانت طبيعة ومكانة البناء الروحية تجعلنا على يقين بأن هؤلاء العمال من مواطني الدولة العربية الاسلامية[٦٣] .

٥٩ـ عبد القادر ريحاوي : المرجع السابق ، ص٥٠ـ٥٣ .
٦٠ـ اليعقوبي : المصدر السابق ، الجزء الثاني ، ص ٢٨٤ .
ـ كمال الدين سامح : المرجع السابق ، ص٢١ .
٦١ـ اليعقوبي : المصدر السابق ، الجزء الثاني ، ص ٢٨٤ .
ـ الطبري : المصدر السابق ، ج٦ ، ص ٤٣٥ .
٦٢ـ — CRESWELL : Op. Cit. , Voa. 1 , P. 142 .
٦٣ـ غوستاف لوبون : المرجع السابق ، ص ١٩٤ و ١٩٥ .

لقد أنفق على اعادة بناء مسجد الرسول (ص) الأموال الكثيرة ، ونال من الاهتمام في تخطيطه وتقوية بنائه والاعتناء به ، بحيث اشتملت مواد بنائه على مواد مشابهة لتلك التي استخدمت في بناء مسجد دمشق الكبير[٦٤] .

أما أهم ما تميز به هذا المسجد عن مسجد دمشق الكبير ، وبقية المساجد التي بنيت قبل هذه الفترة ، من حيث تخطيط بنائه، فهو احداث المحراب فيه ــ والمحراب هو تلك الفجوة في جدار المسجد من الجهة القبلية وفي منتصف المسافة تقريبا ، التي يقف فيها الامام بالمصلين ــ وكان احداثه لأول مرة في تاريخ بناء المسجد في الاسلام. وبعدها اتبعت هذه الهندسة بايجاد المحاريب في المساجد[٦٥] . ولقد انتهى العمل من إعادة بناء مسجد الرسول (ص) عام ٩٠ هـ/٧١٠ م . وبذلك تكون المدة التي استغرقها بناء المسجد ثلاث سنوات[٦٦] .

ثانيا ــ بناء القصور :

وناحية أخرى هامة من نواحي البناء والعمران ، اهتم بها الأمويون ، وهي انشاء الكثير من القصور التي أعدت لاقامة الخلفاء والأمراء والولاة . إن معظم هذه القصور قد شيدت على حافة الصحراء بعيدا عن مراكز المدن الكبرى . وربما يعود السبب في ذلك الى شغف حكام بني أميّة بالعيش بعيداً عن المدن، وعلى اتصال وثيق مع حياة البداوة الأصلية. وعلى الرغم من بعد هذه القصور عن المدن الكبرى، إلا أنها كانت متكاملة البناء بشكل يساعد على الاقامة الرغيدة ، فقد كانت هذه القصور تحتوي على الحمامات وكل مرافق العيش ، وكذلك على المساجد ، وغير ذلك من مستلزمات الحياة اليومية[٦٧] .

إن أقدم هذه القصور قد شيّدت في بلاد الشام ، وأهم ما اكتشف منها وتحدثت عنها المصادر التاريخية هي :

٦٤ــ المسعودي : المصدر السابق ، الجزء الثالث ، ص ١٥٤.
ــ ابن جبير : رحلة ، ص ١٦٨ وما بعدها .
CRESWELL : Op. Cit. Vol. 1, PP. 142-145 .
٦٥ــ CRESWELL : Op. Cit. Vol. 1, P. 284 .
٦٦ــ اليعقوبي : المصدر السابق ، ص ٢٨٤.
٦٧ــ لانكستر هاردنج آثار الاردن ، تعريب سليمان موسى ، منشورات اللجنة الاردنية للتعريب والترجمة والنشر ، اخرجته مجلة رسالة المعلم ص١٥٣.

١ ـ قصر المنيـة :

أقيم هذا القصر على مقربة والى الشمال من بحيرة طبريـة • ويذكـر بعض الدارسين أنه اتخذ هذه التسمية من اسم خربة المنية التي كانت خاناً طوله ٣٣٠مترا• ويفهم من أبعاد ومساحة هذا القصر ، انه كان النموذج الذي احتذاه الامويـون في بنائهم لجميع قصورهم • ويشبه هذا القصر القلاع الرومانية التي كانت موجودة على حدود الامبراطورية في شـرق الاردن • ولقد بلـغ طول ضلعـه الشـمالي (٦٦ر٤٠ مترا) ، وضلعه الشرقي (٧٣ مترا) والجنـوبي (٦٧ متـرا)، والغربي (٧٢ مترا)• ويحيط بالقصر جدار له أبراج دائرية في زواياه الاربعة ، وأبراج نصف دائرية في منتصف كل جدار ما عدا الجدار الشرقي الذي يتميز بمدخله المؤلف من غرفة مربعة طول ضلعها ٦ أمتار ، يحيط بها من الجانبين برجان نصف دائريين[٦٨] •

ويتبع القصر أيضا مسجد ، يقع بين المدخل والجدار الجنوبي له • وامتاز هذا القصر بأن احتوى على باب من الجهة الشرقيـة خصصت لدخول المصـلين من غير سكان القصر[٦٩] •

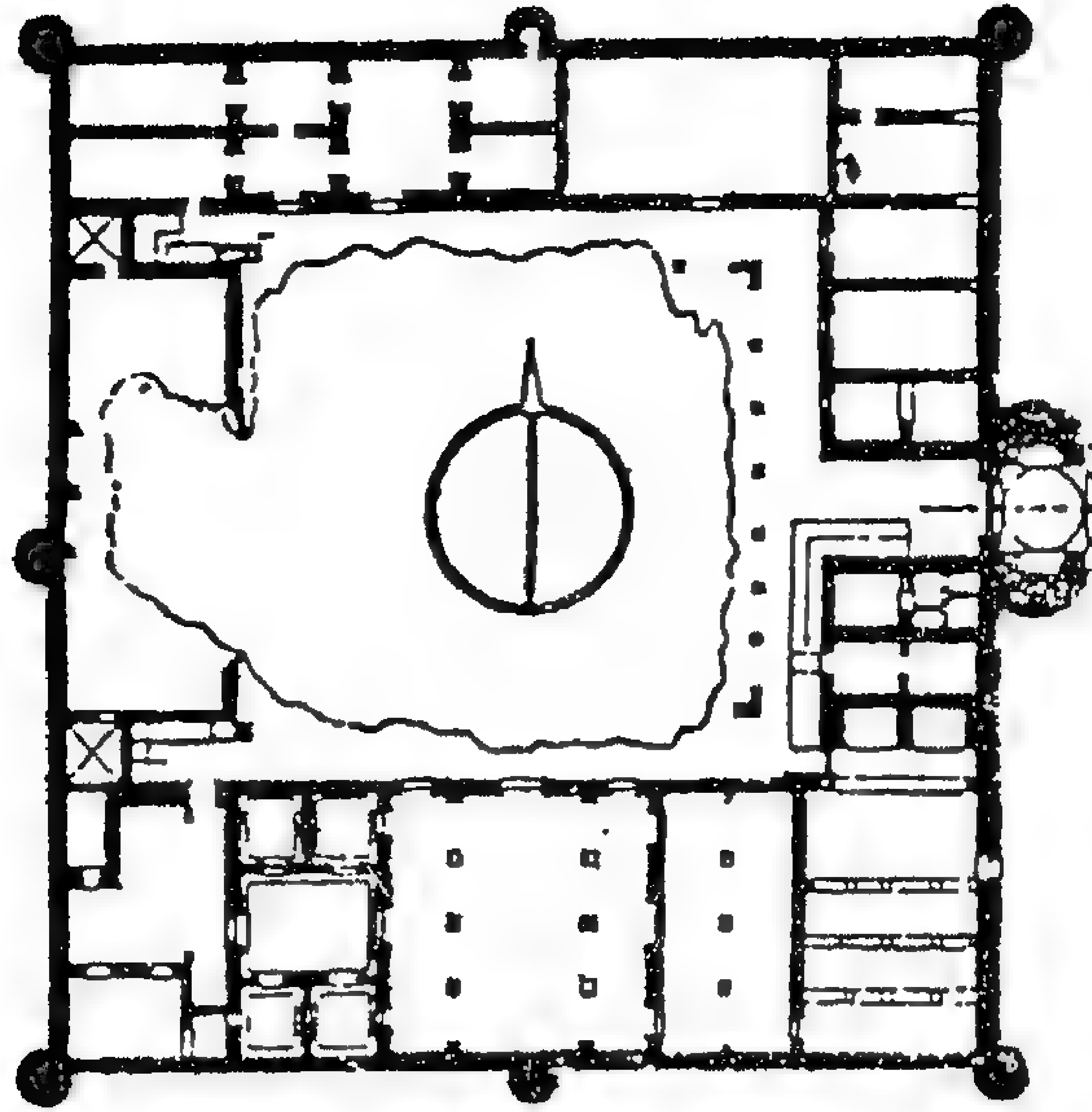
وقد يبدو من الاثار التي عثر عليها في أماكن متفرقة من القصر ، أن هذا القصر أموي ، وبني في عهد الوليد بن عبد الملك[٧٠] ، من هذه الآثار نقود ذهبية عليهـا التاريخ الهجري ٨٩هـ / ٧٠٥م و ٩٨هـ / ٧١٧ م • وكذلك من الكتابة الموجودة على الرخامة في مدخل القصر ، مكتوب عليها (الوليد) ، ومـن محـراب الجامع المجوف ، حيث المحراب المجوف الا منذ بناء مسجد المدينة في عهد الوليد بن عبد الملك • أما تاريخ البناء فغير موجود •

---

٦٨ ـ نجدة خماش : المرجع السابق ، ص ٣٩ •
Creswell: OP. Cit., Vol. 1,p. 383

٦٩ ـ
Creswell: OP. Cit., Vol. 1,p. 383

٧٠ ـ نجدة خماش : المرجع السابق ، ص ٤٠ •
Creswell : Op. Cit., Vol. 1 : P. 388.



تصميم لقصر المنيـة في فلسطين

ب ـ قُصَيْر عَمْرة :

يقع هذا القصر على الحافة الجنوبية من مجرى وادي البطم[٧١] في الصحراء والى الجهة الشرقية ، على بعد خمسين ميلا من مدينة عمان • وقصير عمرة بناء صغير نسبياً ، مبني من الحجر الكلسي الاحمر القاسي المأخوذ من التلال المجاورة • وهو يتألف من قسمين رئيسيين :

١ ـ قاعة مشاهدين كبيرة مساحتها ٨½ × ٧½ أمتـار ، وغرفتـين في الطرف الجنوبي من القاعة ، لهما حنية وليس لهما نوافذ •

٧١ـ دعي بهذا الاسم نسبة لاشجار البطم التي تنبت فيه ، تلك الاشجار التي تؤلف مجموعات صغيرة تمنح الظلال المنعشة في ذلك المحيط القاحل وفي أيام الربيع تتكون غدران واسعة من الماء في بطن الوادي فترد اليها الغزلان وكثير من الحيوانات البرية (نقلا عن لانكستر هاردنـج في آثـار الاردن ص ١٦٠)•

٢ ـ حمام يشمل ثلاث غرف صغيرة ، الاولى ذات سقف من قبو نصف دائري، والثانية سقفها من قبوين متقابلين ، والثالثة تعلوها قبة نصف كروية . ويحتوي هذا الحمام على مغطس للماء البارد ، وآخر للماء الدافىء ، ويغطي أرضية الحمام بلاط من الرخام تمر من تحتها أنابيب البخار الساخن[٧٢] .

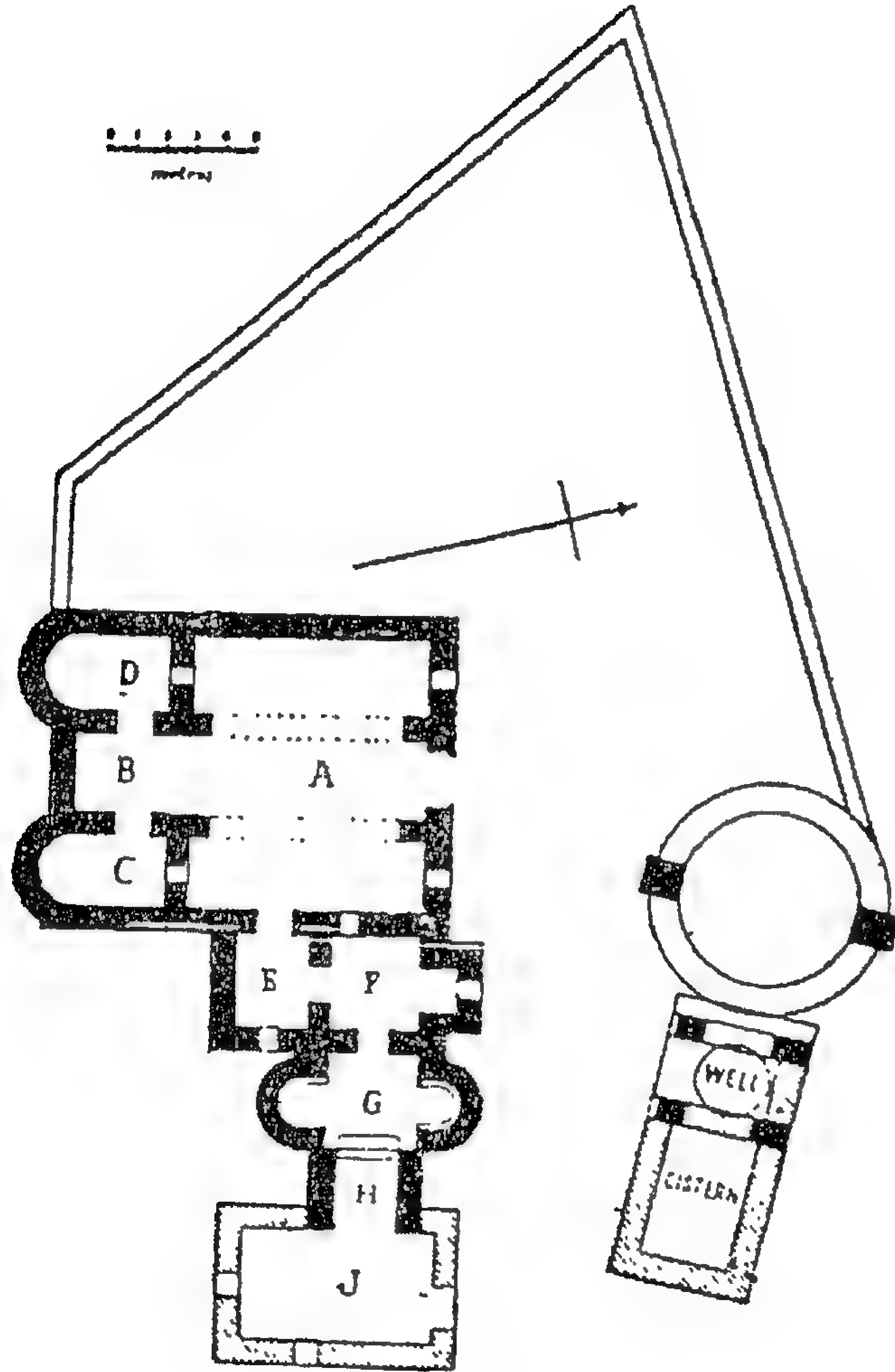
وقد غطيت جميع جدران القصر بالرسوم والصور الملونة التي تشمل مشاهد متعددة تمثل مواضيع مختلفة ، منها الصيد وسيدة تستحم وبعض المشاهد التي يبدو فيها نشاط رياضي أو منزلي وصور لبعض الحيوانات أو لعصفور أو شخص أو الى زهور طبيعية وأشجار تتدلى منها عناقيد الكرمة الطبيعية وكذلك عدداً من رسوم النساء حيث تبدو احداهن وهي تحمل دلوا أو سلة أو طفلا . ويوجد لاحدى حجرات القصر سقف رائع يثير الانتباه لان القبة فيها رسمت لتمثل جانبا من السماء في الليل وعليها أبراج النجوم المختلفة في أفلاكها .

أما تاريخ بنائه فيعود الى عهد الخليفة الاموي الوليد بن عبد الملك[٧٣] .

جـ ـ قصر جبل سيز :

يقع هذا القصر الى الجنوب الشرقي من مدينة دمشق وعلى بعد ١٠٥ كم . يتم الوصول اليه على الطريق المؤدية من دمشق الى أبي الشامات على طريق بغداد . وقد اكتشف هذا القصر سنة ١٣٦٧ هـ / ١٩٦٤ م . واذ ما قورن مخطط قصر جبل سيز بمخطط قصر المنية نجد أن مساحته وأبعاده وتجهيزاته تقترب من أن تكون مماثلة الى حد كبير ، الامر الذي يوحي بأنه بني في فترة متقاربة من بناء القصر الاول وان كان البعض يعتبره أقدم منه ، انطلاقا من موقعه المعزول[٧٤] .

٧٢ـ ارنست كونل : المرجع السابق ، ص ٢١و٢٢ .
ـ كمال الدين سامح : المرجع السابق ، ص ٢٦ وما بعدها .
ـ زكي محمد حسن : المرجع السابق ، ص ٤٤ وما بعدها .
ـ لانكستر هاردنج : المرجع السابق ، ص ١٥٧ .
ـ Creswell: Op. Cit., Vol. 1, pp. 390 — 393
٧٣ـ لانكستر هاردنج : المرجع السابق ، ص ١٥٧ ـ ١٦٠ .
٧٤ـ Creswell: Op. Cit., Vol. 1, P. 473 .
ـ ديمتري برامكي المرجع السابق ، ص ١٣٨ .
ـ الريحاوي : المرجع السابق ، ص٧٨ .



مخطط قصر عمرة : الذي تقوم آثاره الى اليوم في بادية الاردن
وهو يحدد الوضع الذي أنشىء عليه عند بنائه

د ـ قصر الحير الغربي :

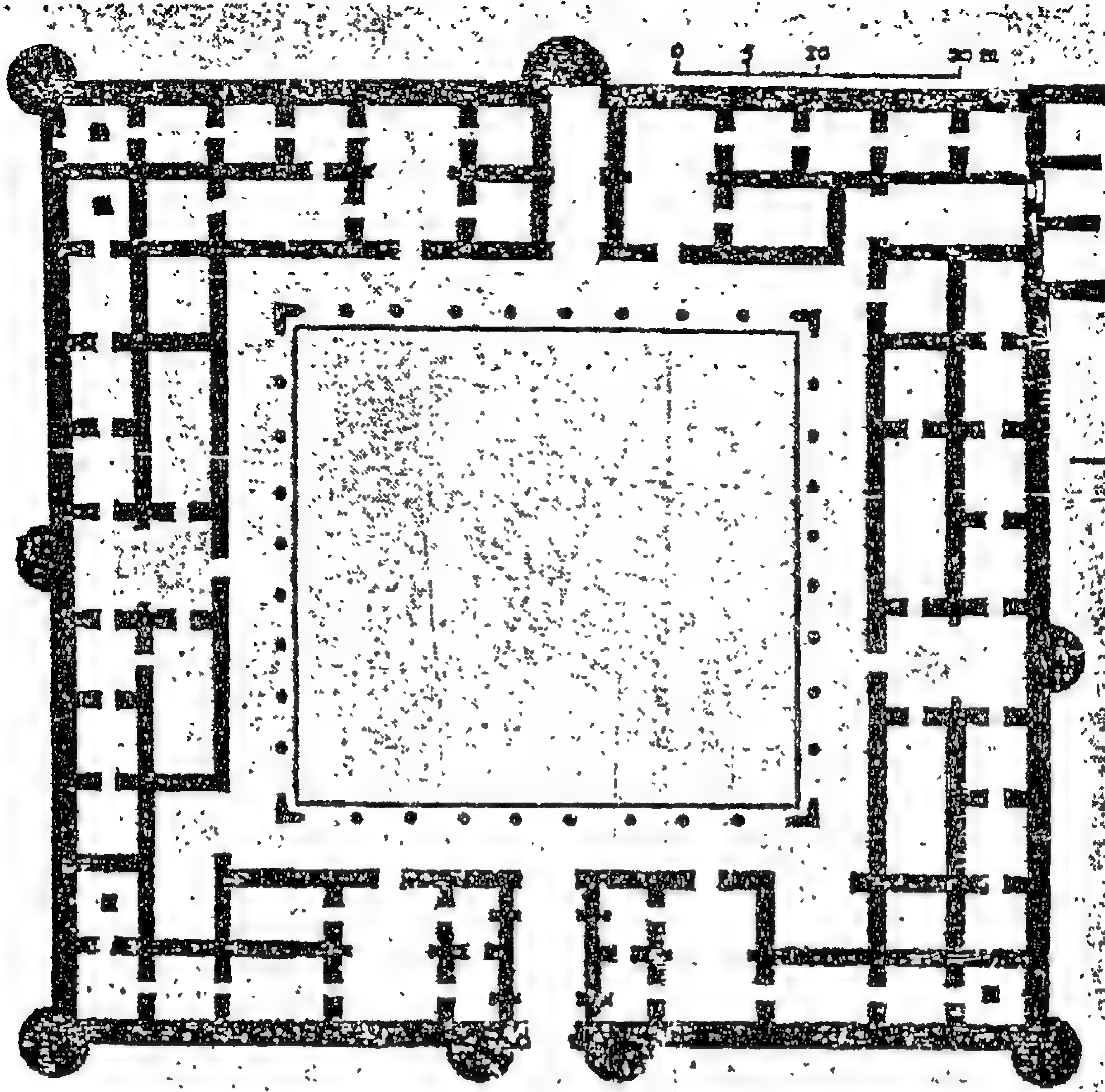
بُني هذا القصر في عهد الخليفة الاموي هشام بن عبد الملك ، ونسبة بنائه الى هشام تعود استناداً الى نص مكتوب بالخط الكوفي على باب قيل انه باب خان قديم فوجد قريبا من القصر ،جاءفيه ما يلي : « بسم الله الرحمن الرحيم • لا اله الا الله وحده لا شريك له ، أمر بصنعة هذا العمل عبد الله هشام أمير المؤمنين أوجب الله أجره ، عمل على يدي ثابت بن أبي ثابت في رجب سنة تسع ومائة »(٧٥) •

وقد كان هشام كأخيه الوليد محباً للعمارة وبناء القصور • فأول قصر أمر أمر ببنائه هو قصر الحير الغربي الذي يقع على بعد عشرين ميلا شرق بلدة القريتين الحالية ، وحوالي سبعة وثلاثين ميلا قبل الوصول الى مدينة تدمر، حيث توجد بقاياه وخرائبه • ويعتبر هذا القصر ممن حيث قياساته أكبر من جميع القصور التي ذكرناها حتى الان • فهو مربع الشكل تقريباً يبلغ طول ضلعه ٧٠ مترا ، له في زواياه الاربعة أبراج اسطوانية ماعدا الزاوية الشمالية الغربية حيث ترك برج من العهد البيزنطي • وفي كل من منتصف أضلاعه الثلاثة برج نصف أسطواني • وفي الواجهة الشرقية برجان نصف اسطوانيين يحيطان بالباب ويشكلان معه الواجهة الرئيسية •

بناء القصر من الحجر الكلسي حتى ارتفاع مترين تقريباً وأكمل باقي البناء من اللبن (الطوب غير المشوي) ، ويتخلل صفوف اللبن والاجر أو العوارض الخشبية• لذلك فان جدران القصر سميكة جداً والجدران الداخلية أقل سمكا(٧٦) •

ان مظهر قصر الحيّر الغربي العام يجعله أشبه بالحصن ، تتصل بوابته بوساطة دهليز بالباحة السماوية المحاطة بأورقة محمولة على عمد قديمة ، ويوجد في وسط ابباحة حوض صغير ، وترتفع حول الباحة البيوت في طابقين ، وتشاهد آثار قاعات القصر وحجراته مرتبة ضمن ستة بيوت مستقلة عن بعضها ، اثنان من الجهةالشرقية،

٧٥ـ الريحاوي : المرجع السابق ، ص ٦١.
٧٦ـ نجدة خماش : المرجع السابق ، ص ٥٣ .
CRESWELL : Op. Cit., Vol. 1, p. 506.

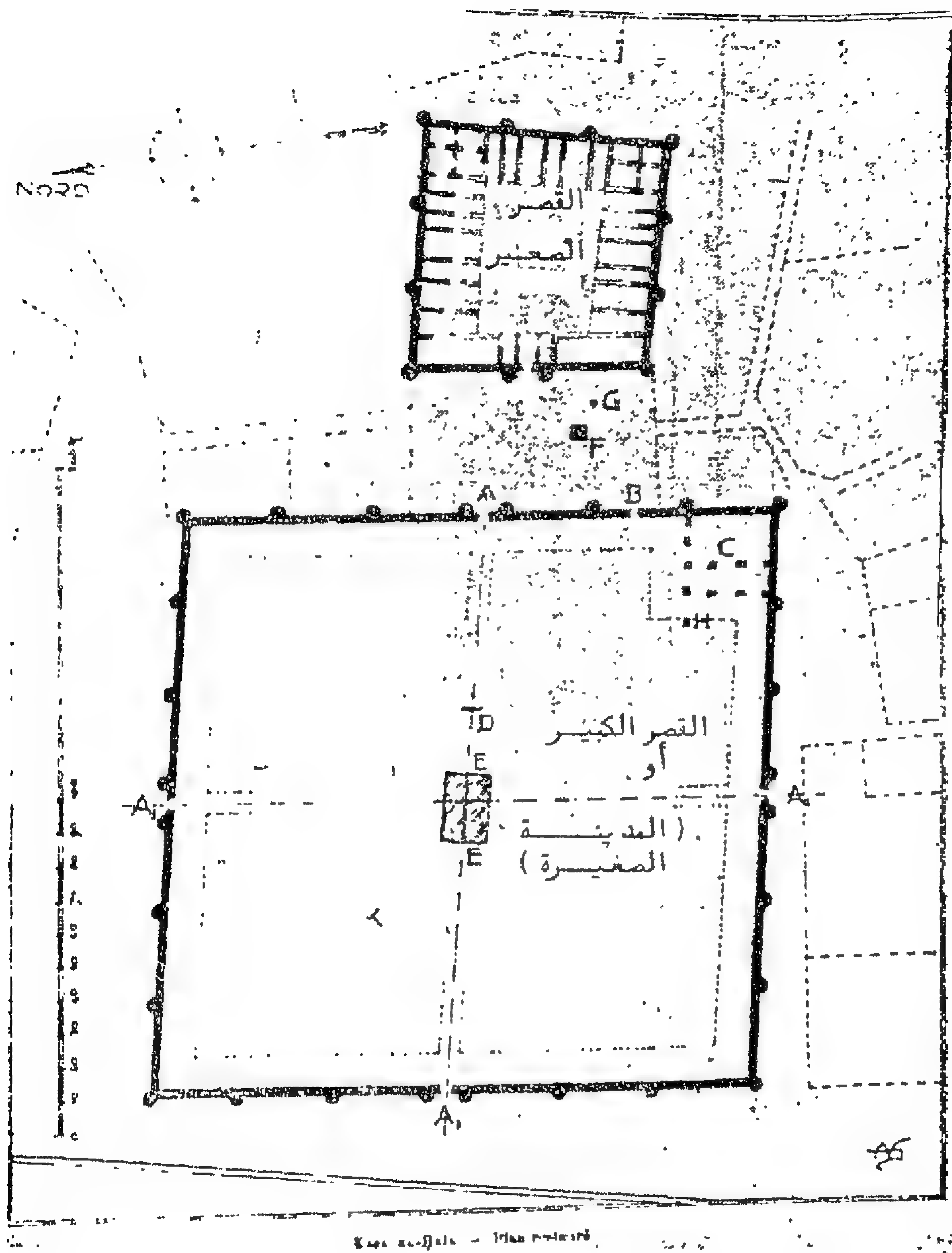


مخطط قصر الحير الغربي (عن شلومبرجه)

ومثلهما في الجهة الغربية ، وواحد في الجنوب وآخر في الشمال . يحوي كل بيت من ٨ـ١٣ قاعة أو حجرة (٧٧) . ويعتبر هذا القصر أحسن نموذج للعمارة في العصر الاموي(٧٨) .

٧٧ـ أحمد فائز الحمصي : روائع من العمارة العربية الاسلامية في سورية ، مراجعة حسن كمال وتقديم محمد محمد الخطيب . منشورات وزارة الاوقاف في الجمهورية العربية السورية ، دمشق ١٤٠٢ هـ/ ١٩٨٢م ، ص ١٠٢ و ١٠٣ .

٧٨ـ أحمد فائز الحمصي : المرجع السابق ، ص ١٠٣ .

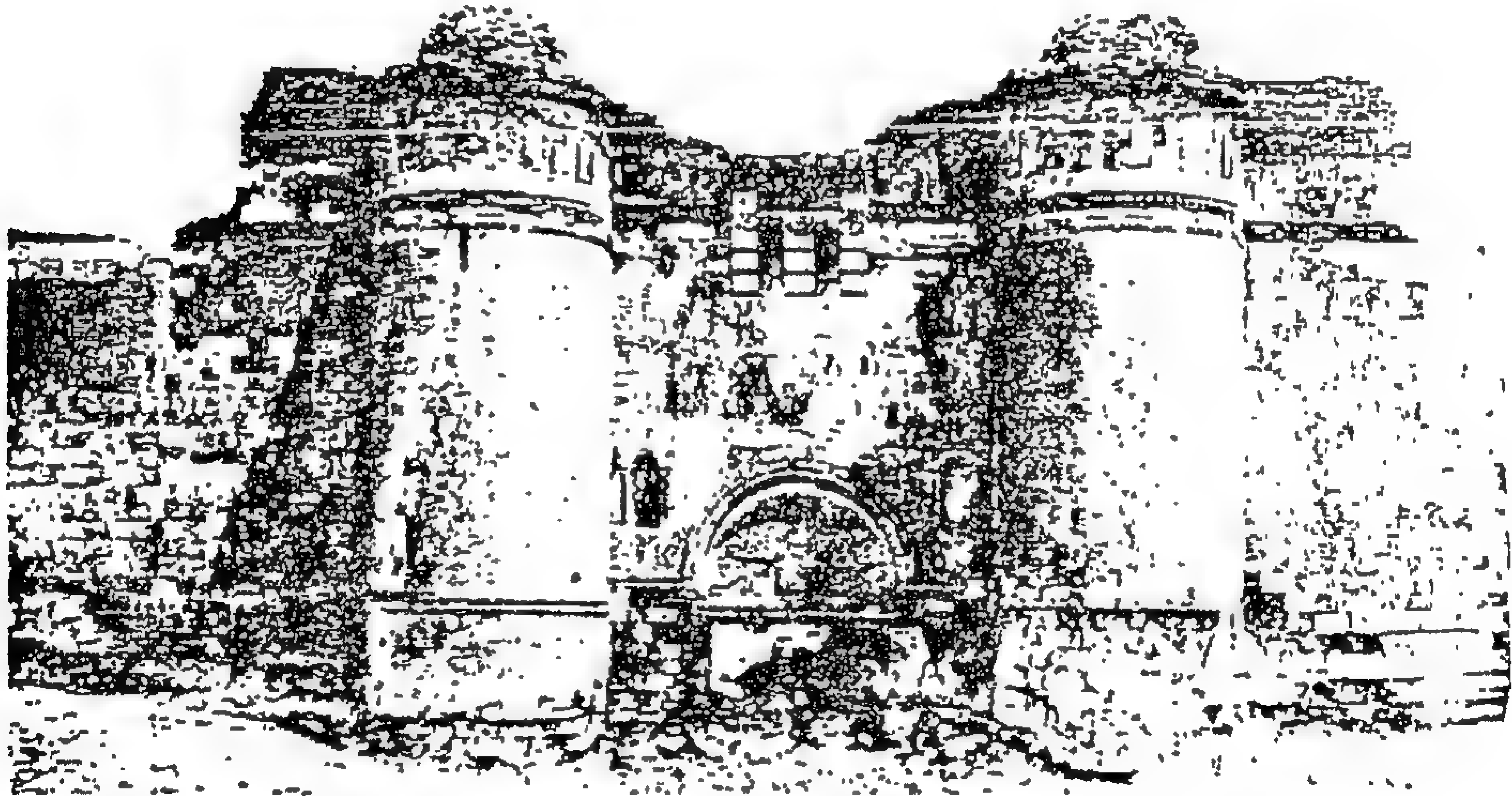


مخطط قصر الحير الشرقي (عن كابرييل)

هـ ـ قصر الحير الشرقي :

اثر انتشار وباء مرض الطاعون ، الذي أرعب الخليفة هشام بن عبد الملك نفسه، أمر ببناء قصر الى الشرق من القصر الاول سمي بقصر الحير الشرقي ، حيث استمر بناؤه خمس سنوات كان آخرها سنة ١١٠هـ / ٧٢٧م • وقد كان هذا القصر مجاورا لقرية الطيبة الحالية التي كانت تمثل موقعاً رئيسياً على طريق حلب وبغداد والبصرة[٧٩] •

ان مجموعة الاثار التي اكتشفت في موقع القصر تشير الى أن البناء برمته كان يتألف من قصر ومدينة صغيرة مسورة وحمام وأسوار لبساتين ومزارع وأسوار لبساتين ومزارع واسعة ، وان هذه المدينة الصغيرة تشكل قصرا كبيرا أعد ليكون محطة للخليفة وحاشيته ولاسكان المزارعين والحامية[٨٠] •



بوابة قصر الحير الشرقي

٧٩ـ CRESWELL : Op. Cit., Vol. 1, p. 522.

٨٠ـ عبد القادر ريحاوي : المرجع السابق ، ص ٦٨ وما بعدها .
CRESWELL : Op. Cit., Vol. 1, p. 522.

أما مخطط القصر فهو قريب من مربع طول ضلعه ٦٦ مترا تقريبـا ، تتـوزع الابراج في زواياه وفي أضلاعه برجان في كل ضلع وله باب رئيسي يتوسط الواجهة الغربية ويقع بين برجين ، وتقدر فتحته بثلاثة أمتار ، ويشبه الى حد كبير بوابة قصر الحير الغربي • وفي الداخل باحة سماوية يحيط بهـا رواق وحولهـا الغرف وهي مسقوفة بعقود من الآجر •

أما المبنى الثاني والذي يشكل قصرا كبيراً (أو مدينة صغيرة) فهو على شكل مربع أيضا طول ضلعه ١٦٠مترا وفي أسواره المزودة بالابراج أربعة أبواب رئيسية متقابلة وموزعة على جهات السور الاربع ويمتد مـن كل باب شـارع ، فتتقاطع الشوارع الاربعة وسط المدينة • وفي داخل السور مجموعة من الدور أو القصور الصغيرة ومعصرة ومسجد يحتل الزاوية الجنوبية الشرقيـة المدينـة • ومخطط المسجد هذا يشبه الى حد ما مخطط مسجد دمشق الكبير الذي بناء الوليد بن عبد الملك • أما مئذنة المسجد فهي مربعة الشكل ومنفردة في بنائها عن بناء المسجد اذ تقع بين القصرين ، ولقد عثر على أحد حجارة المسجد التي وجدت داخل السـور النص المنقوش التالي :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، محمد رسـول الله ، أمر بصنعة هذه المدينة عبد الله هشام أمير المؤمنين ، وكان هذا مما عمل أهل حمص على يدي سليمان ابن عبيد سنة عشر ومائة »[٨١] •

و ـ حمام الصرح :

اكتشفت هذا القصر بعثة من علماء الآثار في جامعة برنستون سنة ١٣٢٤ هـ/ ١٩٠٥م على بعد ثلاثة أميال الى الجنوب الشرقي من القلعة الرومانية المعروفة باسم قصر الحلابات ، ونحو عشرين ميلا من حمام الزرقاء الواقع على طريق الحج على بعد اثني عشر ميلا شمال مدينة عمان[٨٢] • وحمام الصرح من حيث تخطيطه ، يشبه

٨١ـ عبد القادر ريحاوي : المرجع السابق ، ص ٧٣ـ٧٦ •

الى حد كبير قُصَيْر عَمْرة • ففيه قاعة استقبال مستطيلة الشكل لهـا في الناحيـة الجنوبية الشرقية حنية يحف بها غرفتان ، لكل غرفة ثلاث نوافذ صغيرة ، والى جانب قاعة الاستقبال حمام من ثلاث قاعات صغيرة : الاولى ذات سقف من قبـو نصف دائري ، والثانية سقفها من قبوين متقابلين ، والثالثة تعلوها قبة نصف كروية[٨٣] •



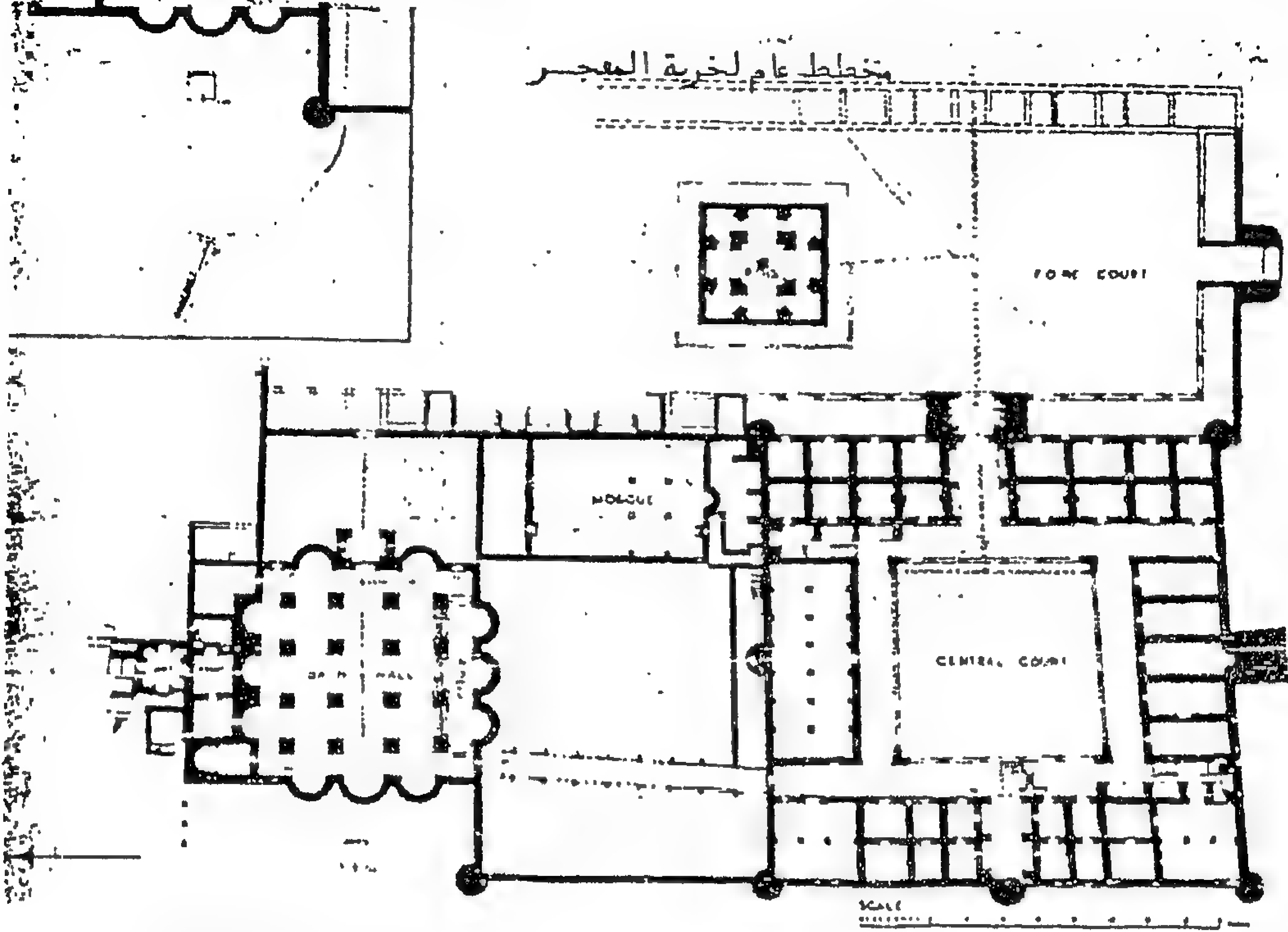
حمام الصرخ ، منظر عام من الجنوب (عن كريزويل)

ان الشبه الكبير بين حمام الصرخ وقصير عمرة ومن الآثار التي وجدت يتبين أنه بنيّ لأمير أموي في الفترة ما بين سنة ١٠٨هـ / ٧٢٥م و ١١٣هـ / ٧٣٠م[٨٤]• ان أعظم ما يلفت النظر في حمام القبة المضلعة التي تقوم فوق قاعة المدخل[٨٥] •

٨٢ـ كمال محمد حسن : المرجع السابق ، ص٤٧ •
كمال الدين سامح : المرجع السابق ، ص ٣١ •
CRESWELL : Op. Cit., Vol. 1, p. 498.
٨٣ـ كمال محمد حسن : المرجع السابق ، ص ٤٧ •
٨٤ـ كمال محمد حسن ، المرجع السابق ، ص ٤٧ •
CRESWELL : Op. Cit., Vol. 1, p. 498.
٨٥ـ انكسترهاردنج : المرجع السابق ، ص ١٥٥ •

ز ـ قصر هشام :

بني هذا القصر في عهد هشام بن عبد الملك ، في الموقع المعروف حاليا بخربـة المفجر ، والتي اكتشفت سنة١٣٥٣هـ / ١٩٣٤ م بالقرب من مدينة أريحا في فلسطين . وهو قصر ضخم يحتوي على ثلاثة أبنية : قصر ومسجد وحمام (٨٦) .



المسقط الافقي لقصر خربة المفجر باريحا (عن ديمتري برامكي)

ومدخل القصر يقوم على برج مستطيل هائـل ، على جانبيه مقاعـد مزوّدة بالمتكآت الحجرية ، ويعلو المدخل عقد مصلب يتكون من عدة أقواس صغيرة داخل قوس كبير . أما داخل القصر فيضم صحناً مربعاً مكشوفا تقوم على جوانبه أربعـة أبنية على طابقين ، مستقلة الواحدة منها عن الاخرى ، ويفصلها عن الصحن الداخلي رواق مظلل بالعقود والاقواس المرتكزة على الاعمدة(٨٧) .

٨٦ـ نجدة خماش : المرجع السابق ، ص ٤٠ .
CRESWELL : Op. Cit., Vol. 1, p. 498

٨٧ـ نجدة خماش : المرجع السابق ، ص٤٥ .

أما المسجد فمزوّد بمحراب في طرفه القبلي، وعلى جانبيه غرف مستطيلة للوضوء ولخدم المسجد • والحمام عبارة عن ايوان مربع مزود بثلاثة محاريب كبيرة في كل من جوانبه الاربعة ، وفي طرفه الجنوبي بركة للاستحمام • وسقف هذا الايوان عبارة عن قباب وعقود على ارتفاعات متفاوتة ، قائمة على أقواس كبيرة ترتكز على ١٦ عمودا من الاعمدة ، وأرضه مرصوفة بالفسيفساء المتعددة الالوان (٨٨) •

ان أهم ما يتميّز به هذا القصر عن غيره ، أنه أحيط بسور كسياج له وبناؤه مزيج من الحجارة والطوب (٨٩) •

ح ـ قصر المشتى والتوبة :

اكتشف قصر المشتى سنة ١٢٥٤ هـ/١٨٤٠م ، ويقع الى الجنوب من مدينة عمان وعلى بعد عشرين ميلا • أما قصر التوبة فيقع في وادي عذف ، على بعد ستين ميلا الى الجنوب الشرقي من عمان واكتشف سنة ١٣١٧هـ / ١٨٩٨م (٩٠) •

يتشابه هذان القصران من حيث مخطط بنائهما الى حد كبير ، مما جعل الدارسين يميلون الى الاعتقاد أنهما بنيا في وقت واحد • وتاريخ بنائهما لا يعرف عنه شيء يمكن الاعتماد عليه بشكل قاطع ، كما امتد الخلاف الى نسبة القصرين، فرأى البعض أنهما أسبق من الامويين ، على حين رأي البعض الاخر من الباحثين أنهما قصران أمويان بالاعتماد على حقيقة شبه متفق عليها ، وهي ن الامويين يميلون الى السكن في أطراف الصحراء حيث المكان المحبب لهم (٩١) •

---

٨٨ ـ نجدة خماش : المرجع السابق ، ص ٤٥ •

ـ ديمتري برامكي : المرجع السابق ، ص

٨٩ ـ لانكستر هاردنج : المرجع السابق ، ص ١٨٠/١٨٢ •

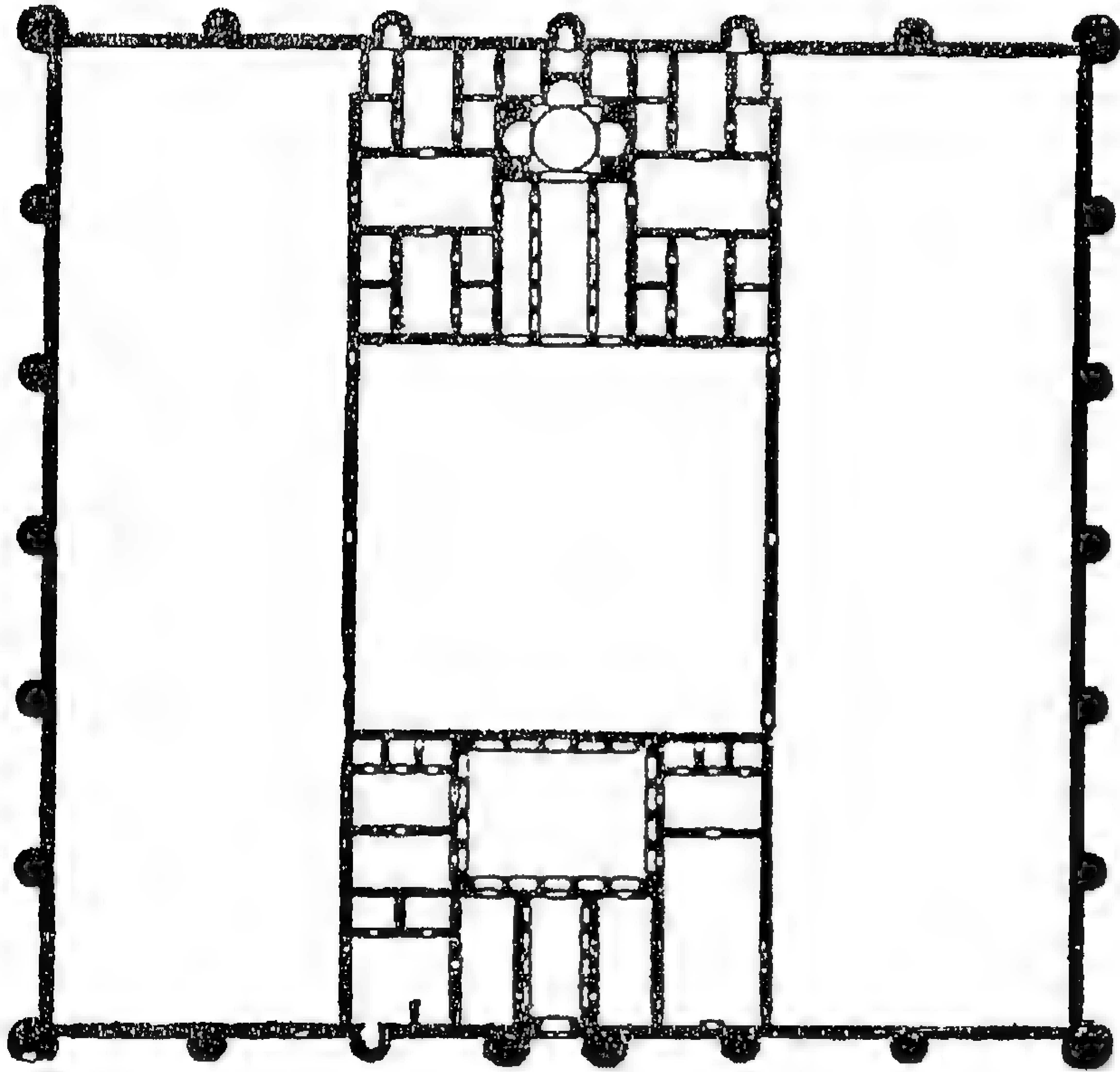
CRESWELL : Op. Cit., Vol. 1, p. 522.

٩٠ ـ كمال محمد حسن : المرجع السابق ، ص ٥٣ •

٩١ ـ كمال محمد حسن : المرجع السابق ، ص ٥٢ •

CRESWELL : Op. Cit., Vol., 1, p. 578.

وقصر المشتى بناء يحده سور مربع الشكل ، طول كل ضلع من أضلاعه نحـو ١٤٤ مترا ، وفي السور أبراج نصف دائرية ، واه مدخل في وسط الضلع القبلي • والمساحة المحصورة بين جدران هذا السور تنقسم الى ثلاثة مستطيلات ، المتوسط فيها أعرض من المثلثين الجانبين وهو الوحيد الذي تم بناء بعض أجزائه لأن المثلثين الجانبيين لم يشيّد فيهما أي بناء •



تصميم قصر المشتى (عن نعمت اسماعيل علام)

ويؤدي مدخل القصر الى بهو ، ويحف بالقاعة والبهو غرف أخـرى • وخلف البهو فناء كبير ، وفي شمال هذا الفناء مدخل ذو ثلاثة عقود يؤدي الى قاعة كبـيرة

مستطيلة ، تنتهي بشكل ذي حنيات ثلاث • وجدران القصر الداخلية وأقبيته من الاجر ، وفيه أعمدة من الرخام • أما عقوده وأركانه فمن الحجر الجيري[٩٢] •

أما قصر التوبة أو (الطوبة) حيث ترد هذه التسمية في بعض المصادر لنفس القصر ، فهو مستطيل الشكل (٥ر١٤٠ × ٨٥ر٧٢ مترا) • ويشبه قصر المشتى في معظم عناصره المعمارية [٩٣]• لكنه يختلف عن بقية القصور بأنه أنشيء من حجارة وآجر ترابي على السواء ، كما أنه فخم أكثر من القصور السابقة لانه أنشيء لكي يحتوي على جناحين متشابهين ولكن لم يقدر له الاكتمال[٩٤] •

٩٢ـ كمال محمد حسن : المرجع السابق ، ص ٥٠ •

٩٣ـ كمال محمد حسن : المرجع السابق ، ص ٥٣ •

٩٤ـ لانكستر هاردنج : المرجع السابق ، ص ١٦٤ •

ج ـ علم الكلام في العصر الأموي

أولا ـ تعريف بعلم الكلام ونشأته :

لقد عرّف ابن خلدون علم الكلام بأنه علم يتضمن الحجاج عن العقائدالايمانية بالأدلة العقلية والرد على المبتدعة المنحرفين في الاعتقادات عن مذاهب أهل السلف وأهل السنة[1] .

أما أسباب تسميته بعلم الكلام ، فهناك آراء كثيرة حول هذه المسألة منها ، أنه ربما سمي بـ « علم الكلام » لأن أهم مسألة وقع فيها الخلاف بين المسلمين هي مسألة كلام الله وخلق القرآن ، فسميّ العلم كله بأهم مسألة فيه . أو لأن مبناه كلام صرف في المناظرات والعقائد ، وليس يرجع الى عمل . أو لأن أنصاره تكلموا في مسائل كان السلف يسكت عنها . أو لأن في طرق استدلاله على أصول الدين أشبه بالمنطق في تبنّيه مسالك الحجة في الفلسفة فوضع للأول اسم مرادف للثاني وسمي « كلاما » مقابلة لكلمة « منطق » .

فالمتكلم محام يدافع عن الاسلام يذود عن حياضه ويجادل بالتي هي أحسن ما استطاع اليه سبيلا . فهو يجعل من مسألة مختلف فيها من مسائل الاعتقاد والعقيدة موضوع برهنة جدلية ، يورد البراهين النظرية لدعم القضية التي يعرضها. ولقد أخذ هذا الاصطلاح يتسع تدريجيا ويستعمل للدلالة على هؤلاء الذين يعملون من القضايا المأخوذة بسبب الدين ، كمبادىء لا تقبل المناقشة ، موضوع برهنة ،

---

١ ـ ابن خلدون : المقدمة ، ص ٤٥٨ .

فيتكلمون في تلك المبادىء ويعالجونها ليتوصلوا في النهاية الى تركيزها في صيغ يرون بأنها يجب أن تكون مقبولة حتى من الأدمغة المفكرة[٢] •

وعلى هذا الأساس يمكننا القول بأن (الكلام) كان شائعا في جميع الفرق الدينية الاسلامية التي نشأت منذ مطلع العصر الأموي ، لكنه بقي جملة مذهبية غامضة ، أخذت تتفتح وتنضج ببطء تبعا ليقظة الذكاء الجمعي تدريجيا في أواخر العصر الأموي • ولعل السبب في هذا النمو البطيء لهذا العلم في فترة بحثنا يعود لانشغال الأمويين بالفتوح وتوسيع رقعة الدولة العربية الاسلامية والدفاع عن حدودها أو أن الأمويين أنفسهم لم يكونوا في وضع سياسي يسمح لهم بالتسامح مع رجال هذا العلم ، كونهم اتهموا بأنهم اغتصبوا الحكم والسلطة[٣] • وبالتالي فان وجودهم على رأس هذا الحكم وجود غير شرعي ، وفي هذه الحالة فان علم الكلام سيخدم قوى المعارضة التي أقلقت راحة الخلفاء الأمويين زمنا طويلا •

ولكي تكون الصورة أوضح فلابد من دراسة تطورات علم الكلام ، الذي تعتبر بداياته الأولى وأساس وجوده في الفكر الاسلامي والحضارة الاسلامية قد وضعت في العصر الأموي ، وذلك كما الحال عليه في كثير من العلوم الأخرى التي أتينا على دراستها حتى الآن •

يعتبر أولئك الذين تكلموا بالقدر ، منذ فترة مبكرة في العصر الأموي هم أساس وجود انتشار هذا العلم ، الذين يمكن أن نذكر منهم ، محمد بن علي بن عبد الله بن العباس (المتوفى سنة ١٢٥ هـ) الذي أرسله أبوه الى أبي هاشم عبد الله بن محمد بن الحنفية ، وزيد بن علي بن الحسين حيث قال حين سأله أبو

---

٢ ـ عادل العوا : الكلام والفلسفة ، طبعة جامعة دمشق ١٩٦١ م ، ص ١٤ ـ ١٦ •
ـ احمد امين : ضحى الاسلام ، الجزء الثالث ، الطبعة السابعة ، مكتبة النهضة المصرية ١٣٥٥هـ/١٩٣٦م ، ص ٩ و ١٠ •
٣ ـ محمد عبد الرحمن مرحبا : من الفلسفة اليونانية الى الفلسفة الاسلامية ، منشورات عويدات ، بيروت طبعة أولى ، ١٩٧٠ ، ص ٢٨٢ •

الخطاب عما يذهب اليه : أبرأ من القدرية الذين حملوا ذنوبهم على الله ، ومن المرجئة الذين أطمعوا الفساق في عفو الله ، ومحمد بن سيرين (المتوفى سنة ١١٠هـ) الذي رُوي عنه أنه وأصحابه مروا برجل مجلود فقال قائل : الحمد لله الذي عافانا مما ابتلى به ، فقال ابن سيرين : « لا تقولوا هكذا ولكن قولوا : الحمد لله الذي عافانا مما سولت له نفسه »[٤] . ومنهم الحسن بن أبي الحسن البصري (المتوفى سنة ١١٠ هـ)[٥] . الذي أثر عنه أقوال ومجادلات متنوعة ، تشير كلها الى أنه كان من الذين اشتغلوا في ميدان الكلام ، وإن كان الأمر لم يصل عنده الى حد التعمق ، كما تعني لفظة علم الكلام نفسه . فمن هذه الأقوال ما يدل على أنه كان يؤمن بأن الخير من الله والشر من البشر . ففي رواية لداود بن أبي هند قال : « سمعت الحسن يقول : كل شيء بقضاء الله وقدره الا المعاصي »[٦] . وله مع الحجاج بن يوسف الثقفي مراسلات ومجادلات توحي كلها بأنه كان يقول بمسألة القدر التي ستتبلور بصورة أوضح عند غيره كما سيأتي[٧] . وقد روى عنه أنه مر بلص مصلوب ، فقال : « ما حملك على هذا ؟ فقال : قضاء الله وقدره ، فقال: كذبت ، أيقضي الله عليك أن تسرق وقضى عليك أن تصلب ؟ »[٨] . وهذا يدل دلالة واضحة على عدم ايمانه بأن الأفعال الخيرة والشريرة ، هي من الله قدرها على الانسان وهي مكتوبة عليه وستحدث لا محالة . انما يريد الله للانسان الخير وليس الشر ، فالشر هو من صنع الانسان .

ويعتبر الحسن البصري في نظر البعض ، أنه هو الذي أسس ما يسمى بالقدرية والتي تطورت فيما بعد الى ما يسمى بالمعتزلة ، وذلك في العصر العباسي . فقد

---

٤ ــ عبد الجبار الهمذاني : المنية والأمل في شرح كتاب الملل والنحل ، جمع أحمد بن يحيى المرتضى ، تحقيق وتعليق علي سامي النشار وعصام الدين محمد علي ، دار المطبوعات الجامعية سنة ١٩٧٢م ، ص ٣٢و٣٣ .

٥ ــ انظر ص ١٢٠ من هذا البحث .

٦ ــ الهمذاني : المصدر السابق ، ص ٣٤ .

٧ ــ انظر هذه الرسائل والمجادلات في المنية والأمل ص ٣٤ و ٣٥ .

٨ ــ الهمذاني : المصدر السابق ، ص ٣٥ .

علّم تلميذه واصل بن عطاء إن العبد حر ، وأن لـه الاختيار المطلق في الأفعال من خير وشر وهذا نفس المبدأ الذي قال به المعتزلة(٩) فيما بعد .

اذن يمكن القول أن لفظ (علم الكلام) انما بدأ يتردد على ألسنة الناس في أواخر القرن الأول الهجري/السابع الميلادي . وكان الكلام بسبب المسائل الجدلية كالقدر ثم تبعها مسائل أخرى تتعلق بالقرآن وبصفات الله تعالى(١٠) . وتظهر ماهية علم الكلام والقصد منـه تلك الفترة الزمنية ، اذا عرفنا أنه جامع وثيق بـين علم الكلام والفلسفة يمثله الاتجاه العقلي واعتماد المنطق والحجة والبرهان سبيلا لنوال القصد وبلوغ الهدف وتحقيق ما هو منشود . بيد أن الفـرق بينهما في أن الكلام يتضمن الحجاج عـن العقائد الايمانية بالأدلة العقلية بينما الفلسفة تعليـل بالأنظار الفكرية والأقيسـة العقلية . فالمتكلم محام عن الدين ، كما ذكرنا ، بينما الفيلسوف باحث عقلي مدقق يرتب الأدلة والحجج وينظم الأقيسة والبراهين ثـم يطلق الحكم على ما يجده حقا في نظره كقاض(١١) .

ولقد تأثرت ولادة علم الكلام في هذا العصر بتيارات فكرية أدت بدورها الى ظهور هذا العلم ، ويمكن أن نحدد هذه التيارات بفرعين رئيسيين ، أولهما التيـار الخارجي ، ومثلته عناصر أجنبية كالنصارى مثـل النساطرة واليعاقبة الذين ركزوا جدلهم حول طبيعـة المسيح ونفي التشبيه وقولهم بالقدر(١٢) ، كان منهم يوحنـا الدمشقي ، الذي ألّف عـدة كتب في اللاهوت والفلسفة ، وخاصة كتابه (ينبوع المعرفة)(١٣) ، ويحاول يوحنا أن يربط بين الله وبين كل الأعمال الخيرة التي تصيب الانسان ، وإن الأمور الاختيارية هي ضمن تصرف البشـر ومنها الأعمال الشريرة التي تكون مخالفة لله ، ولا دخل له بها مع علمه المسبق بحصولها(١٤) .

---

٩ ــ حنا فاخوري وخليل الجر : تاريخ الفلسفة العربية ، طباعـة مؤسسـة بدران ، بيروت ص ١١٥ .
١٠ــ خليل الزرو : المرجع السابق ، ص ١٢١ .
١١ــ عادل العـوا : المرجع السابق ، ص ١٤ و ١٥ .
١٢ــ خليل الزرو : المرجع السابق ، ص ١٢٤ و ١٢٥ .
١٣ــ زهـدي جـار الله : المعتزلة ، طبعة اولى ، القاهـرة سـنة ١٩٤٧م ، ص ٢٣ ــ ٢٥ .
١٤ــ زهـدي جـار الله : المرجع السابق ، ص ٣٧ .

أما التيار الثاني فيتمثل بالمسلمين أنفسهم ، حيث اضطر المسلمون القدماء الى مجادلة ومناقشة المسلمين الجدد ، الذين اعتنقوا الاسلام بعد أن كانوا يدينون بديانات أخرى كاليهودية والنصرانية والمانوية والزرادشتية والبراهمة والصابئة والدهريين . فبعد أن استقر هؤلاء وهدأت نفوسهم في الاسلام أخذوا يفكرون في تعاليم دياناتهم السابقة ويثيرون مسائل من مسائلها ويلبسونها لباس الاسلام ، وهذا ما يعلل وجود كثير من الأقوال في كتب الفرق الدينية الاسلامية بعيد كل البعد عن الاسلام. ومن هنا نشأ واجب أساسي اضطلع فيه مفكرو الاسلام، هو واجب المناظرة والنقد، هذا بالاضافة الى الخصومات السياسية ذاتها والتي كانت تصطبغ بلون المناظرة الدينية ، وخاصة أن بني أمية كانوا يعلمون أن دولتهم لايرضى عنها كثير من المؤمنين. رغم ما كان لهم من فضل على نشر الاسلام وتوسيع رقعته . وحتى يواجهوا هذه المعارضة السياسية ، كانوا يلجأون الى القرآن والسنة لاستنباط السند الشرعي لدعم حكمهم اذا كان ذلك ممكنا ، وهذا ما فعلوه[١٥] . وقد أدى هذا الواقع الى نشوء فريقين متضادين في أواخر العصر الأموي ، أخذ كل واحد منهما يدافع عن أفكاره ومعتقداته ويحاول أن تسود دون غيرها . هذان الفريقان هما الفريق الذي دعي بالقدرية والفريق الثاني الذي دعي بالجبرية[١٦] .

ثانياً ــ القدرية :

هي حركة عقلية داخلية اقتضاها منطق الأشياء والحوادث وخاصة في زمن بني أميّة ، الذين اعتُبروا غاصبين للسلطة كما أسلفنا . لذلك فقد قام القدريون على انكار دعواهم ، معتمدين على أدلة من الكتاب والسنة[١٧] . ويعتمد مبدأ القدرية على حرية الانسان في ارادته وقدرته على أعماله . فالانسان في رأيهم مخيّر مختار لا مسيّر مجبر ، وأنه قادر على فعل الخير والشر، مسؤول عما يفعل يوم الحساب، يثاب على الخير ويعاقب على الشر وذلك بمقتضى العدالة الالهية . وهم يتأولون

١٥ــ عادل العوا : المرجع السابق ، ص ٢٠ و ٢١ .
ــ محمد عبد الرحمن مرحبا : المرجع السابق ، ص ٢٨٢ .
١٦ــ عادل العوا : المرجع السابق ، ص ٢٢ ــ ٢٤ .
١٧ــ محمد عبد الرحمن مرحبا : المرجع السابق ، ص ٢٨٥ .
ــ حنا فاخوري وخليل الجر : المرجع السابق ، ص ٨٥ .

الصفات مثل ((اليد)) و ((العين)) التي وُصِف بها الله في القرآن الكريم ، وينفون الصفات المعنوية كالعلم والقدرة ، فيذهبون الى أن صفات الله وذاته أمر واحد ، أي أن الله تعالى عالم بذاته لا بعلم خارج عن ذاته ، وقادر بذاته لا بقدرة خارجة عن ذاته[١٨] . وقد أيدوا هذه الأقوال بآيات من القرآن الكريم والحديث النبوي، حتى تكون لدعواهم هذه قبولا منطقيا عند الناس . ولسنا هنا بصدد تفنيد هذه الحجج أو التعليق عليها في هذا المكان ، انما الذي نريده ، هو أن نضيف أن ولادة مثل هذه الحركة في العصر الأموي ، كان نذير خير وعافية من حيث أنها كانت مدخلا للغوص في حقائق الكون والتعرف عليها من خلال البحث عن أسبابها وماهيّة وجودها ، الأمر الذي ساعد العرب المسلمين فيما بعد على وضع فلسفة عظيمة كان لها أثرها الخير على حياة الانسانية حتى يومنا هذا .

ومن الذين تكلموا بالقدرية في فترتنا هذه ، يمكن أن نذكر محمد بن خالد الجهني المتوفى سنة ٨٠ هـ/٦٩٩ م[١٩] ، لكنه لم يصل الى الدرجة التي وصلها خلفه المعروف بغيلان الدمشقي الذي اشتهر في هذا العصر كرأس للقدرية ، وواضع أسسها وتعاليمها . واسمه غيلان بن يونس القدري الدمشقي ، كان أبوه مولى لعثمان بن عفان ، وتتلمذ على سوسن النصراني ومعبد الجهني والحارث بن سعيد الكذاب وغيرهم[٢٠] . واشتهر أمر غيلان في زمن الخليفة الأموي عمر بن عبد العزيز وأول ما قال به غيلان زمن هذا الخليفة ما معناه أن العبد يفعل بقدرته ما يشاء دون أن يكون لله مشيئة على أعمال الفرد ، فأحضره عمر بن عبد العزيز ووبخه ، وبلغه بعد ذلك أن غيلان أسرف في القدر فاستدعاه اليه وامتحنه ، وكان يود أن يذبحه لو لم يتراجع غيلان ويعلن توبته . فأمر عمر بن عبد العزيز بالكتابة الى جميع الأعمال بخلاف ذلك ، فأمسك غيلان عن الكلام الى أن مات الخليفة ، فعاد يتكلم في القدر ويطعن في بني أمية . لكن هشام بن عبد الملك كان شديدا على

١٨ـ عادل العوا : المرجع السابق ، ص ٢٣ .
١٩ـ عادل العوا : المرجع السابق ، ص ٢٣ .
ـ احمد امين : فجر الاسلام ، ص ٢٨٤ و ٢٨٥ .
٢٠ـ خليل الزرو : المرجع السابق ، ص ١٣١ .

القدرية ، فلما تولى الخلافة أحضر غيلان وامتحنه فأقر بنفي القدر ، فأمر به فقطعت يداه ورجلاه فمات ، وصلب على باب دمشق ، ويقال أن هشام صلبه حياً[٢١] .

وقد استمر القول بالقدر في الشام على رأي غيلان بعد موته ، لكن القدرية لم يشكلوا فرقة ذات قوة ، بقدر ما كانوا أفرادا متفرقين ، لكنهم سيصبحون أقوياء في العراق بعد سقوط الدولة الأموية . وعلى كل حال نلاحظ أن تأثير غيلان لم يكن في أشخاص عاديين بعيدين عن الحكم فحسب ، بل تعدى ذلك الى العائلة الحاكمة من الأمويين ، مثال ذلك يزيد بن الوليد ، كما جاء عند الذهبي حيث قال: « وممن اعتنق القدر من الخلفاء يزيد بن الوليد ، ودعا الناس الى القدر وحملهم عليه وقرّب أصحاب غيلان »[٢٢] .

ومهما يكن من أقوال القدريين وعقائدهم ، فانها شكلت نواة لما سمي في العصر العباسي بالمعتزلة التي ازدهرت كحركة فكرية متميّزة ، وبشكل خاص زمن الخليفة المأمون[٢٣] .

ثالثاً ــ الجبرية :

وبالمقابل لحركة القدرية ،فقد ظهرت حركة مضادة لها دعيت بالجبرية ، التي قال أصحابها بعكس القدرية تماما . وقد نهض بهذه الحركة جهم بن صفوان (المتوفى سنة ١٢٨ هـ/٧٤٥ م)[٢٤] والذي قال بالاجبار والاضطرار الى الاعمال وأنكر الاستطاعات كلها . وزعم أن الجنة والنار تبيدان وتفنيان وأن الايمان هو المعرفة بالله تعالى فقط وإن الكفر هو الجهل به فقط . وقال لا فعل ولا عمل لأحد غير الله تعالى ، وانما تنسب الأعمال الى المخلوقين على المجاز ، ويقول الجبريون أيضا بأن العبد مجبر مسيّر في كل ما يفعل ، لا يملك أن يختار شيئا من أفعاله

٢١ــ زهدي جار الله : المرجع السابق ، ص ٣٥ .
ــ احمد أمين : فجر الاسلام ، ص ٢٨٧ .
٢٢ــ الذهبي : تاريخ الاسلام ، الجزء الرابع ، ص ٢٩٠ .
٢٣ــ احمد أمين : ضحى الاسلام ، الجزء الثالث ، ص ٨٥ .
٢٤ــ عادل العوا : المرجع السابق ، ص ٢٣ .

مطلقاً ، وليس له القدرة على شيء ونفوا الصفات الإلهية التي تحتمل التشبيه ونزهوا الله من مخلوقاته وأنكروا رؤية الله في الآخرة[٢٥] •

ولقد جنّد الأمويون مفكرين وشعراء لمناصرتها والدفاع عنها وتهيئة العقول لقبول فكرة الجبر كأساس لحكمهم ، إما اقتناعاً بها أو ممالأة للسلطات ورجال الحكم[٢٦] • وأول من قال بالجبرية هو جهم بن صفوان ، الذي استغل بعض آيات القرآن الكريم ، التي يعني ظاهرها الجبر ، ولم يترك للانسان أية قدرة على أفعاله ، فهو عبارة عن شيء هش ليس له قوة ولا ارادة ولا اختيار •

وجهم بن صفوان من أهل خراسان من الموالي ، أقام بالكوفة وكان فصيحا خطيبا يدعو الناس فيجذبهم ويسحرهم بأقواله • ولقد تعرض الجهم الى مسألة لا تقل خطراً عن الجبرية وهي القول بنفي صفات الله ، ذلك أنه وردت في القرآن الكريم آيات كثيرة تدل على أن لله صفات من سمع وبصر وكلام • فنفى جهم أن تكون لله صفات غير ذاته ، وقال : « ان ما ورد في القرآن مثل سميع وبصير ليس على ظاهره ، بل هو مأول ، لان ظاهره يدل عللى التشبيه بالمخلوق وهو مستحيل على الله ، فيجب تأويل ذلك » • وقال ان القرآن مخلوق ، خلقه الله الى غير ذلك »[٢٨] •

ولقد خلف جهم بن صفوان في هذا الاتجاه ، الجعد بن درهم مؤدب مروان بن محمد ، وأصله من حرّان ، وكان له تأثيره الظاهر في تاريخ العقيدة في بلاد الشام[٢٩] وآراؤه هي نفس آراء سابقه ابن صفوان ، أي أنه قال أن كل ما يصيب الانسان هو من الله •

٢٥ــ عبد القادر البغدادي : المصدر السابق ، ص ١٩٩ .
ــ عادل العوا : المرجع السابق ، ص ٢٤ .
٢٦ــ محمد عبد الرحمن مرحبا : المرجع السابق ، ص ٢٨٣ .
٢٧ــ محمد عبد الرحمن مرحبا : المرجع السابق ، ص ٢٨٤ .
٢٨ــ أحمد أمين : المرجع السابق ، ص ١٤٦ .
٢٩ــ خليل الزرو : المرجع السابق ، ص ١٤٧ .

وقال بنفي الصفات عن الله لتنزيهه عن الذي يوصف به البشر من أعمال أو يكون له حواس كحواسهم مثل العين واليد الى غير ذلك ، ويقول عنه الذهبي: « وكان الجعد أول من تفوه بأن الله لا يتكلم وقد هرب من الشام وكان يسأل وهب بن منبه عن الصفة ، فقال يا جعد ، ويلك أتعصي المسألة ، اني لاظنك من الهالكين ، لو لم يخبرنا الله في كتابه أن له يدا ما قلنا ذلك ، وان له عينا ما قلنا ذلك »(٣٠) .

وكما أثرت القدرية في أبناء العائلة الحاكمة من الأمويين ، فان الجبرية أثرت هي الاخرى في بعض الخلفاء الامويين ، مثال ذلك أن مروان بن محمد ، آخر خلفاء بني أميّة كان قد تأدب على الجعد بن درهم ، وسمي بمروان الجعدي نسبة الى مؤدبه الجعد بن درهم وذلك كما تحكي جميع المصادر التي تأتي على سيرة هذا الخليفة(٣١) .

ومهما يكن من أمر ، فان البداية لعلم الكلام تتضح معالمها الى حد ما في هذا العصر موضوع بحثنا ، الذي انطلقت أرضيته واتسعت حتى أصبحت علما قائما بذاته في العصر العباسي تحت اسم (المعتزلة)(٣٢) .

وانا نلاحظ أن بعض الخلفاء الأمويين كانوا يفرضون حجراً على رواد هذا العلم ، بدليل أن الخليفة عمر بن عبر العزيز قد وضع رسالة بليغة في الرد على القدرية(٣٣) . لكننا يجب أن لا نظلم عمر بن عبد العزيز من هذه الناحية كأن نقول أنه رجل أحب الخوض في مباحث علم الكلام والجدل عن قناعة وارادة مسبقة ، فالذي يتضح من خلال دراستنا لسيرته ، أنه لم يكن يجادل حباً في الجدل ، انما الذي حدث ، أنه وجد نفسه مجبراً على ذلك باعتبار أن القدرية ممثلة بغيلان الدمشقي ، ظهرت في عصره ، وكان عليه أن يجيب غيلان ويناقشه في المسائل التي قام بها وروج لها ، لان الخليفة يمثل المسلمين في جميع المجالات .

٣٠ـ الذهبي : تاريخ الاسلام ، الجزء الرابع ، ص ٢٣٩ .
٣١ـ السيوطي : تاريخ الخلفاء ، ص ٢٥٤ .
٣٢ـ حنا فاخوري وخليل الجر : المرجع السابق ، ص ١١٨ .
٣٣ـ خليل الزرو : المرجع السابق ، ص ١٥٣ .

ولم يشتهر عمر بن عبد العزيز على صعيد الجدل مع القدرية فحسب ، انما جادل الخوارج للذين نشطوا في عهد الذين سبقوه من الخلفاء ، واستطاع هذا الخليفة الذي لجأ الى الاقناع العقلي بديلا عن سلاح القتل والفتك ، فتمكن من تهدئة غليانهم خلال فترة حكمه القصيرة الامر الذي يدل على قدرته ومهارته الفكرية واطلاعه الواسع في مجال الجدل والاقناع ، وبالتالي على طبيعته الهادئة ومعاملته اللينة مع الذين عارضوا الخلافة الاموية . فقد روى الطبري : « ان خارجيين ناظرا عمر ، فقالا له : أخبرنا عن يزيد لم تقره خليفة بعدك ، قال : صيره غيري ، قال : أفرأيت لو وليت مالا لغيرك ثم وكلته الى غير مأمون عليه ، أتراك كنت أديت الامانة الى من ائتمنك ؟ قال : فقال انظراني ثلاثا ، فخرجا من عنده ، وخاف بنو مروان أن يخرج ما عندهم وفي أيديهم من الأموال ، وأن يخلع يزيد ، فدسوا اليه من سقاه سما ، فلم يلبث بعد خروجهما من عنده الا ثلاثا حتى مات »[٣٤] .

ومثال عمر بن عبد العزيز كان الاوزاعي ، الذي أجبر على الخوض في غمار الجدل فهو الذي جادل غيلان الدمشقي ، وأفتى بقتله . وهو الذي نصح ابا مسلم الفزاري بعدم الرواية عن ثور بن يزيد ، فغضب غضبة شديدة ، ثم قال : « قال رسول الله (ص) ستة لعنتهم ولعنهم الله ، وكل نبي مجاب الدعوة ، الزائد في كتاب الله ، والمكذب بقدر الله ، وثور بن يزيد أحدهم ، ثم قال لي : لا تأخذ دينك عنه ولا عن محمد ابن اسحق ، فانه كان يرى الاعتزال ، قال أبو مسلم ، فمحيت كتابي الذي سمعته عن ثور وألقيته في التنور »[٣٥] حتى أن الأوزاعي اضطر الى ارسال بعض الرسائل للقدريين يرد فيها على أقوالهم[٣٦] .

رابعا ـ المرجئة :

لقد سبق أن تطرقنا الى نشوء الفرق الدينية على أثر مقتل الخليفة الراشدي عثمان بن عفان ومن ثم الصراع السياسي بين علي ومعاوية والتي كان من أهمها :

٣٤ـ الطبري : المصدر السابق ، الجزء الخامس ، ص ٣١١ .
٣٥ـ ابن عساكر : التهذيب ، الجزء السادس ، ص ٤١١ .
٣٦ـ ابن عساكر : الجزء الثالث ، ص ٣١٣ .

الخوارج والشيعة ، وذلك في أكثر من موقع في هذا البحث • وكان الخلاف بين هذه الفرق يدور حول أحقيّة الخلافة هل هو علي بن أبي طالب أم معاوية بن أبي سفيان أم من ؟ومن ثم أخذت كل فرقة من هذه الفرق تحاول أن تدعم رأيها لا بل تضفي عليها الطابع الديني انطلاقا من القرآن الكريم وحديث الرسول (ص) ، علما بأن كلا الفريقين ، الخوارج والشيعة كانوا يقفون موقفا سلبيا من معاوية بن أبي سفيان ومن الأمويين جميعاً ويعتبرونهم غاصبين للسلطة • ونشأ عن هذه الخصومة السياسية جدل استمدت مقوماته من كتاب الله وسنة رسوله ، وتسبب ذلك كله بنشوء ما سمي في الحياة العقلية الاسلامية بـ « علم الكلام »[٣٧] •

وفي غمرة هذه الاحداث السياسية والفكرية الدينية ، نشأت أيضا فرقة المرجئة حيث كانت سياسية في بادىء الامر ، ثم ما لبث أن أضفت على آرائها الطابع الديني وحددت محوراً لآرائها يدور حول جوهر العقيدة هو « الايمان » و « الفكر »و « والمؤمن » و «الكافر »[٣٨] ، وكان السبب في ذلك كله موقف الخوارج والشيعة السياسي والديني من بني أمية ، اذ كانت كلتا الفرقتين تعتبر بني أميّة مغتصبين للسلطة في حكم المسلمين ، هذا من الناحية الساسية ، أما من الناحية الدينية فقد اعتبروا كفارا • يضاف الى ذلك أن كل فريق من الشيعة والخوارج اعتقد بتكفير الفريق الآخر • وهنا نشأ فريق اتخذ موقفاً وسطاً بين الاطراف المتخاصمة ، ورفضوا اعطاء حكم على أي طرف من هذه الاطراف ، ولم يكفروا أحدا بل أرجأوا الحكم الى الله في حق الناس وقالوا ان الاعمال ليست جزءا من الايمان ، أي الانسان لا يعد كافرا اذا ارتكب معصيته وان كانت كبيرة طالما كان مؤمناً بقلبه ولا أحد يستطيع الحكم على ما في قلوب البشر الا الله سبحانه وتعالى • هذا الفريق سمي في تاريخ الحضارة الاسلامية بـ « المرجئة » لانهم قالوا بارجاء أمر المختلفين حول الخلافة الى الله والى يوم

٣٧ـ انظر ص ١٣٧ وما بعدها من هذا البحث .
ـ محمد عبد الرحمن مرحبا : المرجع السابق ، ص ٢٧٠ وما بعدها .
٣٨ـ أحمد أمين : ضحى الاسلام ، ص ٣١٦ .

القيامة • ان هذه النزعة أدت الى عدم الدخول في الحروب والمنازعات التي بين المسلمين بعضهم وبعض هي الأساس الذي بني عليه مذهب الارجاء ، والذي لم يتكون كمذهب عقائدي نابع من الكتاب والسنة الا بعد ظهور الخوارج والشيعة • بعد هذا التاريخ تطورت المرجئة لتصبح فرقة كلامية تبحث في العقائد الدينية والمسائل المتصلة بهذه العقائد ، ولا سيما مسائل الايمان والمؤمن والمعصية والعاصي والكفر والكافر • وقالت المرجئة : ان الايمان هو معرفة الله ورسله وان من آمن بالله ورسله ، وترك الفرائض وارتكب كبيرة من الكبائر ، فهو مؤمن ، وان الايمان هو الاعتقاد بالقلب وان الاعمال الظاهرة ليست جزءا من الايمان • وهذا مخالف لما قالت به الخوارج من أن الايمان هو معرفة الله ورسله ، وأداء الفرائض ، والكف عن الكبائر • كما أنه مخالف لما قالت به الشيعة ، حيث كان اعتقادهم بالامام ركنا أساسيا من أركان الايمان • في حين اتخذ المرجئة موقفا أكثر مغالاةحول آراء الشيعة والخوارج فقالت : « ان الايمان الاعتقاد بالقلب ، وان أعلن الكفر بلسانه ، وعبد الاوثان ، أو لزم اليهودية أو النصرانية في دار الاسلام وعبد الصليب وأعلن التثليث في دار الاسلام ومات على ذلك فهو مؤمن كامل الايمان عند الله عز وجل ، ولي الله عز وجل ، من أهل الجنة »(٣٩) • وقالت المرجئة أيضا بأن لله وعدا ووعيدا وان وعده لا يتخلف لان العقاب الذي توعد الله به عدل ، والله أن يتصرف في عدله كما يشاء(٤٠) •

وعلى هذا الأساس من الفهم للايمان عند المرجئة ، اتسعت دائرة المؤمنين ، حتى أصبح في نظرهم أن كل من آمن بالله ورسله فهو مؤمن وان ارتكب الكبائر ومن الممكن أن يدخل الجنة من غير عقاب • واعتبروا كل الطوائف المخالفة لهم من شيعة ومعتزلة وخوارج وغيرهم مؤمنين كما عدوا كل من تأول واجتهد مؤمنا وان أخطأ وليس كافرا الا من أجمعت الامة على كفره ، وليس أحد يخلد في النار من المؤمنين • وهذا الموقف الديني للمرجئة ينطوي أيضاً على موقف سياسي يتمثل بموقفهم المحايد تجاه الخلفاء الامويين ، فهم ليسوا معهم

٣٩ـ احمد امين : فجر الاسلام ، ص ٢٨١ . (نقلا عن ابن حزم ، الفصل في الملل والنحل) .
٤٠ـ أحمد امين : ضحى الاسلام ، ص ٣١٩ و ٣٢٠ .

ولا ضدهم ، وفي نظرهم ان كلا الفريقين المتنازعين على السلطة من أتباع علي بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان جميعهم مصدق بالله ورسوله ، وبالتالي جميعهم مؤمن ، لان غاية خطأهم ، ان أخطأوا انهم ارتكبوا كبيرة والكبيرة لا تخرج من الايمان[41] .

ومهما يكن من أمر ، فان المصادر التاريخية لم ترو لنا أن أحدا من رجال المرجئة قد اضطهد من قبل الامويين ، لا بل نرى أنهم كانوا يستعملون من عرف بالارجاء في أعمالهم وذلك كما فعل يزيد بن المهلب بن أبي صفرة بثابت قطنة ، وهو شاعر المرجئة ، فقد ولاه أعمالا من أعمال الثغور . وعلى العموم فيمكننا وصف المرجئة بأنهم جماعة مسالمة لان عقيدتهم تبعث على المسالمة والوقوف على الحياد[42] .

والمرجئة ثلاثة أصناف : صنف منهم قالوا بالارجاء في الايمان وبالقدر كأبي شمر وابن شبيب وغيلان وسموا مرجئة قدرية فقالوا ان الايمان هو المعرفة والاقرار بالله تعالى وبما جاء من عنده مما اجتمعت عليه الأمة كالصلاة والزكاة والصيام والحج وتحريم الميتة والدم ولحم الخنزير ووطء المحارم ونحو ذلك وما عرف بالعقل من عدل الايمان وتوحيده ونفي التشبيه عنه وأراد بالعقل قوله بالقدر وأراد بالتوحيد نفيه عن الله تعالى صفاته الأزلية[43] .

وصنف منهم قالوا بالارجاء بالايمان وبالجبر في الاعمال على مذهب جهم بن صفوان ، أي على مذهب الجبرية[44] . والصنف الثالث من المرجئة خارجون عن الجبرية والقدرية والتزموا بالأصول التي سبق ذكرها حول الايمان .

ومن رجالات المرجئة ، الحسين بن محمد بن علي بن أبي طالب ، الذي يروى عنه أنه اول من قال بالارجاء ، وكان يكتب فيه الى الامصار . كما اعتبر من

٤١ــ احمد امين : ضحى الاسلام ، ص ٣٢٩ .
٤٢ــ محمد عبد الرحمن مرحبا : المرجع السابق ، ص ٣٧٥ و ٣٧٦ .
٤٣ــ عبد القاهر البغدادي : المصدر السابق ، ص ١٩٠ ــ ١٩٤ .
٤٤ــ انظر ص ٣٣٤ من هذا البحث وما بعدها .
ــ شوقي ضيف : تاريخ الادب العربي ، العصر الاسلامي ، ص ٢٠٥ .

المرجئة كل من سعيد بن جبير ومقاتل بن سليمان • ويروى عن هـذا الأخير أنـه كان يقول : ان المؤمن العاصي يعذب يوم القيامة على الصراط ، وهو عـلى متـن جهنم يصيبه لفح النـار ولهبها فيتألم بذلك على مقـدار المعصيّة ، ثم يدخـل الجنـة[٤٥] • وعون بن عبد الله بن عقبة الهذلي الذي كان مـن رؤوس المرجئـة لكنه عاد وتبرأ منهم وانضم الى الشيعة وذلك بعد مناظرة كلامية جرت بينه وبين الخليفة الأموي عمر بن عبد العزيز •

ولقـد عرف مذهب المرجئة في كل من العـراق والشام وكان له أنصار في خراسان كان من أقدمهم الشاعر ثابت قطنة وبعد وفاتـه ظهر أيضا جهم بـن صفوان الذي تعاون مع الحارث بن سـريج في اشعال ثورة عنيفـة هناك لكـن الأمويين تمكنوا من القضاء على هذه الثورة ومن قتل الحارث بن سريج وذلك في عهد مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية • والجدير بالذكر أن هذه الثورة التي قادها زعماء المرجئة ضد الامويين لم تكن لاسباب مذهبية أو عقائدية ولكـن لاسباب قبلية وعداوات شخصية[٤٦] •

خامساً ـ المعتزلـة :

فرقة كلامية اسلامية ظهـرت في أخريات القـرن الاول الهجـري/السابع الميلادي ، أي في نهايات العصر الاموي ، وبلغت شأوها في العصر العباسـي • وقد تضاربت آراء المؤرخين في سبب اطلاق اسم « المعتزلة » على هذه الفرقـة • فمنهم من قال بأنها سميت كذلك « لاعتزالها قول الأمة في دعواها أن الفاسق من أمة الاسلام لا مؤمن ولا كافر »[٤٧] • ومنهم من قال بأن السـبب في تسميتهم « معتزلة » ما ذكر أن واصلا وعمرو بن عبيد ، اعتزلا حلقة الحسن البصـري واستقلا بأنفسهما ، كما يروى أنـه دخل واحد على الحسن البصـري فقـال : يا امامالدين ، لقد ظهر في زماننا جماعة يكفرون أصحاب الكبائـر ، والكبيرة

٤٥ـ أحمد أمـين : ضحى الاسلام ، ص ٣٢٣ •
٤٦ـ شوقي ضيف : العصر الاسلامي ، ص ٢٠٦ •
ـ أحمد أمـين : ضحى الاسلام ، ص ٣٢٥ •
٤٧ـ عبد القاهر البغدادي : المصدر السابق ، ص ٩٨ •

عندهم لا تضر مع الايمان ، بل العمل عندهم ليس من الايمان ركناً ولا يضر مع الايمان معصية ، كما لا ينفع مع الكفر طاعة ، وهم مرجئة الأمة فكيف تحكم أنت لنا في ذلك ، اعتقادا ؟ ففكر الحسن في ذلك ، وقبل أن يجيب ذلك ، قال واصل بن عطاء : أنا لا اقول ، ان صاحب الكبيرة مؤمن مطلقا ، ولا كافر مطلقاً ، بل هو في منزلة بين المنزلتين ، لا مؤمن ولا كافر ، ثم قام ، واعتزل الى اسطوانة من اسطوانات المسجد ، يقرر ما أجاب به على جماعة من أصحاب الحسن ، فقال الحسن : اعتزلعنا واصل ، فسمي هو وأصحابه بـ «المعتزلة»[٤٨].

ويرى البعض أن الاسم » المعتزلة « يرقى الى ما قبل انفصال واصل عن الحسن البصري ، وأن أصل المعتزلة أصل سياسي ، فقد نشأ كما نشأت الشيعة والخوارج ، وكان مقتل عثمان وتولي علي للخلافة في أصل نشأتها كما كان في اصل نشأة غيرها . فيروى أن سعد بن أبي وقاص وعبد الله بن عمر ومحمد بن مسلمة وأسامة بن زيد اعتزلوا عن علي بن أبي طالب ورفضوا محاربته كما رفضوا القتال بجانبه ، فسموابالمعتزلة وهم اجداد جميع المعتزلين الآخرين[٤٩] .

كما يروى أنهم سموا بالمعتزلة لقولهم بأن صاحب الكبيرة اعتزل عن الكافرين والمؤمنين فالمعتزلة على هذا الرأي هم القائلون باعتزال صاحب الكبيرة[٥٠] .

من مجمل هذه الروايات نلخص نتيجتين : الأولى أن الاعتزال تكون حول الحسن البصري وتلميذيه واصل بن عطاء وعمرو بن عبيد . والثانية ، أن الاعتزال كان يدور حول مسائل دينية بحتة .

أما كيف تكونت المعتزلة حول الحسن البصري فذلك يعود الى الجدلالمذهبي الذي كان يدور على ألسنة أصحاب الفرق الدينية حول الايمان والكلام في كتاب

٤٨ـ عبد الجبار الهمذاني : المصدر السابق ، ص ١٠ .
ـ أحمد أمين : فجر الاسلام ، ص
٤٩ـ حنا فاخوري وخليل الجر : المرجع السابق ، ص ١٠٧ .
٥٠ـ أحمد أمين : فجر الاسلام ، ص ٢٩٨ .

الله وسنة رسوله • فعدّ المسلمون مرتكب الكبيرة ما دون الشرك فاسدا أو فاجرا لكنهم اختلفوا في شأن الفاسق ، هل هو مؤمن أم كافر ، فقال الخوارج بل هـو كافر مخلّد في النار اذ لا يتم الايمان دون العمل • وقالت المرجئة أنه مؤمن وامتنعت عن تعيين القصاص وأرجأت أمره الى يوم القيامة ليحكم الله فيه كما يشاء • وذهب الحسن البصري يعقد حلقات المناظرة في مساجد البصـرة ويقول أن مرتكب الكبيرة منافق ، وبقيت القضية غير محلولة حلاً مرضياً لجماعة المسلمين فقام واصل بن عطاء يعرض حلا جديدا لهـا ، فعدّ مرتكب الكبيرة فاسقاً ، وجعل له منزلة بين منزلتي الكفر والايمان ولئن أخلد في النار ، فدركته فوق دركة الكفّار وذلك اذا خرج من الدنيا عن غـير توبة • وهذا الرأي هو الـذي حمل عمرو بن عبيد على اعتنـاق الاعتـزال[٥١] •

وعلى أساس ما ذكرناه ، فـان موقف المعتزلة كان موقفا وسطا بين الخوارج والمرجئة وعلى الأخص واصل بن عطاء وأتباعه الذين قالوا بالمنزلة بين المنزلتين وأن مرتكب الكبيرة ليس مؤمناً وليس بكافر مطلق أيضاً لأن الشهادة وسائر أعمال الخير موجودة فيه لا وجه لانكارها • ويستتبع هـذا الرأي آراء سياسية نتيجة لتطبيقه على الاحداث التي سببت الخلاف بـين المسلمين ، أي الفريقين كان مخطئا ؟ فقالوا إن أحد الفريقين محق والآخر على باطل واننا لا نعرف منهم المحق من المبطل فوكلنا أمر القوم الى عالمه، وتولينا القوم على أصل ما كانوا عليه قبل القتال، فاذا اجتمعت الطائفتان قلنا : قد علمنا أن احداكما عاصية لا ندري أيكما هي[٥٢] •

وتتلخص تعاليم المعتزلة في الأصول الخمسة التالية[٥٣] :

١ ـ التوحيد : التوحيد من العقائد الاسلامية الأساسية ، لم يبتدعه المعتزلة ابتداعا وانما دافعوا عنـه دفاعا مستميتا حتى عرفوا بـ « أهـل التوحيد » لكنهم بحثوا في جوهره ودحضوا الآراء التي تشوب وحدة الله المطلقة والتنزيه الكامل •

٥١ـ زهدي جـار الله : المرجع السابق ، ص ١٢ ـ ١٤ •
٥٢ـ حنا فاخوري وخليل الجر : المرجع السابق ، ص ١١٨ و ١١٩ •
٥٣ـ احمد أمـين : فجـر الاسلام ، المرجع السابق ، ص ٢١ •

وعلى هذا الأساس من الفهم للتوحيد فقد حاربوا بعنف كل ما يحمل على التشبيه أو اعتبار صفات في الله . وأهم مسألة أثيرة وكانت موضع جدل وخصومة عنيفة في تاريخ الفكر الاسلامي ، انطلاقا من مبدأ التوحيد ونفي الصفات عن الله تعالى ، هي مسألة « خلق القرآن الكريم » . فمن صفات الله الكلام لقوله تعالى : « وكلّم الله موسى تكليما »[٥٤] . فهل هذا الكلام أزلي أم محدث ؟ فقالوا ان اعتبار كلام الله أزلي ينافي التوحيد والقرآن وهو كلام الله ، محدث ، لأن فيه جميع صفات الحدوث . فهو مؤلف من سور وآيات وكلمات وحروف تقرأ وتسمع ، ولها أول ونهاية فلا يمكن أن تكون أزلية ، كما يضاف الى ذلك أن القرآن الكريم فيه الناسخ والمنسوخ والناسخ يبطل المنسوخ ، فلا يجوز أن يقع النسخ في القديم ولا أن يوصف الأزلي بالحدوث . فالقرآن اذن مخلوق ، وكلام الله مخلوق أيضا يحدثه الله عند الحاجة اليه ، وهذا الكلام ليس قائماً به تعالى بل هو خارج عن ذاته ، يحدثه في محل فيسمع في المحل[٥٥] .

٢ ــ العدل : إن المؤمنين جميعا يعتقدون بعدل الله ، لكن المعتزلة توسعوا في معنى العدل وحدوده ، وقالت إن كل انسان محاسب على أعماله، لأن له الاختيار المطلق في الأفعال من خير وشر . والعدل من صفات الله والظلم والجور منفيّان عنه . قال تعالى : « وما ربك بظلاّم للعبيد »[٥٦] . وقال تعالى : « وما ظلمناهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون »[٥٧] . وقالت بحرية العبد وتمكّنه من خلق أفعاله وناضلت في سبيل هذا المبدأ حتى أطلق عليها اسم « أهل العدل والتوحيد » وكان ذلك رداً على مغالاة جهم بن صفوان وأصحابه في سلب الانسان قدرته وجعله كالجماد[٥٨] والرد على الرافضة من الشيعة الذي قالوا بوقوع الظلم من الله ، وانه يشاء كل فاحشة ويريد كل معصية[٥٩] .

٥٤ــ سورة النساء : الآية ١٦٣ .
٥٥ــ احمد امين : ضحى الاسلام ، ص ٢٢ ــ ٤٤ .
٥٦ــ سورة فصلت : الآية ٤٦ .
٥٧ــ سورة البقرة : الآية ٥٧ .
٥٨ــ احمد امين : فجر الاسلام ، ص ٢٩٧ .
٥٩ــ حنا فاخوري وخليل الجر : المرجع السابق ، ص ١١٧ .

٣ ـ الوعد والوعيد : إن الايمان في رأي المعتزلة هو معرفة بالقلب واقـرار باللسان وعمـل بالجوارح ، وإن كل عمل فرضاً كان أو نفلاً ايمان ، وكلما ازداد الانسان خـيرا ازداد ايمانا وكلما عصى نقص ايمانه . وإن المعاصـي التي يرتكبها الناس تنقسم الى صغائر والى كبائر ، واختلفوا في تعريف الصغيرة والكبيرة ، لكن المشهور من أقوالهـم أن الكبيرة ما أتى فيها الوعيد ، والصغيرة ما لـم يأت فيها الوعيد ، وربطوا الثـواب والعقاب بالأعمال . فالله يثيب المطيـع ويعاقب مرتكب الكبيرة ، وصاحب الكبيرة اذا مات ولم يتب ، لا يجوز أن يعفو الله عنه لأنه أوعد بالعقاب على الكبائر وأخبر به ويقتضي أن ينفذ الله وعده ووعيده لأنه عدل والعدل واجب على الله[٦٠] .

٤ ـ المنزلة بـين المنزلتين : وهذا الأصـل من تعاليم المعتزلة كان السبب في اعتزال واصل بن عطـاء عن مجلس أستاذه الحسن البصري كما ذكرنا سـابقا وهو الحكم الذي قـال به على المسلم الذي يرتكب الكبيرة دون الشـرك بأنه لا مؤمن ولا كافر ، بل فاسق ، وجعل الفسق منزلة مستقلة عـن منزلتي الكفر والايمان . فيكون الفاسق دون المؤمن وخير من الكافر .

٥ ـ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر : إن هذا الأصل من تعاليم المعتزلة ، يشترك فيه المسلمون عامة ، عملا بقوله تعالى : « ولتكن منكم أمّة يدعون الـى الخير ويأمرون بالمعروف وينهونَ عن المنكر وأولئك هـُمُ المفلحون »[٦١] ، وقـال تعالى : « يا بنيّ أقم الصلاة وأمُر بالمعروف وانهَ عـن المُنكر »[٦٢] . فتناول المعتزلة هـذه القضية وجعلوها واجبة على كـل مؤمن وأصبحت مقاومة الكافرين والفاسقين من واجبات الحياة الايمانية .

أما أشهر الداعين الى الاعتزال في العصر الأموي فهم :

ـ واصل بن عطاء : هو أبو حذيفة واصل بن عطاء المعتزلي المعروف بالغزال ،

٦٠ـ احمد امـين : ضحى الاسلام ، ص ٦٢ و ٦٣ .
٦١ـ سورة آل عمران : الآيـة ١٠٤ .
٦٢ـ سورة لقمـان : الآيـة ١٧ .

مولى بني ضبّة وقيل مولى بني مخزوم . كان أحد الأئمة المتكلمين في علوم الكلام وغيره . كان يجلس الى الحسن البصري ، فلما ظهر الاختلاف وقالت الخوارج بتكفير مرتكبي الكبائر وقالت الجماعة بأنهم مؤمنون وإن فسقوا بالكبائر ، فخرج واصل بن عطاء على الفريقين وقال : إن الفاسق من هذه الأمة لا مؤمن ولا كافر في منزلة بين المنزلتين ، فطرده الحسن البصري عن مجلسه فاعتزل عنه وجلس اليه عمرو بن عبيد[63] .

وله من التصانيف كتاب أصناف المرجئة ، كتاب في التوبة ، كتاب المنزلة بين المنزلتين ، كتاب خطبته التي أخرج منها الراء ، كتاب معاني القرآن ، كتاب الخطب في التوحيد والعدل ، كتاب ما جرى بينه وبين عمرو بن عبيد ، كتاب السبيل الى معرفة الحق ، كتاب في الدعوة ، كتاب طبقات أهل العلم والجهل . توفي سنة ١٣١ هـ/٧٤٨ م[64] .

ـ عمرو بن عبيد : هو أبو عثمان عمرو بن عبيد بن باب ، المتكلم الزاهد المشهور . مولى بني عقيل ثم آل عرّادة بن يربوع بن مالك . كان أبوه يخلف أصحاب الشرط بالبصرة فكان الناس اذا رأوا عمرا مع أبيه قالوا : هذا خير الناس ابن شر الناس ، فيقول أبوه : صدقتم . وكان عمرو شيخ المعتزلة في وقته . سئل الحسن البصري عنه فقال للسائل : « سألت عن رجل كأن الملائكة أدّبته ، وكأن الأنبياء ربّته ، إن أقام بأمر قعد به ، وإن قعد بأمر قام به ، وإن نهى عن شيء كان ألزم الناس له ، وإن نهى عن شيء كان أترك الناس له ، ما رأيت ظاهراً أشبه بباطن ولا باطنا أشبه بظاهر منه » . ولعمرو بن عبيد رسائل وخطب وكتاب التفسير عن الحسن البصري ، وكتاب الرد على القدرية ، وكلام كثير في العدل والتوحيد وغير ذلك . توفي سنة ١٤٤ هـ/٧٦١ م[65] .

٦٣ـ ابن خلكان : المصدر السابق ، الجزء السادس ، ص ٧ و ٨ .
٦٤ـ ابن خلكان : المصدر السابق ، الجزء السادس ، ص ١١ .
٦٥ـ ابن خلكان : المصدر السابق ، الجزء الثالث ، ص ٤٦٠ ـ ٤٦٢ .

وهكذا ، وبعد دراستنا الموجزة جدا لعلم الكلام في العصر الأموي ، يمكننا أن نستنتج بأن هذا اللون الهام من ألوان المعرفة الانسانية ، التي تعتمد أولا وقبل كل شيء على عمق التفكير وبعد الادراك ودقـة الملاحظة وقوة المنطق في التعبير عن ماهية الانسان والكون جميعا ومسببات وجودهما .

ونلاحظ أيضا أن هذا العلم انما وضعت بذوره الأولى في أواخر العصر الأموي ثم ما لبث أن بلغ قمة النضوج والاتساع واغناء الحضارة الانسانية في العصور اللاحقة . فقد بدأ هذا العلم الاسلامي المضمون والهدف ، غايته الدفاع عن مسائل العقيدة والاعتقاد مستنبطا دلالاته جميعها من القرآن الكريم وسنة الرسول (ص) . وسرعان ما تكونت فيه مذاهب متعددة كان من أهمها القدرية ، الجبرية ، المرجئة والمعتزلة .

فهرس المصادر والمراجع

ـ ابن الأثير ـ الكامل في التاريخ ـ طبعة دار صادر بيروت .

ـ احمد (علي) تاريخ المغرب العربي الاسلامي ـ طبعة جامعة دمشق ١٩٩٢ .

ـ الأصبهاني (أبو الفرج) كتاب الأغاني ـ طبعة بولاق وطبعة دار الكتب المصرية . تحقيق علي محمد البجاوي القاهرة ١٩٧٠ .

ـ بدر (أحمد) دراسات في تاريخ الأندلس وحضارتها ج١ طبعة دمشق ١٩٦٩ .

ـ البغدادي ـ خزانة الأدب ـ طبعة بولاق .

ـ البلاذري ـ انساب الأشراف ج٥ طبعة غويتابن ـ فتوح البلدان ـ طبعة دار النشر للجامعيين طبعة بيروت ١٩٥٧ .

ـ تريتون ـ الخلفاء ورعاياهم من غير المسلمين ـ الترجمة العربية .

ـ تيوفانس ـ خرتوغرافيا .

ـ الجهشياري ـ الوزراء والكتاب .

ـ ابن الجوزي ـ سيرة عمر بن عبد العزيز ـ طبعة مصر ١٣٣١ هـ .

ـ حسني (فيليب) تاريخ العرب مطول ـ طبعة بيروت ١٩٥٠ .

ـ الخربوطلي (علي حسني) تاريخ العراق في ظل الحكم الاموي طبعة دار المعارف القاهرة ١٩٥٩ .

ـ ابن خلدون (عبد الرحمن) المقدمة .

ـ ابن خلكان ـ وفيات الأعيان ـ طبعة مكتبة النهضة ١٩٤٨ .

ـ خليفة بن خياط ـ تاريخ خليفة بن خياط تحقيق سهيل زكار ـ طبعة دمشق

ـ الدباغ ـ متالم الايمان في معرفة أهل القيروان .

ـ الدوري (عبد العزيز) مقدمة في التاريخ الاقتصادي العربي ـ طبعة بيروت ١٩٦٠ .

ـ دوزي ـ تاريخ مسلمي اسبانيا ج١ ترجمة حسن حبشي ـ طبعة دار المعارف .

ـ دينيت (دانيل) الجزية والاسلام ترجمة الدكتور فوزي فهيم جاد الله طبعة بيروت ١٩٦٠ .

ـ الدينوري ـ الأخبار الطوال ـ طبعة عبد المنعم عامر القاهرة ١٠٦٠ .

ـ الريحاوي (عبد القادر) مدينة دمشق ـ طبعة دمشق ١٩٦٩ .

ـ رستم (أسد) العرب والروم جزءان . طبعة أولى بيروت ١٩٥٥ .

ـ ابن سعد ـ الطبقات الكبرى ـ طبعة دار صادر ودار بيروت ١٩٥٧ .

ـ سعد زغلول عبد الحميد ـ تاريخ المغرب العربي .

ـ السمهودي ـ الخلاصة ـ طبعة مكة .

ـ الطبري ـ تاريخ الرسل والملوك ـ طبعة أبو الفضل ابراهيم .

ـ عاقل (نبيه) الامبراطورية البيزنطية ـ طبعة دمشق ١٩٧٠ .

تاريخ العرب القديم وعصر الرسول ـ طبعة دمشق ١٩٦٩ .

ـ ابن عبد الحكم ـ فتوح مصر والمغرب والأندلس تحقيق نوري ـ طبعة نيوهافن ١٩٢٠ .

سيرة عمر بن عبد العزيز تحقيق احمد عبيد ـ الطبعة الثالثة دمشق ١٩٦٤ .

ـ عبد الحق (سليم عادل) مشاهد دمشق الأثرية ـ طبعة دمشق ١٩٥٠ .

ـ ابن عبد ربه ـ العقد الفريد .

ـ ابن عذاري المراكشي ـ البيان المغرب في اخبار المغرب طبعة ليدن .

ـ عثمان (فتحي) الحدود الاسلامية البيزنطية ج٢ .

ـ العدوي (ابراهيم) الامويون والبيزنطيون ـ الطبعة الثانية ـ الدار القومية للطباعة والنشر .

ـ ابن العربي ـ العواصم من القواصم ـ طبعة المطبعة السلفية ١٣٧١ هـ .

ـ العريني (السيد الباز) الدولة البيزنطية ـ طبعة القاهرة ١٩٦٥ .

ـ ان عساكر ـ تاريخ دمشق ـ طبعة عبد القادر بدران دمشق ١٣٢٩ هـ .

ـ عمر (فاروق) طبيعة الدعوة العباسية ـ الطبعة الاولى بيروت ١٩٧٠ .

ـ عنان (عبد الله) دولة الاسلام في الاندلس ـ العصر الاول طبعة اولى ١٩٤٣ .

ـ فان فلوتن ـ السيادة العربية والشيعة والاسرائيليات في عهد بني أمية ـ ترجمة حسن ابراهيم حسن ومحمد زكي ابراهيم ـ طبعة أولى القاهرة ١٩٣٤ .

ـ فرح (نعيم) تاريخ بيزنطة السياسي ـ منشورات جامعة دمشق ١٩٩١ـ١٩٩٢ .

ـ فلهاوزن (يوليوس) تاريخ الدولة العربية ترجمة محمد عبد الهادي أبو ريدة سلسلة الالف كتاب .

ـ فيصل (شكري) حركة الفتح الاسلامي في القرن الاول ـ طبعة دار العلم للملايين بيروت .

ـ ابن قتيبة ـ الامامة والسياسة ـ طبعة القاهرة ١٣٢٥ هـ .

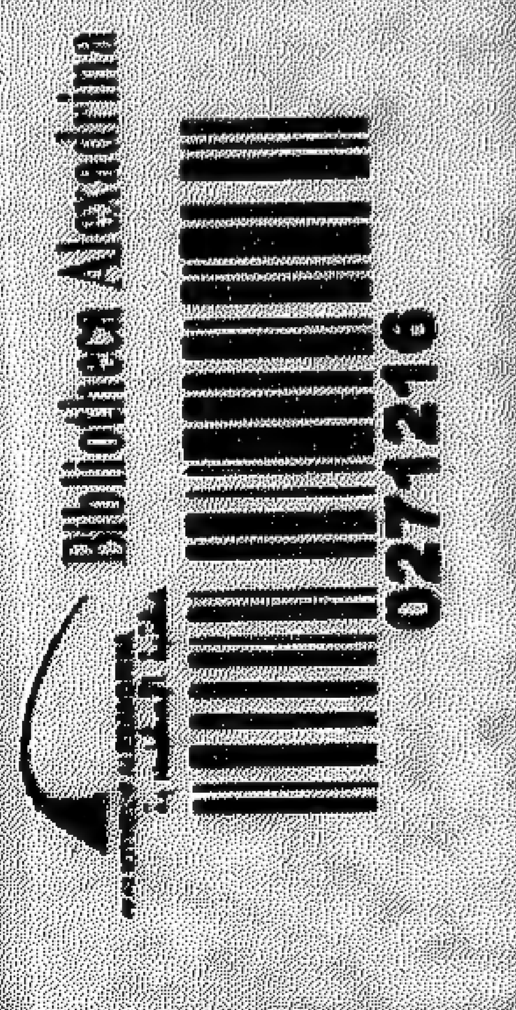
- القلقشندي ـ مآثر الأنافة في معالم الخلافة تحقيق عبد الستار أحمد فراج طبعة الكويت ١٩٦٤ .
- القمي ـ كتاب المقالات والفرق ـ طبعةطهران ١٩٦٣ .
- كاهن (كلود) تاريخ العرب والشعوب الاسلامية ـ المجلد الاول ـ ترجمة بدر الدين القاسم ـ طبعة بيروت ١٩٧٢ .
- الكندي ـ الحكام والقضاة في مصر ـ ليدن ١٩١٢ .
- لوسترانج ـ بلاد الخلافة الشرقية .
- ماجد (عبد المنعم) التاريخ السياسي للدولة العربية ـ عصر الخلفاء الامويين ـ الجزء الثاني ـ الطبعة الثالثة ١٩٦٦ .
- مارسيه (جورج) الفن الاسلامي ـ ترجمة عفيف بهنسي ـ طبعة وزارة الثقافة والارشاد القومي دمشق ١٩٦٨ .
- الماوردي ـ الأحكام السلطانية ـ طبعة البابي الحلبي القاهرة ١٩٦٠ .
- المرزوقي ـ شرح الحماسة .
- المسعودي ـ مروج الذهب ـ طبعة محي الدين عبد الحميد القاهرة ١٩٤٨ .
- المقري ـ نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ـ طبعة محي الدين عبد الحميد القاهرة ١٩٤٩ .
- المقريزي ـ النزاع والتخاصم فيما بين بني أمية وبني هاشم ـ طبعة ليدن ١٨٨٨ .
- مؤلف مجهول ـ تاريخ الخلفاء ـ نشر النسخة المصورة وكتب المقدمة بطرس غرياز نيويج موسكو ١٩٦٧ .
- النص (حسان) العصبية القبلية واثرها في الشعر الأموي ـ طبعة بيروت دار اليقظة العربية .
- النصولي (انيس زكريا) الدولة الأموية في الشام ـ طبعة بغداد ١٩٢٧ .
- النوبختي ـ كتاب فرق الشيعة ـ طبعة ريتر استانبول ١٩٣٠ .
- هاردنج (لانكستر) آثار الأردن تعريب سليمان موسى ـ الطبعة الاولى ١٩٦٥ .
- ياقوت الحموي ـ معجم البلدان طبعة الخانجي .
- يحيى بن آدم ـ كتاب الخراج ـ طبعة ليدن ١٨٩٥ وطبعة المطبعة السلفية القاهرة ١٣٤٧ هـ .
- اليعقوبي ـ تاريخ اليعقوبي ـ طبعة دار صادر بيروت ١٩٦٠ .
- ابو يوسف ـ كتاب الخراج ـ طبعة المطبعة السلفية ـ القاهرة ١٣٤٦ هـ .

المراجــع الأجنبية

- Bell (Harald). The Administ Ration of E Ygpt Under The Umayyad Caliphs .
- Cresulell - Early muslim A R chitecture Penguin Beirut 1968.
- The Cambridge history of Islam Vol . ed - cup 1970 .
- Encyclopedia of Islam Istand 2 nd - ed .
- Bury (J.B) : A History of The Later Roman, Empire, Ed. London , 1931, P. 371 .
- Wiet, G.S , Eg pt Arabe, Paris , 1937 .
- Wiet, G.S , Egypt Arabe , Paris , 1937 P. 56 .
- Brockelman : Hist. of Isl. Peop pp. 93 - 101 .

الفهـــرس





صدر باشراف لجنة الانجاز

سعر المبيع للطالب (١٠٠) ل.س

مطبعة الاتحاد بدمشق